



مركز "الفائمه" للتحرى الحاسوبى - باصنهان

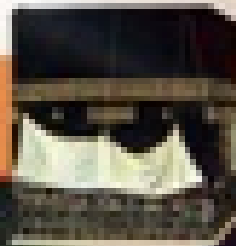
مجال تمثيل الولى الفقيه فى امور الحج و الزياره (Ψ)

www.Ghaemiyeh.com

www.Hajj.ir

ميقات الحج

تكملة مسكوتة في معرفة معاني الصلوات
والفرائض والسنن والعمرة والحج

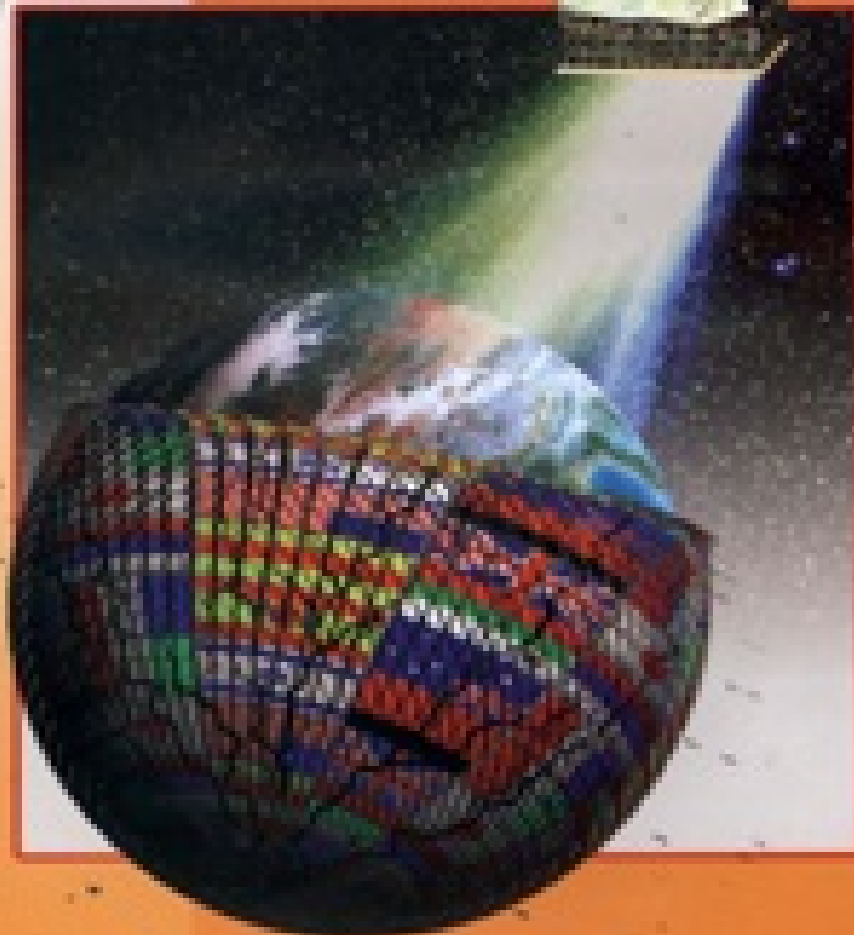


٢١

محرم - جمادى الثانية

١٤٢٥ هـ

الطبعة الثانية عشرة



« الطواف من الطابق الأول » « قلعة التطليل في الحج » « مسجداً غير لرام »

« مكة المكرمة » « جامعة الطاقة الإسلامية »

« فلسفة الحج في مدرسة أهل البيت (ع) » « من معالم التراث » « رسالة » « القصيدة »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبيوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
١١	مبقات حج-المجلد واحد والعشرون
١١	اشارة
١٢	الحج فى كلام الإمام الخمينى قدس سره
١٣	الحج فى كلام الإمام الخامنئى مدّظله العالى
١٤	الطواف من الطابق الأول دراسة فقهية استدلالية
١٤	اشارة
١٤	علاقة البحث بفكرة حدّ الطواف
١٥	علاقة البحث بمسألة الزيادة على البناء
١٦	جريان البحث فى الطواف الواجب والمندوب
١٦	لزوم دخول جميع أجزاء البدن فى الطواف وعدمه
١٨	حكم البناء فى مكّة مرتفعاً عن البيت
٢٠	الطواف من الطابق الأعلى
٢٢	مناقشات وإجابات
٢٨	فروع ملحقة:
٢٨	الفرع الأول: حكم الارتفاع القليل
٢٨	الفرع الثانى: شمول الحكم لحال الاضرار وعدمه
٢٩	الفرع الثالث: الاستنابة ومشروعيتها
٣٠	خلاصة البحث ونتيجة الدراسة
٣٢	فقه التظليل فى الحج (٢)
٣٢	مدخل
٣٤	المبحث الثالث: شرطية السير فى حرمة التظليل
٤٣	المبحث الرابع: حكم السفينة و القطار و...

٤٥	«.. مسجداً ضراراً...»
٤٥	اشارة
٤٦	القراءة
٤٧	معاني
٤٨	البلاغة
٤٨	قصة مسجد الضرار
٥١	المفاسد الأربع
٥٣	الصفة الثانية: «وكفراً»
٥٤	الصفة الثالثة:
٥٥	الصفة الرابعة:
٦٦	المقطع الأخير
٦٨	مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية
٦٨	اشارة
٦٨	١- مكة أم القرى:
٦٩	٢- مكة تحظى بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام:
٦٩	٣- البلد الأمين:
٧٠	٤- سلامة الاقتصاد والموارد:
٧٠	٥- اشتياق القلوب إليها:
٧١	٦- تساوى الناس فيها:
٧١	٧- أولياؤها من المتقين:
٧١	٨- فيها أول بيت وضع للناس:
٧١	٩- هدى للعالمين:
٧٣	١٠- الكعبة طاهرة مطهرة:
٧٤	١١- الكعبة قيام للناس:

٧٦	١٢- الكعبة بيت عتيق:
٧٦	١٣- الكعبة مثابة للناس:
٧٨	مكة موضع لإقامة الحج ومحور لنشر الثقافة الدينيّة:
٨١	بركات الحج
٨١	١- غفران الذنوب:
٨٢	٢- دخول الجنّة:
٨٢	٣- النورانيّة:
٨٣	٤- الحصول على خير الدارين:
٨٣	٥- طمأنينة القلب:
٨٣	٦- مجالسة النبيين والصالحين:
٨٥	٧- الأمن من العذاب:
٨٥	٨- علو الدرجات في الجنّة:
٨٥	٩- استجابة الدعاء:
٨٧	١٠- نفى الفقر:
٨٧	١١- سلامة الأبدان:
٨٧	١٢- الوقاية من الهلاك والعذاب:
٩١	٢- قال الصادق عليه السلام:
٩٣	فلسفة الحج موقفاً وعبادة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام
٩٣	إشارة
١٠٣	الإمتحان أرضاً وبناءً
١٠٩	قدم الكعبة ودحو الأرض:
١١٢	النظر إليها:
١١٣	المنزلة المباركة:
١٢٣	وقفة:

- الحجر الأسود الناطق الشاهد: ١٢٤
- الدعاء: ١٢٦
- موعد مع إبراهيم الحج مرآة التاريخ البشرى ١٢٧
- اشارة ١٢٧
- البيئة الثقافية لشريعتي ١٢٨
- علم اجتماع الدين ١٣٠
- الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا ١٣٤
- العدة المعرفية للحاج على شريعتي ١٣٨
- الحج يخلع معنى على ما لا معنى له ١٤٠
- الحج خلاصة دعوة إبراهيم ومعاناه هاجر ١٤٤
- دعاء ١٤٩
- الهوامش ١٥٠
- الحج والحجاج في كتب المستشرقين ١٥١
- اشارة ١٥١
- طلائعهم: ممالك أو في لباسهم ١٥٣
- الرحلات المحضرة بعناية ١٥٧
- عصر كبار المستشرقين ١٥٩
- الصحابي عبد الله بن رواحة ١٦٦
- اشارة ١٦٦
- إسلامه ١٦٩
- ومما قاله رسول الله صلى الله عليه و آله فيه: ١٧١
- ابن رواحة وآيات قرآنية: ١٧٣
- ابن رواحة ثالث ثلاثة شعراء ١٧٥
- هذا لعمرى من معاريف الكلام... ١٧٨

١٨٠	ابن رواحه في عمره القضاء
١٨٣	من حكمه رضوان الله عليه
١٨٤	موقفان لابن رواحه مع يهود خيبر
١٨٥	ابن رواحه ثالث ثلاثة أمراء!
١٩٨	من معالم التراث رسالتان و قصيدة
١٩٨	اشارة
٢٠٤	١- المرور بين العلمين إلى مفاخرة الحرمين
٢١٦	٢- رسالة في المفاخرة بين مكة والمدينة
٢٢٠	٣- قصيدة ابن الخطيب الإربلي
٢٢٤	مكة في وجدان شعراء ما قبل الإسلام
٢٢٤	اشارة
٢٢٦	المبحث الثاني: مكانة مكة وشرفها:
٢٣١	المبحث الثالث: صفة مكة القديمة:
٢٣٥	المبحث الرابع: حرمة مكة:
٢٣٩	المبحث الخامس: الاحتماء بمكة:
٢٤٢	المبحث السادس: الحلف ومفدساتها:
٢٤٥	المبحث السابع: مكانة قريش عند العرب:
٢٥٣	المبحث الثامن: قريش قُدوة العرب:
٢٦٠	الخاتمة:
٢٦١	أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية
٢٦١	(١) مكانة مكة المكرمة في قلوب مسلمي شبه القارة الهندية
٢٦٣	(٢) أثر مكة المكرمة على سلاطين شبه القارة وعلمائها:
٢٦٤	السلطان محمود شاه الغجراتي:
٢٦٥	السلطان شير شاه السورى:

- ٢٦٥ الامبراطور جلال الدين أكبر:
- ٢٦٧ أسرة مولانا أبي الكلام آزاد بين مكة والهند:
- ٢٧٠ صبي مكة بطور لغة صحافة الهند:
- ٢٧٢ عبد الله السندی في مكة:
- ٢٧٣ محمد يوسف الكاندهلوی في مكة:
- ٢٧٤ قطب الدين النهروالی:
- ٢٧٥ حكيم مولوی إرادت حسين:
- ٢٧٥ مكة وحركة الإصلاح الديني في شبه القارة:
- ٢٧٥ حركة تيتو مير الإصلاحية في البنغال:
- ٢٧٦ الحركة الفرائضية لحاجي شريعت الله:
- ٢٧٩ سيد أحمد شهيد وجماعة المجاهدين:
- ٢٨٢ مكة المكرمة في أدب شبه القارة:
- ٢٨٥ النشر الفني الممزوج بالشعر:
- ٢٨٨ الرمزية في النشر الفني عند أدباء شبه القارة:
- ٢٩٤ مكة والحج والشعر في شبه القارة:
- ٢٩٦ مكة والحرم والرمز الشعري:
- ٣١١ الهوامش:
- ٣١٢ معجم ما كتب في الحج و الزيارة (١٦) -
- ٣٤٥ تعريف مركز

میقات حج-المجلد واحد والعشرون

اشاره

نام کتاب: دو فصلنامه «میقات الحج»

نویسنده: مرکز تحقیقات حج

ص: ۱

الحج في كلام الإمام الخميني قدس سره

ص: ٢

لقد جاء الحجاج لضيافة الله، ولكي يزيلوا بماء زمزم ما علق بوجوههم من تراب رحلتهم وغبارها، ويطفئوا بزالل مناسك الحج عطشهم، ويتحملوا المسؤولية بجدارة أكبر، ويخلعوا عن أبدانهم في سيرتهم وصيرورتهم الأبدية؛ رداء التبعية وحجابها، والتعلق القلبي بالدنيا، ليس في

«مِقات»

الحج فحسب، بل في

«مِقات»

العمل أيضاً...

لقد شرع الحج لاقتراب الإنسان وارتباطه بصاحب البيت، ولم يكن مجموعة من الحركات والأعمال والألفاظ فحسب، لأن الإنسان لا يصل إلى الله تعالى بالكلام والألفاظ والحركات الميته.

إن الحج مركز للمعارف الإلهية، الذي يجب أن يستلهم منه مضامين السياسة الإسلامية في مختلف مناحي الحياة.

الحج دعوة لإيجاد مجتمع بعيد عن الرذائل المادية والمعنوية.

الحج تجسيد وتجلي لكافة المشاهد البديعة لحياة الإنسان والمجتمع المتكامل في الدنيا. وإن مناسكه لهي مناسك للحياة، وبما أن الأمة الإسلامية مزيج من كل عنصر وشعب، فلا بد وأن يكون إبراهيمياً حتى يتسنى له الالتحاق بقافلة أمة محمد صلى الله عليه وآله ويصبح جزءاً منها، ويداً واحدة، فإن الحج هو العامل الذي يهتئ ويوجد وينظم مثل هذه الحياة التوحيدية.

من نداء الإمام الخميني إلى حجاج بيت الله الحرام

الحج في كلام الإمام الخامنئي مدّظله العالی

الحجّ فرصة فريدة استثنائية، لأنها - من جهة - تصقل القلوب والنفوس، فيتمتع الحجيج - كلٌّ على قدر همّته وطاقته - ببركات هذه الرحمة الشاملة؛ ومن جهة أخرى تتمكن فيها شخصية الأئمة الإسلامية العامة - والتي تتألف من مختلف الشعوب والأعراق والأقطار والثقافات - من أن تحقّق مزيداً من التلاحم والانسجام، والشجاعة والصحوّة والوعي بالذات.

وهذا، ما يمثل الحاجة الضرورية الكبرى للعالم الإسلامي في عصرنا الحالي...

إنّ أمريكا تعتبر نفسها - وبشكل صريح - محقّة في الاعتداء على الدول والشعوب. وإنّ الدولة الصهيونية تهدّد الشخصيات الفلسطينية بالاغتيال، وذلك بشكل صارخ وصريح... وهكذا نلاحظ أنّ أمريكا وبريطانيا في العراق تهاجمان المواطنين العزل المشاركين في المظاهرات، وتنتهكان حريم منازل الناس وحرمة أعراضهم. ويتوعّد هؤلاء العالم الإسلامي ويهدّدونه بتأجيج نيران جديدة فيه، ولما يخدم لهب النيران التي اندلعت من قبل بأيديهم...

إنّ النخب السياسية والفكرية في عالمنا الإسلامي تتحمل اليوم مسؤولية جسيمة.

على المفكرين المسلمين أن ينقلوا رسالة الإسلام التحرّرية إلى مسامع مواطنيهم وقلوبهم، وأن يبينوا للشعوب المسلمة هويتها الإسلامية بوجه صحيح.

من نداء الإمام الخامنئي (مدّظله العالی)

موسم الحج، عام ١٤٢٤ هـ.

ص: ٥

الطواف من الطابق الأول دراسة فقهية استدلالية

إشارة

الشيخ محمدجواد الفاضل اللنكراني
 وقع الخلاف في عصرنا هذا في صحّة الطواف من الطابق الأول وعدمها، كما اختلفت وجهات النظر في جواز الطواف تحت الأرض
 بحذاء الكعبة فيما إذا بنيت أبنية تحت أرض المسجد.
 وبناءً على الجواز، هل يكون الترخّص منحصراً بما إذا لم يقدر على الطواف في صحن المسجد، كما إذا كان الزحام كثيراً أو لم يكن
 قادراً على المشي في الصحن لعدم التمكن والاحتياج إلى الإطافة بالآلات الموجودة أو لوجود المانع العرضي عن ذلك، أم لا يكون
 منحصراً بذلك، بمعنى أن الطائف يتخيّر - بدوياً - بين الطواف فيه والطواف في الطابق الأول؟
 والتحقيق حول هذا البحث يقع ضمن محاور:

علاقة البحث بفكرة حدّ الطواف

الأول: من الواضح دخول من ذهب إلى عدم وجود حدّ للمطاف في هذا النزاع، لكن هل يدخل فيه من ذهب إلى وجود حدّ له
 كالمشهور أم لا؟
 الظاهر دخولهم في محلّ البحث، وذلك بأن يفرض فيما إذا بنى في نفس الحدّ الطابق الأول والثاني حال كونهما مرتفعين عن البيت
 أو مساويين، إلّا أنّ المشكلة

ص: ٦

أنه لا واقع لهذا الفرض في زماننا هذا.

علاقة البحث بمسألة الزيادة على البناء

الثاني: وقع الخلاف في جواز الإضافة - من جهة الارتفاع - على البيت الشريف، وذلك بعد المفروغية عن أنه لا يجوز التنقيص أو التخریب فيه، فبناءً على جواز الإضافة، إذا تحققت الإضافة - مثلاً - إلى حد يصير ضعف الموجود الآن أو أكثر فلا شك في جواز الطواف حوله، وإن علا، لكثته - بناءً على الجواز وعدم تحقق الإضافة - وقع النزاع في جواز الطواف بالنسبة إلى محل يكون أعلى من البيت، وأما إذا ذهبنا إلى عدم جواز الإضافة إلى البيت، فالظاهر عدم الخلاف في عدم الجواز بالنسبة إلى ما يكون فوق الكعبة. والظاهر جواز الإضافة، فإنه مضافاً إلى الأصل - فإن البيت كسائر الأماكن والأبنية، فكما تجوز الإضافة مثلاً إلى نفس المسجد كذلك تجوز إلى نفس البيت، ولا ينبغي توهم أنه من الأمور التوقيفية كالأحكام التعبدية - يدل عليه بعض الروايات، منها: ما ذكره جماعة عن أحمد بن محمد بن سعيد بن جناح عن عدة من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كانت الكعبة على عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرع، وكان لها بابان، فبناها عبد الله بن زبير فرفعها ثمانية عشر ذراعاً، فهدمها الحجاج وبناها سبعة وعشرين ذراعاً» (١).

وتقريب الاستدلال بها أن يقال: إن عدم ردع الإمام عليه السلام يدل على جواز الإضافة من جهة الارتفاع إلى البيت. إلما أن الرواية غير معتبرة من جهة اشتمالها على أحمد بن محمد، وهو مشترك بين جماعة، وسعيد بن جناح فإنه وإن كان مورداً لتوثيق النجاشي ووجوداً في أسناد كامل الزيارات إلّا أنه لم يعلم الراوى عنه، ومعه لا يصح الاستناد إلى الرواية المذكورة.

١- وسائل الشيعة، الباب ١١، باب وجوب بناء الكعبة إن انهدمت، ح ٧، ١٣: ٢١٣، وأيضاً ح ٨.

ص: ٧

جريان البحث في الطواف الواجب والمندوب

الثالث: الظاهر عدم اختصاص النزاع بالطواف الواجب، بل يجرى في الطواف المندوب أيضاً، كما أنه على القول بوجود حدّ للمطاف، وهو ما بين البيت والمقام، لاشكّ في لزوم مراعاته في الطواف المندوب. ويدلّ عليه إطلاق ما دلّ على الحدّ وأنّ الطائف خارج هذا الحدّ ليس بطائف، والانصراف إلى الواجب لا وجه له أصلاً، كما أنه لا دليل على تقييد الإطلاق في المقام. إنّ البيت كسائر الأمكنة والأبنية، فكما تجوز الإضافة مثلاً إلى نفس المسجد كذلك تجوز إلى نفس البيت، ولا ينبغي توهم أنه من الأمور التوقيفية نعم، دلّ الدليل على عدم اعتبار الطهارة في الطواف المندوب، ويدلّ عليه الروايات المعتبرة (١)، خلافاً لأبي الصلاح فإنه ذهب إلى وجوبها فيه أيضاً لإطلاق بعض النصوص، وأيضاً دلّ الدليل على جواز قطع الطواف المندوب عمداً على قول جمع، كما دلّ على كراهة الزيادة على السبع في الطواف المندوب.

لزوم دخول جميع أجزاء البدن في الطواف وعدمه

الرابع: هل يجب دخول جميع أجزاء بدن الطائف في المطاف، وهل يكفي دخول معظم أجزائه بحيث يصدق عرفاً أنه يطوف أم لا؟ الظاهر كفاية الصديق العرفي في ذلك، والعرف يحكم بأنّه إذا كان معظم أجزائه داخلًا في المطاف، يصحّ طوافه وإن كان رأسه مثلاً أعلى من البيت، ولا دليل على لزوم كون جميع الأجزاء داخله فيه، وقد صرح صاحب الجواهر في مسأله

١- صحيح ابن مسلم: «سألت أحدهما عليهما السلام عن رجل طاف طواف الفريضة وهو على غير طهر؟ قال: يتوضّأ ويعيد طوافه، وإن كان تطوّعاً توضّأ وصلى ركعتين»، الوسائل، كتاب الحج، الباب ٣٨ من أبواب الطواف، ٢ ح ٣.

ص: ٨

الاستقبال بأنه يكفي صدق الاستقبال وإن خرج بعض أجزاء البدن عن جهة الكعبة، ولا يلزم في صدقه كون جميع أجزاء البدن داخلًا في جهة القبلة، وهذا معناه أن المولى إذا أمر بالاستقبال كفى في الامتثال تحقق هذا العنوان عرفاً وصدقاً في الخارج كذلك. قال صاحب الجواهر: «وكيفية استقبال القبلة أمر عرفي لا مدخليه للشرع فيه، والظاهر تحقق الصدق وإن خرج بعض أجزاء البدن التي لا مدخليه لها في صدق كون الشخص مستقبلاً وحالته استقبلاً من غير فرق في ذلك بين القريب والبعيد، لكن في القواعد: أنه لو خرج بعض بدنه عن جهة الكعبة بطلت صلاته، بل قيل: إنه كذلك، في نهاية الأحكام والتحريم والتذكرة والذكرى والبيان والموجز وكشف الالتباس وجامع المقاصد وفوائد القواعد، والتحقيق عدم اشتراط ما يزيد على صدق الاستقبال، ودعوى توقف الصدق المزبور على الاستقبال بجميع أجزاء البدن يكذبها الوجدان فيما لم يذكر فيه متعلق الأمر بالاستقبال جميع البدن بل اقتصر على قوله استقبال» (١).

والظاهر أن الطواف كالاستقبال، فإن امتثال قوله تعالى:

«وَلْيَطُوفُوا»

يكفي فيه صدق الطواف العرفي، ولا يعتبر فيه أن يكون جميع أجزاء الطائف داخلًا في المطاف بحيث لو كان رأسه أو يده مثلاً خارجاً عن حد المطاف لكان محلاً بطوافه، ومن الواضح عدم ثبوت حقيقة شرعية لهذا المفهوم، كما أنه ليس من الموضوعات التي تصرف فيها الشارع المقدس، كما أن الشارع ليس عنده كيفية خاصة من جهة أصل العمل فيه وإن أضاف إليه بعض الشرائط كالطهارة والبدو من الحجر الأسود والختم به.

نعم، لا ثمره لهذا البحث بعد الذهاب إلى التوسعة والقول بأن ما علا الكعبة محكوم بحكم البيت يجوز الطواف حوله، إذ عليه تكون أجزاء الطائف داخله على الدوام، لا معنى لخروج بعضها.

حكم البناء في مكة مرتفعاً عن البيت

الخامس: ورد النهي في الروايات عن البناء في مكة مرتفعاً عن الكعبة.

منها: ما ذكره محمّد بن يعقوب عن محمّد بن يحيى العطار عن محمّد بن الحسين عن علي بن الحكم عن صفوان، عن العلاء عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: «نهى عليه السلام أن يرفع الإنسان بمكة بناءً فوق الكعبة» (١).
والرواية معتبرة من جهة السند، فإنّ المراد من محمّد بن الحسين هو محمّد بن الحسين بن أبي الخطاب على ما استظهره السيّد الخوئي (٢)، وهو ثقة جليل،

وعلى بن حكم أيضاً ثقة، وصفوان وإن كان مشتركاً بين صفوان بن مهران وصفوان بن يحيى إلّا أنّ كليهما ثقتان، والمراد من العلاء هو علاء بن رزين وهو ثقة جليل القدر.

والظاهر أنّ الطواف كالاستقبال، فإنّ امتثال قوله تعالى: «وَلْيَطُوفُوا» يكفي فيه صدق الطواف العرفي، ولا- يعتبر فيه أن يكون جميع أجزاء الطائف داخلاً في المطاف بحيث لو كان رأسه أو يده مثلاً خارجاً عن حدّ المطاف لكان مخللاً بطوافه ومنها: ما ذكره المفيد في المقنعة قال: «نهى عليه السلام أن يرفع الإنسان بمكة بناءً فوق الكعبة».

وبعد الاختلاف في أنّه هل هو محمول على الحرمة أو دالّ على الكراهة كما يستفاد من عنوان الباب الموجود في الوسائل، يوجد سؤال آخر وهو: هل النهي في هذا النصّ شامل لجميع الأبنية الواقعة في مكة حتّى المسجد الحرام بمعنى أنّ الشارع نهى أن يرفع بناء فوق الكعبة لشرافتها، فلا يجوز البناء حتّى داخل المسجد

١- وسائل الشيعة، باب كراهة رفع البناء بمكة فوق الكعبة، باب ١٧.

٢- معجم رجال الحديث ١٥: ٢٩٠.

ص: ١٠

بحيث يصير مرتفعاً عنها، أو أنّ النهي مختصّ بالأبنية التي يصطنعها الناس لأنفسهم، ومن ثمّ تكون الروايات منصرفة عن نفس المسجد؟

الظاهر عدم الانصراف؛ لعدم وجه له، والإنصاف ظهور الكلام في الإطلاق سيما بالنسبة إلى كون لفظ البناء نكرة في سياق النفي أو النهي، ويؤيده قرينه مناسبة الحكم والموضوع، فإنّ شرافة الكعبة وعظمتها يجب أن تحفظ بالنسبة إلى كلّ شيء حتّى بلحاظ البناء الموجود داخل المسجد.

فبناءً على الإطلاق يمكن أن يقال بعدم صحّة الطواف من الطابق الأول الموجود فعلاً، فإنّه - بعد التحقيق والسؤال - ظهر في زماننا هذا كونه مرتفعاً عن البيت بمقدار سبعة وعشرين سانتيماً.

والدليل على ذلك أنّ الشارع إذا نهى عن البناء نفهم بالملازمة العرفية عدم صحّة الطواف منه أو نفهم عدم جواز كون الإنسان أيضاً مرتفعاً عن الكعبة.

هذا، والإنصاف أنّ هذه الروايات لا تشمل صورة ما إذا كان نفس الإنسان مرتفعاً عن البيت حال الطواف، فإنّ موردها الأبنية الثابتة لا المتحركة، فلا تشمل الإنسان نفسه في دورانه حوله مرتفعاً عنه.

كما أنّ شرافة البيت - والتي هي الحكمة الأصلية لهذا الحكم - لا تشمل ما يتعلّق بهذا البيت من الأبنية الموجودة في المسجد ممّا هو من شؤونه.

الطواف من الطابق الأعلى

السادس- وهو المهم في المقام وحاصله: أنه قد اشتهر في السنة الفقهاء، بل صار أمراً مجمعاً عليه بينهم، بل بين المسلمين كما صرح به كاشف اللثام؛ أن القبلة تمتد محاذية للكعبة علواً وسفلاً من عنان السماء إلى تخوم الأرض، وأنه لا عبرة بالبناء الموجود المحسوس، والظاهر أن أول من صرح به هو الشهيد الثاني في المسالك ثم تبعه صاحب المدارك، وتبعهما جميع من تأخر عنهما إلى زماننا هذا، إلى أن صار أمراً مسلماً عند الجميع (١).

لكن السؤال يكمن في أن الطواف هل هو ملحق بالاستقبال، بحيث يكون الفضاء الموجود فوق البيت أو تحت الأرض ملحقاً به، فيجوز الطواف حوله أم لا؟

وبعبارة أخرى هل أن الطواف حول الفضاء طواف حول البيت أم لا؟ ومن ثم لا يكون ملحقاً، بل ذاك الحكم مختص بالاستقبال؟ والإنصاف أن هذه الروايات لا تشمل صورة ما إذا كان نفس الإنسان مرتفعاً عن البيت حال الطواف الظاهر أن الاستفادة من الروايات عدم اختصاصه بالاستقبال، فإن بعضها يدل بالإطلاق على جواز الطواف حول الفضاء أيضاً، فقد روى الصدوق- إرسالاً- قال الصادق عليه السلام: «أساس البيت من الأرض السابعة السفلى إلى الأرض السابعة العليا». وهذه الرواية وإن كانت مرسله إلّا أن هذا النوع من الإرسال غير مضر كما حقق في محله. كما أن الدلالة واضحة، فإن قوله: «أساس البيت» لا يختص بالاستقبال، بل يشمل الطواف أيضاً، ولا قرينة في الرواية على اختصاصه بالاستقبال. نعم،

١- المسالك ١: ١٥٢؛ المدارك ٣: ١٢١؛ الحبل المتين ص ١٩٠؛ ذخيرة المعاد ٢: ٢١٥؛ الحقائق الناضرة ٤: ٣٧٧؛ كشف الغطاء ١: ٢١٧؛ غنائم الأيام ٢: ٣٦٧؛ جواهر الكلام ٧: ٣٢٠؛ مصباح الفقيه ٢: ٩٠؛ المستمسك ٥: ١٧٤.

ص: ١٢

لا يدلّ على كون الفوق ملحقاً بالبيت، وإنّما يدلّ على أنّ ما تحت البيت من الأرض السفلى إلى الأرض العليا من البيت، إلّا أن يقال: إنّ كلمة الأرض لا يراد بها الأرض في قبال السماء، بل يراد من الأرض السفلى والعليا الامتداد من جهة الفوق والتحت، ومعه فيكون التعبير كناية عن هذا الأمر.

وقد جاء في بعض الروايات الواردة في ذيل الآية الشريفة:

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»

، أن المراد من الأرض العليا هي الأرض السابعة فوق السماء السادسة، فقد روى العياشي بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن عليه السلام قال: «بسط كفه ثم وضع اليمين عليها فقال: هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية، والسماء الثالثة فوقها قبة، حتّى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة، فقال: والأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبة، وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله:

«سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»

. فهذه الرواية صريحة في الامتداد والتوسعة من جهة الفوق والتحت معاً.

وكيف كان، فلا شك في أنّ هذا التعبير إنّما هو كناية عن الامتداد.

وفي بعض الروايات الواردة في القبلة إشارة إلى الفوق أيضاً كما في خبر عبدالله ابن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

«سأله رجل قال: صليت فوق جبل أبي قبيس العصر فهل يجزى ذلك والقبلة تحتى؟ قال: نعم، إنّها قبله من موضعها إلى السماء» (١).

وبعد انضمام هذه الرواية إلى المرسلة - مع قطع النظر عن الرواية المذكورة عن العياشي - نفهم أنّ البيت ممتدّ من الجانبين ولا يختصّ بالبناء الموجود هذا.

بل يمكن أن نضيف بأنّ التوسعة من جانب التحت فقط دون الفوق، ووجود

ص: ١٣

الفرق بينهما من هذه الجهة بعيد جداً وغريب حقاً، ولا يكون الخبر قرينه على كون المراد من المرسلة القبلة والاستقبال فقط؛ لعدم جريان التقييد في المثبتين.

مناقشات وإجابات

إن قلت: إن أدلة الطواف ظاهرة في وجوب كون الطواف محاذياً لنفس البيت، فإن قوله تعالى:

«وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (١)

ظاهر في لزوم كون الطواف بنفس

البيت لا بفضائه، والعودة إلى اللغة سيما بالنسبة إلى التعبير بكلمة الحول في بعض الروايات تؤيد ذلك، فقوله «طاف بالمكان» يعني أنه جعل المكان في وسطه لا فوقه ولا تحته.

قلت: نعم، وإن كان الظاهر كذلك، إلا أن الرواية حاكمه ومفسره الأمر الذي يوجب التوسعة، كما أن الأدلة الواردة في الاستقبال ظاهرة في لزوم كون الصلاة محاذية لنفس البيت، ولا أقل لمن كان في المسجد، والرواية توجب التوسعة في ذلك، ومن البعيد جداً وجود الفرق بين الاستقبال والطواف مع كون التكليف فيهما إلى البيت.

إن قلت: يستفاد من بعض الآيات الشريفة أن الواجب على المصلّي أن يجعل وجهه شطر المسجد الحرام، كقوله تعالى:

«قُلْ وَجْهَكُمُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» (٢)

، ومعنى ذلك أنه لا مدخلية لنفس

البيت، مع أن التكليف في الطواف لا يكون إلى المسجد بل بالبيت، لقوله تعالى:

«وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٣)

، وقوله تعالى:

«وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ» (٤)

، ومن الواضح أن المراد من البيت في الآية الكعبة لا

المسجد.

١- الحج: ٢٩.

٢- البقرة: ١٤٤.

٣- الحج: ٢٩.

٤- البقرة: ١٢٥.

ص: ١٤

قلت: مضافاً إلى أن هذا التعبير إنما جاء في قبال بيت المقدس ولزوم الانصراف عنه والتوجه إلى المسجد الحرام، لاشك في أنه من كان داخلًا في المسجد يجب عليه أن يتوجه إلى البيت، ولا يجوز أن يصلي إلى المسجد، وعنوان المسجد الحرام في الآيات الشريفة إشارة إلى البيت، ولا مدخلية لنفس المسجد.

نعم، ذهب الكثير أو الأكثر بل حكى عن مجمع البيان نسبه إلى أصحابنا وادعى الشيخ في الخلاف الإجماع عليه، وهو أن الكعبة قبله لمن كان في المسجد، والمسجد قبله لمن كان في الحرم، والحرم قبله لمن خرج عنه، ولكن لا ترديد في أن البيت قبله لمن كان في المسجد.

وكيف كان، فالظاهر عدم الفرق بين الاستقبال والطواف من هذه الجهة، والشاهد على ذلك أنه لو أزيل البناء تصح الصلاة إلى الفضاء، ولا تصح إلى البناء الزايل، وأيضاً يجوز الطواف حول الفضاء الموجود ولا يسقط وجوبه في هذا الفرض.

نعم، هذه التوسعة إنما هي في الطواف، ولا تجرى في السعي، فلا يتوهم أنه كما يجوز الطواف فوق الكعبة يجوز السعي أيضاً من فوق، فإن السعي لابد وأن يكون بين الجبلين لا فوقهما، ولا دليل على أن فوق فيه ملحق بالبين، إلا أن يقال:

إن البين ليس مقابلًا للفوق، بل المراد كون السعي في هذا الحدّ بدوًا وختمًا، وهو كما ترى.

إن قلت: ورد في بعض الروايات أن الملائكة ينزلون إلى الأرض يطوفون حول البيت، أليس هذا شاهداً على أن الملائكة في الطواف نفس البيت وإلا لما احتاجوا إلى النزول؟

قلت: كلا، لا يثبت بهذا ذاك، بل يمكن أن يكون نزولهم لاشتراكهم مع المؤمنين وجعل أنفسهم في صفهم هذا أولاً، وثانياً لا ينكر رجحان الطواف بنفس البيت من باب أن الأقرب إليه يكون أكثر ثواباً، وأيضاً من جهة أن الموجود والمحسوس هو الطواف حول هذا البيت، وربما يكون هذا موجباً لكون القرب إليه

ص: ١٥

أكثر ثواباً.

إن قلت: إذا كان البيت ممتدّاً حتّى من جهة الطواف، فما معنى استلام الحجر أو الركن اليماني؟! قلت: يمكن استلام الحجر بالإشارة من محاذيه، وكذا الحال في الركن اليماني، وكيف كان، فنحن نلتزم بصحّة الطواف من فوق، وهذه الأمور لا توجب رفع اليد عنه.

إن قلت: إنّ العرف يساعدنا في ذلك بالنسبة إلى الاستقبال، لكنّه لا يوافقنا في الطواف، بمعنى أنّ الاستقبال إلى الفضاء لا نقص فيه عند العرف بل هو مقبول عندهم، بخلاف الطواف فيه، إذ لا يعدّ عنده طوافاً.

قلت أوّلًا: نحن لا نوافق في ذلك، بل ندعى أنّ العرف لا يفرق بينهما من هذه الجهة فيصدق الطواف على الطائف من فوق عرفاً، والظاهر عدم وجود مسامحة عرفية في هذا الصدق، وإن كان الصدق - ولو بالمسامحة العرفية - كافياً في حكم العقل بامتنال الأمر، ألا ترى أنّه إذا أمر المولى بإتيان الماء فأتاه العبد بالمائع المسمّى عند العرف ماءً مسامحةً وإن لم يكن بالدقّة العقلية ماءً؛ تحقّق الامتنال وكفى؟! وكفى؟!

ثانيًا: بعد التسليم نقول: إنّ الشارع قد خالف العرف في هذه الجهة فجعل البيت فوقاً وتحتاً بيتاً يجوز الصلاة والطواف نحوه مطلقاً دون أن يكون للبناء مدخلية فيه عند الشارع.

نعم، الظاهر انعقاد الإجماع بين الفريقين على عدم جواز الطواف خارج المسجد بخلاف الاستقبال، فالفرق بينهما من هذه الجهة ممّا لا ينكر، بمعنى أنّه يجب أن يكون الطواف داخلًا في المسجد، إمّا في ما بين البيت والمقام كما ذهب إليه المشهور، أو في المسجد مطلقاً، وقد صرح العامّة بأنّه كلّما اتّسع المسجد اتّسع المطاف، ولكن رعاية الحدّ وعدمها أمر آخر غير ما نحن فيه.

والنتيجة التي يمكن الخروج بها أنّه مع قطع النظر عن الراوية المرسلة الدالّة بالإطلاق على صحّة الطواف والصلاة حول الفضاء وتحت الأرض، يمكن أن يقال:

ص: ١٦

إنَّ المستفاد من أدلَّة القبلة والطواف ووحدة التعبير في كليهما- حيث جعل الملاك في كل واحد منهما البيت- أنَّه كما يكون الفوق صالحاً للاستقبال يكون صالحاً للطواف أيضاً، ولولا هذه الرواية لأمكن أن يقال بأنَّ هذا أمر عرفي لا ريب فيه، ومراجعة الأسئلة الواردة في الروايات تشعر بذلك، فإنَّ الناس كانوا يصلُّون- ارتكازاً- فوق جبل أبي قبيس، فهم وإن سألوا بعد العمل إلّا أنَّ عملهم هذا كان مطابقاً لارتكازهم.

هذا كله، مضافاً إلى عموم التنزيل المستفاد من قول النبي صلى الله عليه وآله: «الطواف بالبيت صلاة»، فإنَّه دالٌّ على أنَّه كما يمتد البيت في الصلاة علوّاً وسفلاً فكذلك في الطواف.

والدليل على عموم التنزيل أنَّه قد استثنى في الرواية مورداً واحداً قال:

«الطواف بالبيت صلاة إلّا أنَّ الله تعالى أحلَّ فيه النطق»، وهذه الرواية وإن كانت غير مسندة من طرفنا سوى ما عن عوالي اللثالي (١)، إلّا أنَّ جمعاً من كبار الفقهاء قد

استند إليها واستدلَّ بها:

فقد استدلَّ الشيخ (٢) بها، كما استدلَّ العلامة على وجوب القيام في الطواف

وقال: «قد ثبت وجوب القيام في الصلاة فكذا فيه» (٣)، وكذا على شرطية الستر

فقال: «ستر العورة شرط في الطواف» (٤).

واستدلَّ بها الشهيد الثاني، مصرّحاً بالإطلاق حيث قال: «مستند ذلك إطلاق قوله صلى الله عليه وآله الطواف بالبيت صلاة خرج منه ما أجمع على عدم مشاركته لها فيه فيبقى الباقي» (٥).

١- عوالي اللثالي ٢: ١٦٧.

٢- الخلاف ٢: ٣٢٣.

٣- مختلف الشيعة ٤: ١٨٥.

٤- تذكرة الفقهاء ٨: ٨٥.

٥- مسالك الأفهام ٢: ٣٢٨ و ٣٣٩.

ص: ١٧

وقال المحقق الأردبيلي: «الطواف بالبيت صلاة فيشترط فيه ما يشترط فيها إلّا ما أخرجه الدليل» (١).
 وذهب السيّد الطباطبائي إلى أنّ التشبيه يقتضى الشركة فى جميع الأحكام، ومنها الطهارة عن النجاسة (٢).
 نعم، خالفهم سيّد المدارك، حيث ذهب إلى أنّ سند الرواية قاصر ومتنها مجمل (٣).
 وكيف كان، لا ريب فى استناد المشهور إلى الرواية، وعليه ينجر ضعفها، فما ورد من السيّد الخوئي من أنّه لم يعلم استناد المشهور إليه (٤) غير تامّ، وقد صرح السيّد الحكيم بالانجبار (٥).
 هذا، وقد ورد من طرق الإمامية عن معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام:
 «ولا بأس أن تقضى المناسك كلّها على غير وضوء إلّا الطواف بالبيت فإنّ فيه

١- مجمع الفائدة والبرهان ١: ٦٥.

٢- رياض المسائل ٦: ٥٢٣.

٣- مدارك الأحكام ١: ١٢.

٤- كتاب الحج ج ٤.

٥- دليل الناسك: ٢٤٥.

ص: ١٨

صلاة» (١).

وقد استشعر صاحب الجواهر من هذا الخبر أنّ أصل المرسل المشهور عن النبي هكذا: في الطواف بالبيت صلاة، وقد أسقط من أوله لفظ (في) فظنّ أنّه من التشبيه.

وفي الاستشعار إشكال بل منع، لأنّه في بعض الروايات قد استثنى منه النطق، وقال: «إلا أنّه أحلّ فيه النطق»، ولعلّه من هذه الجهة استدلّ هو نفسه بهذه الرواية في مواضع عديدة من كتابه (٢) من دون كلمة «في» فتدبر.

والظاهر ذهاب صاحب الجواهر أيضاً إلى صحّة الطواف من السطح وإن كان أعلى من البيت هذا كلّ، مضافاً إلى أنّه لو كان الطواف مرتفعاً عن الكعبة غير جائز لصار هذا أيضاً حدّاً من جهة الارتفاع، ولكان اللّازم على الشارع ذكره كما ذكر الحدّ في جهة المساحة ومحيط الدائرة الأرضية، فمن عدم البيان بالنسبة إلى هذه الجهة نستكشف صحّة العمل. اللهمّ إلّا أن يقال: إنّ عدم البيان إنّما كان من جهة عدم الموضوع الخارجي في ذلك الزمان، وهو كما ترى. وممّا ذكرنا يظهر ضعف ما حكى عن الشافعي فإنّه قال: «فإن جعل سقف المسجد أعلى لم يجز الطواف على سطحه»، ويستفاد من صاحب الجواهر مخالفته له

١- وسائل الشيعة، أبواب الوضوء، باب ٥، ح ١.

٢- جواهر الكلام ٢: ١٨، ٥٨، ١٩: ٢٧٠، ٣٥: ٣٦٠.

ص: ١٩

فى ذلك، وقال: «مقتضاه كما عن التذكرة أنه لو انهدمت الكعبة - والعياذ بالله - لم يصح الطواف حول عرصتها، وهو بعيد بل باطل» (١).

والظاهر ذهاب صاحب الجواهر أيضاً إلى صحة الطواف من السطح وإن كان أعلى من البيت. والذى يبدو أن أكثر العامة قائلون بصحة الطواف فيما إذا كان مرتفعاً عن البيت، فقد قال النووي: «قالوا: ويجوز (أى الطواف) على سطوح المسجد إذا كان البيت أرفع بناءً من المسجد كما هو اليوم، قال الرافعى: فإن جعل سقف المسجد أعلى من سطح الكعبة فقد ذكر صاحب العدة: أنه لا يجوز الطواف على سطح المسجد، وأنكره عليه الرافعى وقال: لو صحّ قوله لزم منه أن يقال: لو انهدمت الكعبة - والعياذ بالله - لم يصح الطواف حول عرصتها وهو بعيد، وهذا الذى قاله الرافعى هو الصواب، وقد جزم القاضى حسين فى تعليقه: بأنه لو طاف على سطح المسجد صحّ وإن ارتفع عن محاذ الكعبة، ثم أضاف قاعدةً كئيّةً وهى: أنه لو وسع المسجد اتسع المطاف، وقال: اتفق أصحابنا على ذلك» (٢).

وقال الزحيلي: «ويصحّ على سطح المسجد وإن كان سقف المسجد أعلى من البيت» (٣).

فروع ملحقه:

الفرع الأول: حكم الارتفاع القليل

ثم إنه مع قطع النظر عن التوسعة وبنائنا على عدمها ولزوم الاقتصار على البيت يمكن أن يقال: الظاهر عند العرف أن الارتفاع القليل بمقدار متر أو مترين لا يخرج عن الطواف حول البيت، فيصحّ الطواف انطلاقاً من الصدق العرفى.

الفرع الثانى: شمول الحكم لحال الاضطرار وعدمه

ثم إنه يظهر أيضاً أن صحة الطواف فيما إذا كان أعلى من الكعبة ليست مختصة بحال الاضطرار، بل من يقول بعدم وجود حدّ للطائف يصحّ له القول بذلك مطلقاً والله العالم.

١- جواهر الكلام ١٩: ٢٩٨.

٢- المجموع فى شرح المذهب ٨: ٤٣.

٣- الفقه الإسلامى وأدلته ٣: ١٥٩.

الفرع الثالث: الاستنابة ومشروعيتها

الظاهر أنه لا تصل النوبة إلى الاستنابة إلا على قول من يذهب إلى وجود حدّ للمطاف، إذ يلزمه طبعاً الافتاء بلزوم الاستنابة وعدم صحّة الطواف من الطابق الأول، لا من جهة كونه أعلى من البيت بل من جهة كونه خارجاً عن حدّ المطاف.

ويأتى هنا بحث وهو أنه على القول بوجود الحدّ إذا أمكنت الاستنابة وجبت عليه، وأمّا إذا لم تمكن وعلم الحاج - ابتداءً قبل الشروع في الإحرام - أنه غير قادر على الطواف لا بنفسه ولا بالاستنابة، فهل يكون إحرامه صحيحاً أم لا؟

يمكن أن يقال بعدم وجوب الحجّ في هذا الفرض؛ إمّا من جهة أنّ عدم القدرة على الجزء أو الشرط موجب لعدم القدرة على المركب والمشروط، فيسقط وجوب الحجّ لأجل عدم توجّه التكليف والخطاب نحو المخاطب، بناءً على ما أسّسه المحقّق النائيني من أنّ شرطية القدرة تستفاد من اقتضاء الخطاب لا من حكم العقل، أو أنّ عدم القدرة موجب لكون توجّه التكليف إليه قبيحاً على مبنى المشهور القاضى بحكم العقل بقبح تكليف العاجز، كلّ ذلك بناءً على شرطية القدرة في التكليف؛ إمّا من اقتضاء نفس الخطاب أو من حكم العقل.

وأمّا بناءً على عدم شرطية القدرة فيه والقول بأنّ الخطاب يشمل العاجز كما أنّه يشمل القادر، غايته أنّ العاجز معذور في ترك الامتثال، وهو ما ذهب إليه السيّد الإمام الخميني والسيّد الخوئي... فيكون العجز عن الجزء مساوياً للعجز عن المركب، فيكون معذوراً في ترك الامتثال.

وبعبارة أخرى، الوجوب الواحد في المركب يسقط بتعذّر جزء من الأجزاء، فإذا تعذّر أحد الأجزاء يسقط الوجوب عن الباقي بمقتضى القاعدة الأولى، نعم قد يدلّ الدليل الخاص على بقاء الوجوب في الباقي كما في باب الصلاة.

إن قلت: قد حقّق في محله أنّ الجامع بين المقدور وغير المقدور مقدور، فإذا كان بعض أفراد الطبيعة المأمور بها مقدوراً ولكن بعضها الآخر غير مقدور يصحّ التكليف بالطبيعة من هذه الجهة.

ص: ٢١

قلت: نعم، ولكن هذا الكلام إنما يجرى في الكلّي والفرد لا- في الكلّ والجزء، والكلام هنا إنما هو في الثاني، فإنّ العاجز عن الجزء يكون- قهراً- عاجزاً عن الكلّ، فتدبرّ.

إن قلت: لا ملازمة بين عدم وجوب الحجّ وعدم صحّة الإحرام، فيمكن أن يقال بصحّة إحرامه دون وجوب الحجّ عليه، والخروج من الإحرام له أسباب يمكن الإتيان بها، ولم يشترط أحد في صحّة الإحرام إمكان الإتيان بقيّة الأجزاء في الحجّ.

قلت: إنّ الإحرام أيضاً من أجزاء الحجّ، فبعد عدم القدرة على جزء من أجزائه تكون بقيّة الأجزاء في حكم غير المقدور، ولا أقلّ لا تكون مشموله للطلب المتوجّه إلى المركب، والمفروض عدم المطلوبية الاستقلالية لكلّ من الأجزاء فلا يصحّ الإحرام أيضاً.

وبهذا ظهر ممّا أسلفناه أنّ العاجز عن الطواف الصحيح المشروع مع عدم إمكان الاستنابة أيضاً يسقط عنه الوجوب، فلا يجب عليه الحجّ كما لا يصحّ منه الإحرام.

نستنتج صحّة الطواف من الطابق الأوّل وإن كان أعلى من البيت، وهو المستفاد أيضاً من كلمات صاحب الجواهر

نعم، لا- يخفى أنّ القدرة على العمل كافية ولو من طريق الاستنابة، فإنّ القادر على الاستنابة في العمل الذي يقبل النيابة قادر على

العمل أيضاً، وعلى هذا يتّضح أنّه لو لم يكن الحاج قادراً على الطواف والسعى مثلاً لكنّه كان قادراً على الاستنابة فيهما وعلى المباشرة في الصلاة والتقشير لكان إحرامه وعمرته صحيحين.

خلاصة البحث ونتيجة الدراسة

١- أنّه بناءً على جواز الإضافة في جهة الارتفاع إلى البيت.

٢- وبناءً على عدم شمول النهي الوارد في الروايات عن البناء فوق الكعبة

ص: ٢٢

للأبنية المتعلقة بالمسجد.

٣- وبناءً على عدم اختصاص التوسعة - علواً وسفلاً - بالاستقبال، بل تجرى في الطواف أيضاً بمقتضى إطلاق الرواية المرسله الواردة في المقام أولاً، وانضمام الروايات الدالّة على أنّ البيت قبله من جهة فوق ثانياً، فإنّ الانضمام يدلّ على التوسعة من جهة فوق أيضاً، ومن جهة الصدق العرفي كالاستقبال ثالثاً، ووحده السياق والتعبير في أدلّة الطواف وأدلّة القبلة من جهة أنّ الملاك فيهما هو البيت رابعاً.

٤- وبناءً على عدم وجود حدّ للمطاف.

نستنتج صحّة الطواف من الطابق الأوّل وإن كان أعلى من البيت، وهو المستفاد أيضاً من كلمات صاحب الجواهر. كما نستنتج - مع قطع النظر عن التوسعة - صحّة الطواف وإن كان أعلى من البيت بمقدار متر أو مترين، فإنّ هذا المقدار لا يضرّ في صدق الطواف عرفاً حول البيت، والله العالم.

وبما أنّ هذا البحث جديد، ولم أر من تعرّض له سابقاً حتّى بنحو الإشارة، احتاج - طبعاً - إلى دقّة كثيرة، وعلى المحقّقين والفقهاء أن يبحثوا حوله وينظروا إلى ما قلناه نظراً جامعاً وافياً.

ص: ٢٣

فقه التظليل في الحج (٢)

مدخل

حيدر حبّ الله

حاولنا في القسم الأول من هذه الدراسة، والذي نشر في العدد ٢٠ من مجلّة «مِقات الحج» الميمونة، أن نؤسّس المبادئ الفقهية الأولى في هذا الموضوع، لكي نتمكن - على ضوءها - من الولوج في تفاصيل التظليل، والفروع و الفرضيات و الصور المتعلقة به، حتّى تكون استنتاجاتنا في الفروع اللاحقة قائمة على أسس موضوعية و منطقية. وقد أشرنا إلى وجود نظريتين رئيسيتين في حكم التظليل من حيث المبدأ هما: النظرية الأولى:

وتذهب إلى القول بحرمة التظليل بعنوانه حرمة مطلقّة، ممتدّاً إطلاق هذا الحكم في الزمان و غيره، فالتظليل - بوصفه تظليلاً - يكون محرّماً على المحرم، بلا فرق بين أنواعه كالكون في القبّة أو غيرها. وقد رجّحنا في القسم الأول هذا الرأي، الذي حقّقنا أنّه المشهور بين فقهاء الشيعة، و هذا يعني أننا سنركّز دراستنا للفروع الفقهية المتصلة بالتظليل وفقاً لهذا الرأي. النظرية الثانية:

وهي النظرية التي لاحظنا أنّها لا تعتقد بالحرمة بشكلها المثار في النظرية الأولى، و إنّما تحاول تضيق دائرة التحريم وتحديدّها.

ص: ٢٤

والشيء الذي شاهدناه هو أن أنصار هذه النظرية لم نجد لهم على رأي واحد من حيث طبيعة التحديد والتضييق الذي افترضوه، فقد لاحظنا عبارة الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ. ق) تشرف على التدليل على حرمة الركوب في القبة، و كأن القبة أو ما قاربها كانت ذات موضوعية في مسألة التحريم هنا، والملاحظ - كما أشرنا سابقاً - أن بعض الروايات توحى بهذا التضييق من حيث ورودها ضمن عنوان القبة أو ما شابه، ولعل الشيخ الصدوق، قد لاحظ مثل هذا النوع من الروايات واعتمد عليه.

وهكذا وجدنا فريقاً من المعاصرين، يسعى لتضييق دائرة التحريم بلحاظ آخر، يحاول أن ينطلق فيه من خصوصية الزمان والمكان الحافين بالحكم الصادر عن المعصومين عليهم السلام، فيرى أن هذا الحكم كان يعنى فى ضمن ظرفه التاريخي تعبيراً عن رفض مظاهر الدعة والفخر والترف في سفر الحج، لا مجرد التظليل للحاج و لو لم تكن هناك ملابسات تتصل بهذا الأمر في تظليله.

وقد حاولنا في القسم السابق تحليل هذين القولين ضمن النظرية الثانية، ولاحظنا وجود نصوص صحيحة السند تعلق الحرمة على ما هو أوسع من مجرد القبة، ولم نخف إعجابنا بالقراءة التاريخية التي حاول أن يمارسها الفريق الثانى المعاصر، إلّا أننا مع ذلك لم نجد على وجهه نظره شواهد أو مؤيدات تدعم احتمالها بما يحصل حالة الوثوق المعتبر.

هنا، خرجنا بالقول بحرمة التظليل بعنوانه مطلقاً على المشهور المعروف بين الفقهاء.

وقد شرعنا بفرعين اثنين: كان الأول منهما حول اختصاص حكم التظليل بالرجال وعدم شموله للنساء، وأثبتنا ذلك على ما هو المعروف بين

ص: ٢٥

الفقهاء أيضاً، وكان الثاني منهما حول اختصاص هذا الحكم - أي حرمة التظليل للمحرم - بالقادر غير المضطر، وقلنا بالاختصاص على ما هو المعروف بينهم أيضاً.

وقد بقيت لدينا فروع أخرى، لا بد من بحثها، أحببنا تقديم هذه المقدمة لها، لكي ترتبط الأبحاث و يأنس الذهن بالتناسق و الانسجام.

المبحث الثالث: شرطية السير في حرمة التظليل

الظاهر أن المشهور بين الفقهاء اشتراط حال السير في حرمة التظليل على المحرم، بمعنى أن المحرم لو كان نازلاً - كما لو كان في عرفه أو مكّة أو غيرهما - ليس في حال سفر و انتقال من منطقة إلى أخرى، كما بين الميقات للبعيد و بين مكّة... لم يحرم عليه التظليل، بل جازله مطلقاً سواء التظليل بالليل أو النهار، و من الشمس أو المطر أو غيرهما، و بالثابت و المتحرّك و...

قال ابن إدريس الحلّي (٥٥٩٨ هـ) في السرائر: «لا يجوز التظليل سائراً إلّا إذا خاف الضرر العظيم» (١).

الظاهر أن المشهور بين الفقهاء اشتراط حال السير في حرمة التظليل على المحرم

وقال المحقّق نجم الدين الحلّي (٥٦٧٦ هـ) في كتاب الشرائع: «التظليل محرّم سائراً، ولو اضطرّ لم يحرم» (٢).

وقد ذكر العلامة الحلّي (٥٧٢٦ هـ) في مختلف الشيعة أن: «المشهور تحريم الظلال حال السير» (٣).

١- السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى ١: ٥٤٧.

٢- شرائع الإسلام ١: ١٨٦.

٣- مختلف الشيعة ٤: ١٠٨، م ٧١.

ص: ٢٦

وقد كان الشيخ الطوسي (٤٦٠ هـ) صرح من قبل في الخلاف بأنه: «لا يجوز فوقه سائراً لا نازلاً، وبه قال مالك وأحمد» (١). بل في التذكرة أن حرمة الاستغلال حال السير ثابتة عند علمائنا أجمع، بل قال بذلك ابن عمر، ومالك وسفيان بن عيينة وأهل المدينة وأبو حنيفة، وأحمد، ونص العلامة على جواز التظليل مطلقاً حال النزول عند العلماء كافة (٢). وقد ذكر قيد السير العديد من الفقهاء منهم الشهيد الأول في الدروس، (٣) و اللعة، (٤) و الشهيد الثاني في الروضة مدعياً الإجماع على جوازه حال النزول، (٥) و في المسالك أيضاً، (٦) و العلامة المجلسي في ملاذ الأخيار مدعياً عليه الإجماع أيضاً عند العلماء كافة، (٧) و هو صريح ابن زهرة الحلبي في كتابه غنية النزوع إلى علمي الأصول و الفروع، (٨) و ذهب إليه أيضاً العلامة الحلبي في قواعد الأحكام، (٩) و التذكرة، (١٠) و المختلف، (١١) و تحرير الأحكام الشرعية، (١٢) و إرشاد الأذهان، (١٣) كما

١- الخلاف: ٢: ٣١٨.

٢- التذكرة ٧: ٣٤٠ - ٣٤٢.

٣- الدروس ١: ٣٧٧.

٤- اللعة الدمشقية: ٦٩.

٥- الروضة البهية ٢٤٤.

٦- مسالك الأفهام ٢: ٢٦٥.

٧- ملاذ الأخيار ٨: ٢٠٩.

٨- غنية النزوع، إلى علمي الأصول والفروع، قسم الفروع، ص ١٥٩.

٩- قواعد الأحكام ١: ٤٢٥ - ٤٢٤.

١٠- التذكرة ٧: ٣٤٠ و ٣٤٢.

١١- مختلف الشيعة ٤: ١٠٨.

١٢- تحرير الأحكام ٢: ٣٢.

١٣- إرشاد الأذهان ١: ٣١٧.

ص: ٢٧

ذهب إليه الكيدري في إصباح الشيعة، (١) و الشيخ البهائي في الإثنا عشريات، (٢) والإمام الخميني في تحرير الوسيلة، (٣) والحرّ العاملي في بداية الهداية، (٤) و السيد الطباطبائي في رياض المسائل مدّعيًا عليه الإجماع، (٥) ويحيى بن سعيد الحلّي في الجامع للشرائع، (٦) وابن فهد الحلّي في المذهب البارع، (٧) و المحقق السبزواري في كفايته وذخيرته، (٨) والسيد العاملي في مدارك الأحكام، (٩) والمحقق النجفي في جواهره مدّعيًا عليه الإجماع بقسميه (١٠). حرمة الاستغلال حال السير ثابتة عند علمائنا أجمع، بل قال بذلك ابن عمر، ومالك وسفيان بن عيينة وأهل المدينة وأبو حنيفة، وأحمد وقبل ذكر الأدلة المقامة أو التي يمكن إقامتها، لا بأس بالإشارة- توضيحاً-

- ١- إصباح الشيعة: ١٥٣.
- ٢- الإثنا عشريات: ٢٨٣.
- ٣- تحرير الوسيلة ١: ٣٩١.
- ٤- بداية الهداية ١: ٣٢٣.
- ٥- رياض المسائل ٦: ٣٠٥.
- ٦- الجامع للشرائع: ١٨٤.
- ٧- المذهب البارع ٢: ١٨٦.
- ٨- كفاية الفقه الأحكام ١: ٣٠٤، و ذخيرة المعاد: ٥٩٧.
- ٩- مدارك الأحكام ٧: ٣٦٣.
- ١٠- جواهر الكلام ١٨: ٤٠٥.

ص: ٢٨

إلى أنّ هنا فرعين داخل هذه المسألة، فتارةً نبحث عن التظليل للنازل بمعنى الدخول في البيوت والاستقرار فيها أو في الأخبية، وتارةً أخرى نبحث عن التظليل داخل الأماكن التي ينزلها الحاجّ مثل مكّة وعرفة ومنى، لكن لا في البيوت بل حال التنقل داخلها، فإذا تارةً البحث في التظليل داخل البيوت مقابل التظليل حال التنقل بينها، وأخرى أيضاً في اختصاص التظليل بحال الوصول لا النزول أثناء الطريق ممّا سنشير إليه في المبحث الرابع (أيضاً) فانتظر.

والذي يمكن الاستدلال له في المقام هنا هو:

الوجه الأول:

الإجماع المدعى في كلمات جماعة، منهم العلامة الحلي في التذكرة، والشهيد الثاني في الروضة، والمحقق النجفي في الجواهر، والعلامة المجلسي في ملاذ الأخيار، والسيد الطباطبائي في رياض المسائل مما أسلفنا ذكره، ولا يظهر في ذلك خلاف من أحد، إذ لم نجد من ذكر حرمة التظليل للنازل صريحاً أو ظهوراً واضحاً، من حيث المبدأ.

إلا أنّ الاستدلال بالإجماع مناقش فيه:

أولاً:

إن احتمال مدركيته واضح، سيما وأنّ بعض من نقل ادّعاء الإجماع - وهو السيد العامل صاحب المدارك - قد أقام الدليل - كما سيأتي - على الحكم هنا، فلاستناد إلى الإجماع في هذا الوضع في غير محله.

ثانياً:

إنّه من غير المعلوم ماذا يريد الفقهاء السابقون من عبارتي سائراً ونازلاً، على وجه الدقّة، فإنّه لا يحرز هل يكون التنقل داخل مكّة وعرفة والمزدلفة، مندرجاً في حال السير أو النزول؟ ومعه يؤخذ بالقدر المتيقّن من معقد الإجماع، وهو - كما سنرى في مطاوى البحث - الكون في الأبنية والأخبية عند النزول والاستقرار بعد السفر، فلا يكون الإجماع حجةً في غير ذلك ولا يصحّ تكميل الإجماع بعدم القول بالفصل، لأنّ الفصل قد تحقّق في كلمات بعضهم كما سيظهر لاحقاً، وإن كان هذا البعض من المتأخرين من أمثال صاحب الجواهر.

الوجه الثاني:

ما ذكره صاحب المدارك (١) من الاستناد إلى رواية جعفر بن

المثنّى في المقام، حيث ذكر دلالتها على اختصاص الحكم بحرمة التظليل بحال السير.

و الرواية هي: «... كان رسول الله صلى الله عليه وآله يركب راحلته فلا يستظل عليها، و تؤذيه الشمس فيستر بعض جسده ببعض، و ربما يستر وجهه بيده، و إذا نزل استظل بالخباء و في البيت و بالجدار» (٢).

١- مدارك الأحكام ٧: ٣٦٣.

٢- وسائل الشيعة، ج ١٢، أبواب تروك الإحرام، باب ٦٦، ح ١.

ص: ٢٩

والرواية من حيث الدلالة جيدة مع حمل الخباء و البيت و الجدار على التمثيل لمطلق ما يستظل به، لا لخصوص الثابت و ما في حكمه، إلّا أنّ المشكلة في الرواية ضعفها السندی، فهي - في التهذيب و الكافي - مروية عن محمد بن الفضيل و بشير بن إسماعيل لعدم توثيقهما، إلا على ما احتمله السيد الخوئي من كون البشير بن إسماعيل هو ابن عمار الذي وصفه النجاشي - كما تقدّم - بأنّه وجه من وجوه من روى الحديث.

الوجه الثالث:

ما ذكره السيد السبزواري رحمه الله في مهذبّه من أنّ هذا هو ما تقتضيه قاعدة العسر و الحرج في الجملة (١). و هذا الوجه غير ظاهر، فإن أريد به وجود حالة عسر و حرج في بعض الحالات لدى بعض الناس أمكن إجراء القاعدة عليهم لا الحكم بالجواز مطلقاً حتى في حقّ غيرهم، و إن أريد أن العسر و الحرج في الجملة كاشف عن عدم جعل هذا الحكم، فإنّه يقال: لا إشكال في أن تروك الإحرام بجملتها يلزم منها - في الجملة - عسر و حرج، فهل يقال بسقوطها أو يقال بسقوط موارد الحرج؟! نعم، يمكن أن يكون مراده السقوط في الجملة لا أنّ العسر في الجملة موجب للسقوط مطلقاً في موارد النزول، و معنى السقوط في الجملة هو تلك الأفراد الملازمة عادة للعسر و الحرج مثل الكون في البيت و مكان النوم فإنّه يقال: إنّ الإلزام بعدمه يلزم منه العسر نوعاً و هذا جيد.

الوجه الرابع:

ما ذكره صاحب المدارك قدس سره أيضاً، من التمسك بالأصل، (٢) والظاهر أنّ مراده أصالة الجواز، مما يعني أن الحرمة حال النزول ليست مدلولاً لأي من روايات الباب ولو بالإطلاق.

١- مهذب الأحكام ١٣: ٢٠١.

٢- مدارك الأحكام ٧: ٣٦٣.

ص: ٣٠

والذى لاحظناه من الروايات أنها على طوائف:

الطائفة الأولى:

ما هو صريح أو ظاهر في خصوص الركوب كصحيحة محمد ابن مسلم (رقم ١) التى نصّت على السؤال عمّن يركب القبة الظاهر في حال السير، ومثلها صحيحة هشام بن سالم (رقم ٣)، وصحيحة حريز (رقم ١٢)، وهذه الطائفة لما لم تكن تدلّ على الحرمة لغير الراكب في حال سفر، لأنّ القبة لا تستعمل إلّا في الأسفار لا داخل المدن عادةً، كان يمكن الرجوع حينئذ إلى أصالة البراءة، كما فعل صاحب المدارك، ومعه فيكون التمسك بالأصل صحيحاً.

الطائفة الثانية:

ما كان عامّاً يشمل بإطلاقه السائر والنازل، مثل صحيحة عبدالله بن المغيرة (رقم ٢)، وصحيحة عبدالرحمن بن الحجاج (رقم ٤)، وصحيحة إسحاق بن عمار (رقم ٥)، وخبر محمد بن منصور (رقم ٦)، وصحيحة إسماعيل بن عبد الخالق (رقم ٧)، وصحيحة عبدالله بن المغيرة الثانية (رقم ٨)، وصحيحة عثمان بن عيسى الكلابي (رقم ١٠)، وخبر المعلّى بن خنيس (رقم ١٥)، وصحيحة سعيد الأعرج (رقم ١٦)، وخبر بكر بن صالح (رقم ١٧).

وهذه الطائفة لا يمكن الاستناد في قبال إطلاقها إلى الأصل، كما فعل صاحب المدارك، بل تكون حاكمة عليه ومقدّمة، ومن ثم تقتضى حرمة الاستظلال مطلقاً، سائراً أو نازلاً.

الطائفة الثالثة:

ما دلّ على التفصيل بين السائر والنازل وهى:

١- خبر البزنطى: «أيش الفرق ما بين ظلال المحرم والخباء؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ السنّة لا تقاس» (١).
والرواية من حيث السند بهذا المقدار من الدلالة تامة، كما جاءت في قرب الاسناد للحميرى، بتقريب أنّ التظلل للمحرم حرام، لكن ضرب الخباء، وهو البناء كما نصّ اللغويون (٢) ليس بمحرّم كما تساعد عليه بقية روايات هذا النص. فمن

١- وردت الرواية بعدة أسانيد، فراجع الوسائل ١٢، كتاب الحج، أبواب تروك الإحرام، باب ٦٦، ح ١ و ٢ و ٤ و ٥ و ٦، والنص الذى نقلناه هو الثابت بسند صحيح.

٢- ابن منظور، لسان العرب ٤: ٦، والفيروز آبادى، القاموس المحيط، دارالمعرفة ١: ١٣، والفتوى فى المصباح المنير: ١٦٣، والزبيدى فى تاج العروس، ١: ٢٠٦.

ص: ٣١

حيث الدلالة تدلّ على التفريق سائراً و نازلاً، نعم، مقدار دلالتها الكون داخل الخباء و أمثاله، فقد يقال: لا تدلّ على جواز التظليل عند التنقل داخل المكان الذي نزل المحرم فيه كالقرية أو المحلة أو ما شابه.

٢- خبر الحسين بن مسلم عن أبي جعفر الثاني عليه السلام: «أنه سئل: ما الفرق بين الفسطاط و بين ظلّ المحمل؟ فقال: لا ينبغي أن يستظل في المحمل...» (١).

و تقريب الاستدلال بها أنها فصّلت بين المحمل و الفسطاط، فحتّى لو لم تكن فيها لوحدها دلالة على حرمة الاستظلال - كما قوّيناه سابقاً - لكنها على أيّ حال تقيم الفرق بين المحمل و الفسطاط.

والمراد بالفسطاط - كما تذكره مصادر اللغة - إمّا المدينة، حيث يطلق عليها الفسطاط، ومن هنا قيل: فسطاط مصر، أو ضرب من الأبنية في السفر دون السّرادق و... (٢).

فإذا أريد من الفسطاط فيها المدينة، كانت دالّة على أن النزول في المدن و أمثالها موجب لسقوط الحرمة مطلقاً تنقّل في داخلها أو لم يتنقّل، نعم تكون فيها مشكله من ناحية النزول و الاستقرار لا في مدينة، بل وسط الطريق، فإن الرواية على هذا لا تكون شاملة لهذه الصورة، فيرجع فيها إلى إطلاقات الحرمة.

وأما إذا أريد من الفسطاط مطلق البناء، فتكون دالّة

١- وسائل الشيعة، مصدر سابق، باب ٦٦، ح ٣.

٢- ابن منظور، لسان العرب ١٠: ٢٦٢، والفيروزآبادي، القاموس المحيط ٢: ٣٧٨، والفتاوى، المصباح المنير: ٤٧٢-٤٧٣، والزبيدي، تاج العروس ١٩: ٥٤٣-٥٤٣.

ص: ٣٢

على جواز التظليل مطلقاً في أي بناء، إذ لا خصوصية لنوع الفسطاط، نعم، لا تدلّ على صورة التنقل داخل المكان أو المدينة التي نزل فيها الحاج أو المعتمر.

و عليه، لا تكون دلالة الرواية مطلقاً من ناحية الجواز مطلقاً لكل من لم يكن في حال السير، سواء أخذنا بتقريبها الأول أو الثاني. هذا من ناحية الدلالة، وأمّا من ناحية السند، فالرواية في «الفقيه» ضعيفة بجهالة الحسين بن مسلم، و في «المقنع» ضعيفة بالإرسال، فلا يحتج بها، و لا يحرز أن الفقهاء اعتمدوا عليها في الحكم بالجواز حتى يجبر ذلك ضعف السند فيها، بناءً على كبرى انجبار الضعف بعمل الأصحاب، لأن الأقرب أنهم عملوا برواية البنظي وحوار الإمام الطويل الذي ذكرناه سابقاً، و معه فلا يمكن الاعتماد عليها في الحكم هنا.

و المتحصّل من مراجعة طوائف النصوص: أنه لا يوجد مقيد فيها للطائفة الثانية المطلقة لإلارواية البنظي و ما ساندها من خبر الفضيل المتقدم الضعيف السند، غير أنها لا تدل - كما قلنا - إلا على جواز التظليل في البيوت و الأبنية، دون دلالة على التظليل بمثل اليد أو أدوات النقل أو المظلة المتعارفة داخل أماكن النزول حال التنقل فيها.

الوجه الخامس:

ما يمكننا ذكره في المقام، و هو أن ما يحرز كونه محلّاً للابتلاء، و مورداً للسؤال و الاستفهام عند المسلمين في تلك الفترات هو التظلل في الطريق حال السير، لأنّ عدمه هو الموجب لأذيتهم أحياناً، أو وجوده هو الموجب لراحتهم، و لم يكن التظلل داخل المدن أو القرى أو عند النزول مورداً لابتلائهم من هذا الحيث، فإنّ دخولهم في الظل كان لحاجتهم لدخول البيوت أو الأخبية أو ما شابه ذلك، و معنى هذا أن ظاهرة التظلل - بوصفها فعلاً وجودياً يعمد الإنسان لتحقيقه - أمرٌ وجيه و متصوّر منهم في تلك المرحلة في السفر، أمّا عند النزول فإنّهم ما كان يعمدون لتظليل أنفسهم غير دخول بيوتهم و الاستيطان في أخبيتهم و فساطيطهم، و هذا معناه أن تلك الحال الاجتماعية التي كانوا عليها، و هم من

ص: ٣٣

يعيش بلاد الحرّ في الحجاز و اليمن و العراق و البحرين و... تشكّل قرينه تصرف إطلاق الطائفة العامة إلى الحال الغالب المتعارف، وهو التظليل حال السير لا عند الوقوف المعتقد به، فضلاً عن دخول البيوت والمبيت فيها.

ولا نريد بذلك دعوى الانصراف نتيجة غلبة الوجود، مما هو ممنوع عندهم على ما هو المقرّر في مباحث علم الأصول، بل نريد أن نلاحظ النصوص في مناخها التاريخي و الاجتماعي، مما يشكّل لدينا قرينه تجعل الإطلاق في غير حال السير بمثابة الإشعار فحسب جموداً على شكل النص لا بمثابة الظهور الحجّة.

وهذا هو ما يفسّر عدم وجود تساؤلات عن صورة التظليل داخل أماكن النزول، ويُفهمنا السيرة التشريعية المنعقدة يقيناً على السكن في البيوت والأخبية أيضاً في مكّة و عرفات، كما هذا هو الذي يفسّر أيضاً إجماع الفقهاء على الجواز على تقدير أن يفهم منه إطلاقه كما تقدّم احتماله، فلاحظ جيّداً.

والمتحصّل أنّ حرمة التظليل ثابتة في حال السير خاصّة، أمّا حال النزول فلا دليل يطمأن له يمكن على أساسه الحكم بالحرمة، فالجواز مطلقاً هو الأقوى.

هذا، و قد احتاط بعض الفقهاء استجاباً في صورة التردد (١)، و بعضهم

احتاط وجوباً، و في الجواهر الأقوى الاجتناب، (٢) و ظاهر الفاضل الهندي احتمال

الوجوب (٣) كما فهمه منه صاحب الجواهر أيضاً (٤).

١- رسالته مناسك الحجّ، الشيخ الأنصاري ووافقه المعلقون، و يبلغ عددهم أكثر من عشرين من كبار الفقهاء المتأخرين، أنظر: ١٧٢، وقد احتاط استجاباً أيضاً السيّد السبزواري في مهذب الأحكام ١٣: ٢٠١، و الفاضل اللكراني في تفصيل الشريعة ٣: ٢٩٢.

٢- جواهر الكلام ١٨: ٤٠٦.

٣- كشف اللثام ٥: ٤٠٣.

٤- جواهر الكلام ١٨: ٤٠٦.

المبحث الرابع: حكم السفينة و القطار و...

بعد الفراغ عن حرمة التظليل حال السير، و جوازه حال النزول، وقع الكلام في بعض الصور التي تردّد الأمر فيها بين اندراجها في عنوان السير أو النزول، مثل السفينة التي ربما يقضى فيها الإنسان أياماً بلياليها يبيت فيها و... أو كالقطار الذي يمضى مسافات بعيدة بحيث يواصل سيره أياماً و ليالى عدّة حتّى يصل الميقات أو ما شابه ذلك، فهل يقال هنا: إن المحرم في حال مسيرٍ فيحرم عليه التظليل أم يقال: إنّه في حال نزولٍ؟ فالسفينة والقطار و... صاروا بالنسبة إليه أشبه بالمنزل الذي يستقرّ فيه؟ والمتحصّل أنّ حرمة التظليل ثابتة في حال السير خاصّة، أمّا حال النزول فلا دليل يطمأنّ له يمكن على أساسه الحكم بالحرمة، فالجواز مطلقاً هو الأقوى

لم أجد هذا الفرع في الكتب الفقهيّة قبل الميرزا النائيني، حيث أشار له في مباحث حجّه المدرج متناً لكتاب «دليل الناسك» للسيد محسن الحكيم رحمه الله (١)،

١- دليل الناسك، نشر مؤسسة المنار، المتن: ١٧٠.

ص: ٣٥

والسيد الخوئي ينقل عن شيخه، والظاهر أنه يريد به الميرزا النائيني رحمه الله في مباحثه المشار إليها، أنه قوى لحوق مثل السفينة بالمنزل، و من هنا يناقشه الخوئي بأن مقتضى الإطلاق حرمة التظليل في جميع الحالات، خرج من هذا الإطلاق خصوص حال النزول في الخباء و الوصول إلى المنزل، أما غيره كالسفينه فيبقى داخلاً تحت الإطلاق؛ الأمر الذي يقتضى الحرمة (١).
و النتيجة التي خرج بها السيد الخوئي مقبوله، لكن لا لما قاله، إذ لا دليل على أن جواز التظليل خاص بحال الوصول إلى المنزل، بل ظاهر صحیحہ البنظی مطلق الخباء حتى لو كان في الطريق، و تؤيدها رواية الفسطاط إذا فسّرناه بأنه ضرب من البناء في السفر كما تقدّمت الإشارة إليه عند اللغويين، وهذا معناه أن العبء بحال النزول لا الوصول كما قد توهمه عبارة السيد الخوئي، و من هنا نقول:
إن صحّة كلام الخوئي لا لما قاله، بل لأن العبء في الجواز بحال النزول و لا يصدق على من في السفينة و القطار هذا العنوان قطعاً، فالمفترض تطبيق أحكام السائر عليهم، و الحكم بحرمة التظليل، و لعلّ ما قلناه هو مراد السيد الخوئي رحمه الله، وإن كان في عبارته ما يوحى بتفسيرنا المتقدم.

والنتيجة:

حرمة التظليل في مثل القطار أو السفينة أو... إذا لم يلزم منه العسر والحرّج أو الاضطراب على ما تقدّم.

١- السيد الخوئي، المعتمد في شرح المناسك، ٤: ٢٣٦-٢٣٥.

ص: ٣٦

«.. مسجداً ضراراً...»

إشارة

حسن محمد

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ ١٠٧ لَمَّا تَقُمْ فِيهِ أُيُّدًا لَمَسْجِدًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ۝ ١٠٨ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَيَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ١٠٩ لَئِنْ زَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (١)

. هناك في تاريخنا الإسلامي، العبادي والسياسي والاجتماعي، ظهر مسجداً، كلاهما يستمدان وجودهما مما للمسجد من دور كبير في تحقيق الأهداف، ومما يشكّله هذا الدور الخطير الموكل له من وسيلة إعلامية بكل ما تحمله هذه الوسيلة من وظيفة متميزة في هداية الأمة، أو في إضلالها، وإبعادها عن الطريق المستقيم، فالمسجد سيف ذو حدين إن صحَّ التعبير، يمكننا من خلاله توعية المجتمع ودعوته إلى الله تعالى والالتزام بأحكامه وتطبيق مفاهيمه ومبادئه،

ص: ٣٧

ويمكننا من خلاله إبعادها عن هذه الدعوة، وبالتالي صرف مسيرتها، إلى حيث الضلال، وفي هذه المرة تكون خطورة المسجد أعظم وأكثر بلاء؛ لأن الانحراف هذا يتم تحت سقفه، ويكون - بما يحمله من أهداف عليا ومبادئ سامية - غطاءً لأعمالهم وعلى رأسها الكيد للجماعة المسلمة؛ لهذا راح المنافقون يستترون بهذه الوسيلة وبغيرها، فأسس جمع منهم، ممن عاصر رسول الله صلى الله عليه وآله وتظاهر بالإيمان والتقوى والحرص على المؤمنين، وكاد تظاهرهم هذا ومؤامرتهم هذه تنطلي على مؤمنى المدينة، لولا تدخل السماء، التي راحت تكشف زيفهم وتميط اللثام عن خطّتهم الخبيثة وما حاكته أيديهم للنيل من الصف المسلم يومذاك.

القراءة

ذكر المفسرون اختلافاً في القراءة:

* فقد قرأ كل من نافع وابن عامر بل وأهل المدينة

«الذين اتخذوا»

بغير واو، فيما قرأها الباقون بالواو، فالأول: على أنه بدل من قوله:

«وآخرون مرجون»

والثاني: على تقدير ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضاراً.

فالمسجد سيف ذو حدين إن صحّ التعبير، يمكننا من خلاله توعية المجتمع ودعوته إلى الله تعالى والالتزام بأحكامه وتطبيق مفاهيمه

ومبادئه، ويمكننا من خلاله إبعادها عن هذه الدعوة، وبالتالي صرف مسيرتها، إلى حيث الضلال

* وقرأ نافع وابن عامر أُسِّس بضم الألف، وبنائه بالرفع في الموضعين المذكورين: أُسِّس بنيانه على تقوى... أُسِّس بنيانه على شفا...

فيما قرأ الباقون أُسِّس بنيانه فيهما، وفي الشواذ قراءة نصر بن عاصم أُسِّس بُنيانه على وزن فُعِل، وقراءة نصر بن عاصم أُسِّس بُنيانه.

* وقرأ ابن عامر وحمزة وحماد ويحيى عن أبي بكر وخلف جُرف بالتخفيف،

ص: ٣٨

فيما قرأه الباقون جُرْف بالتثقيـل.

* وقرأ يعقوب وسهل «إلى أن» على أنه حرف الجر، وهو قراءة الحسن وقتادة والجحدري وجماعة، ورواه البرقي عن أبي عبد الله، فيما قرأ الباقون «إلا أن» مشددة اللام.

* وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وجعفر وسهل وروس عن يعقوب تَقَطَّع بفتح التاء والتشديد، فيما قرأ روح تَقَطَّع بضم التاء مخففاً، وقرأ الباقون تَقَطَّع بضم التاء مشدداً (١).

معاني

إرصاداً: إعداداً وارتقاباً وانتظاراً، تقول: أرصدت كذا إذا أعددتَه مرتقباً له به، قال أبو زيد: يقال رصدته وأرصدته في الخير وأرصدت له في الشر، وقال ابن الأعرابي: لا يقال إلا أرصدت ومعناه ارتقبت.

شفا: طرف وحرف.

جرف: بضم الراء وسكونها جانب البئر التي لم تطو، وقيل: الهوة وما يجرفه السيل من الأودية. أو هو المكان الذي يأكله الماء فيجرفه أي يذهب به.

هار: متداع وساقط ومنهال.

١- أنظر القراءات، ومجمع البيان، والتفسير الكبير للرازي، وأحكام القرآن للقرطبي.

ص: ٣٩

البلاغة

وفي الآيات استعارة، ففي قوله تعالى:

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله»

أى أسس على قاعدة راسخة قويّة ثابتة وطيبة ألا وهي التقوى تقوى الله تعالى، فشبه التقوى والرضوان بقاعدة يعتمد عليها البناء تشبيهاً مضمراً في النفس، وأسس بنيانه تخييل على قاعدة الاستعارة التصريحية.

وهناك استعارة أخرى وهي الاستعارة التمثيلية في انهيار البناء القائم على شفا جرف هار، فقد شبهت الآية عدم القيام بأمور الدين بمن بنى بنيانه على شفا فهو يسقط به، فالمشبه به البناء على محل آيل للسقوط، والمشبه هو ترتيب أحكام الدين وأعماله على الكفر والنفاق.

قصة مسجد الضرار

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآيات الأربع أنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسداهم جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف، وقالوا: بنى مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، منهم ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ونبئل بن الحرث، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة.

فقال صلى الله عليه وآله: إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه.

فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد (١).

فيما ذكر الواحدى في أسبابه ما قاله المفسّرون: إنّ بنى عمرو بن عوف، اتخذوا

١- مجمع البيان للشيخ الطبرسى، الآيات.

ص: ٤٠

مسجد قُباء وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسداهم إخوتهم بنو عُنف بن عوف، وقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا، وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح، وأنكر دين الحنيفية لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة وعاداه، وسماه النبي عليه السلام: أبا عامر الفاسق، وخرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين: أن [أعدوا]

[استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر، فآتي بجند الروم، فأخرج محمداً وأصحابه. فقالوا: إنا [قد] بنينا مسجداً لدى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبره الله عز وجل خبر مسجد الضرار وما هموا به فبنوا له مسجداً إلى جنب مسجد قُباء، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب، ومُعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعَبَاد بن حنيف، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ونبتل بن حارث [وبخرج]

[وبجاد بن عثمان، ووديعه بن ثابت. فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إنا [قد]

[بنينا مسجداً لدى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن، وأخبره الله عز وجل خبر مسجد الضرار وما هموا به. فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله مالك بن الدُخشم وأخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصماً، وعامر بن السكن، ووحشياً قاتل حمزة، وهذا أمر مستبعد لأنه صلى الله عليه وآله أمره بأن لا يراه حتى بعد أن أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله وبعد أن سمع حديثه عن كيفية قتله لحمزة رضوان الله عليه: ويحك! غيب عني وجهك، فلا أرينك.

ص: ٤١

قال وحشي: فكننت أتنكب رسول الله صلى الله عليه وآله حيث كان، لثلا يراني، حتى قبضه الله (١). وعلى أيّة حال، فقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا، وانطلق مالك، وأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرقوه وهدموه، وتفرّق عنه أهله، وأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يتخذ ذلك كناسةً تلقى فيها الجيف والتن والقمامة، ومات أبو عامر بالشك وحيداً غريباً. وفي خبر مختصر ينقله الواحدى أيضاً عن جماعة: أن المنافقين عرضوا المسجد بينونه ليضاهئوا به مسجد قباء، وهو قريب منه لأبي عامر الراهب، يرصدونه إذا قدم ليكون إمامهم فيه، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً فصل فيه حتى نتخذه مصلى، فأخذ ثوبه ليقوم معهم، فنزلت هذه الآية: «لا تقم فيه أبداً» (٢).

. وأبو عامر الراهب كان قد خرج إلى قيصر وتنصر، ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم، فبنوا مسجد الضرار يرصدون مجيئه فيه. ويذكر سعيد بن المسيّب: أن

«واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين» (٣)

. نزلت في أبي عامر هذا- وهو واحد من عدّة أقوال- وهو أبو عامر بن صيفي، وكان يلبس المسوح في الجاهلية، فكفر بالنبي صلى الله عليه وآله، وذلك أنه دخل على النبي صلى الله عليه وآله المدينة، فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال: فأني عليها.

١- أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٧٦.

٢- أسباب نزول القرآن للواحدى، والقرطبي في تفسيره وغيرهما.

٣- الأعراف: ١٧٥.

ص: ٤٢

فقال النبي صلى الله عليه وآله: لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها.

فقال أبو عامر: أَمَاتَ اللَّهُ الكاذبَ منا طريداً وحيداً.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: نعم أَمَاتَ اللَّهُ الكاذبَ منا كذلك.

وإنما قال هذا يُعَرِّضُ برسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرج من مكة.

فقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه

فخرج أبو عامر إلى الشام ومَرَّ إلى قيصر وكتب إلى المنافقين: استعدوا فإنى آتيكم من عند قيصر بجند لنخرج محمداً من المدينة،

فمات بالشام وحيداً، وفيه نزل:

«وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل» (١)

. إذن، ومن خلال الاستعانة بأسباب النزول المختصة بهذه الآيات الأربع، نرى أن مسجد ضرار حركة نفاقية خطيرة وسيئة كادت أن

تؤدي بوحدة الصف المسلم، خطط لها أعداء الإسلام والتوحيد، وراحت أيدٍ تتظاهر بالإسلام داخل المجتمع المسلم تنفذها تحت

أغطية ذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية... يحاولون بهذا إخفاء نواياهم الحقيقية وهي التي بينها الآيات المذكورة:

ضراراً وكفراً وتفريقاً... وهي مقاطع سيأتى شرحها.

المفاسد الأربع

وراحت هذه الآيات القرآنية تصف هذا المسجد الذى أسسته أياد منافقة تريد الكيد بالإسلام والمسلمين، تصفه بصفات أو مفاسد

أربع، وبالتالي تصف القائمين به وعليه أيضاً بهذه الصفات، وهى كونه:

١-

ضراراً.

٢-

كفراً.

١- أنظر القرطبي فى تفسيره للآية ١٧٥ من سورة الأعراف.

ص: ٤٣

-٣-

تفريقاً بين المؤمنين.

-٤-

إرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.

فالصفة الأولى:

هي أنه كان ضراراً، والضرار لغةً، ضرّه، وضرّ به، يضرّه ضرّاً وضرراً: ألحق به مكروهاً أو أذىً، وضرّه مضارّةً وضراراً: ضرّه وضامه وضايقه، وضراره أى خالفه، وتضارّاً: ضارّاً أحدهما الآخر، وتضارّاً: لحقهما ضرر وضيم (١).

وقال الرازي والطبرسي أيضاً: إنّ الضرار محاولة الضرّ، كما أنّ الشقاق محاولة ما يشق، يقال: ضاره مضارّة وضرار. وقال الزجاج: وانتصب قوله (ضراراً) لأنّه مفعول له.

والمعنى: اتخذوه للضرار، ولسائر الأمور المذكورة بعده، فلما حذفت اللام اقتضاه الفعل فنصب.

ثم قال: وجائز أن يكون مصدراً محمولاً على المعنى والتقدير: اتخذوا مسجداً ضرراً به ضراراً.

إذن، فلا يُراد به إلّا الإضرار بالمسلمين وبوحدتهم كما لا يُراد به إلّا الكفر بالله تعالى وترك عبادته وتوحيده، ولا يُراد به أيضاً إلّا أن يكون مركزاً للفتنة والتآمر على الساحة الإسلامية والكيد لها بالتعاون مع أعداء هذه الدعوة المباركة التي حملها نبيّ الرحمة محمد صلى الله عليه وآله، متسترين بعناوين متعدّدة منها: مساعدة ضعفائها، ومرضانا، خاصة في الليالي الباردة، التي لا يستطيعون فيها الذهاب إلى مسجد قباء، كما أرادوا أن يصلّي فيه الرسول صلى الله عليه وآله لكي يصفى على بنائهم هذا وعملهم الشرعيّ، ولكن سعيهم هذا خاب بعد أن تدخلت السماء فكشفت مؤامرتهم.

هذا، وقال أهل التأويل: ضراراً بالمسجد، وليس للمسجد ضرار، إنّما هو

ص: ٤٤

لأهله، وروى الدارقطني عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا ضرر ولا ضرار من ضارّ الله به، ومن شاقّ شاقّ الله عليه.

قال بعض العلماء: الضرر: الذي لك به منفعة وعلى جارئك فيه مضرة.

والضرار: الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارئك فيه المضرة، وقد قيل: هما بمعنى واحد، تكلم بهما جميعاً على جهة التأكيد. وراح القرطبي يذكر بعض الأحكام التي منها أنه لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهله عن المسجد الأول فيبقى شاغراً، إلّا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ... (١).

الصفة الثانية: «وكفراً»

اختلفت أقوالهم في معنى

«وكفراً»

، فبعض ذهب إلى أن المقصود إقامة الكفر فيه، أو أن اتخاذهم هذا المكان واختيارهم هذا العمل بإنشاء هذا المسجد كان كفراً بالله، أو أن المراد هو أنهم يكفرون فيه بالطعن على رسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام، فعن ابن عباس أنه قال: يريد به ضراراً للمؤمنين، وكفراً بالنبى صلى الله عليه وآله وبما جاء به.

فيما ذهب غيرهم إلى أن المراد بـ

«وكفراً»

هو أنهم لما كان إعتقادهم أنه

ص: ٤٥

لا حرمة لمسجد قُباء ولا لمسجد النبي صلى الله عليه وآله كفروا بهذا الاعتقاد، هذا ما قاله ابن العربي (١). ولا مانع من أن يكون المراد منها كل ما تعنيه كلمة الكفر من معان.

الصفة الثالثة:

«وتفريقاً بين المؤمنين»

وهو هدف خطير تحمله حركة النفاق ويقصده المنافقون في كل تصرفاتهم ضد الدعوة الجديدة، فبنى هدفهم، إذا ما تم إنشاء هذا المسجد، مستغلين قدسية المسجد وانشداد المؤمنين له، بما يحمله من مكانة في قلوبهم، وبما تضيف عليه صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله فيه لو تمت، بنى هدفهم على تفريق الأمة المسلمة تمهيداً لتضعيفها فلاستحواذ عليها. يقول الرازي: أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، وذلك لأنَّ المنافقين قالوا: نبني مسجداً فنصلي فيه، ولا نصلي خلف محمد، فإنَّ أانا فيه صلينا معه، وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة. وهذا يدلُّك - كما يذكر القرطبي - على أنَّ المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة يفصل

١- أنظر تفسير الرازي ومجمع البيان للطبرسي وجامع الأحكام للقرطبي.

ص: ٤٦

الديانة حتى يقع الأنس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد (١).
إذن، فالمنافقون يحاولون النيل من الجماعة المسلمة من داخلها وبالوسائل التي تمتلكها هذه الجماعة، والتي منها المسجد وماله من دور خطير ومهم في حياتها الإيمانية.

الصفة الرابعة:

«وإرساداً لمن حارب الله ورسوله»

إن المفسرين اتفقوا على أن المراد بهذا المقطع من الآيات هو رجل من قبيلة الخزرج، يُقال له أبو عامر الراهب، والد حنظلة الذي غسلته الملائكة، كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله فيه بعد أن استشهد في معركة أحد حيث قال صلى الله عليه وآله: إن صاحبكم، يعني حنظلة، لتُغسله الملائكة، فسألوا أهله ما شأنه؟
فسئلت صاحبه عنه، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة أي الصيحة، وقد قتله شداد بن الأسود وهو ابن شعوب بعد أن رآه قد علا أبا سفيان، فضربه شداد فقتله (٢)، فشتان شتان بين هذا العبد الصالح، وأبيه الراهب، الذي تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، ولبس المسوح، وكان له شرف في قبيلته الخزرج كبير، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة حسده وحزب عليه الأحزاب، فسماه النبي صلى الله عليه وآله الفاسق، وظهرت نواياه الخبيثة هذه ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وآله خصوصاً بعد أن صارت للإسلام كلمة عالية، وأظهر الله المسلمين في معركة بدر، فشرق هذا اللعين بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ثم خرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وآله فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنحهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان لعامر هذا دور قد حفر حفائر بين الصنفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصيب في ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكسرت رباعيته

١- أنظر الرازي في تفسيره والطبري في مجمعهم والقرطبي في جامعهم في تفسير الآيات المذكورة: سورة التوبة.

٢- أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٧٩-٨٠.

ص: ٤٧

اليمنى السفلى، وشج رأسه - صلوات الله وسلامه عليه - ثم راح أبو عامر، وقد تقدّم في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، يخاطبهم ويستميلهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه، قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله! ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدى شر!

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله أن يموت بعيداً طريداً، فنالت هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وآله فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وآله ويغلبه، ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية! فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال صلى الله عليه وآله:

«أنا على سفر، ولكن إذا رجعنا، إن شاء الله»

. فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبقَ بينه وبينها إلّا يوم أو بعض يوم، بذى أوان، وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم - مسجد قباء - الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة. أما أبو عامر فكان مصيره أن مات قبل أن يبلغ ملك الروم الذي خرج إليه بعد أن انهزمت هوازن في معركة حنين حيث ظلّ أبو عامر يُقاتل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى

ص: ٤٨

أن حَلَّت الهزيمة بهم في هذه الواقعة، فمات وحيداً غريباً بقرين دون أن تتحقق أمانيه الخبيثة ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمانه السماء التي حملها بشيراً ونذيراً، ورحمةً للعالمين (١).

ثم إن الله تعالى بعد أن وصف هذا المسجد الذي اتخذ المنافقون بهذه الصفات أو المفاصد قال سبحانه وتعالى: «وليحلفن إن أردنا إلّا الحسنى»

وهو ردّ طبيعي متوقع منهم، أن يحلفوا بأنهم لم يريدوا من عملهم هذا إلّا الفعل الحسن، وهو الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلّة والعجز، وهو ما تعللوا به حينما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليطلبوا منه الصلاة في مسجدهم بأنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلّة الممطرة، والليلّة الشاتية، وهو غطاء تستر به المنافقون في خططهم، لكنّ الرد السماوي لم يتأخر فقد جاء بقوة

«والله يشهد إنهم لكاذبون»

فيما ادعوه، والله يعلم حيث ضمائرهم وكذبهم فيما يحلفون عليه. وكفى لمن يشهد الله سبحانه بكذبه خزيّاً في الدنيا والآخرة. «لا تقم فيه أبداً»

وهو نهى لرسول الله أن يقوم به للصلاة، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام، قد قامت الصلاة، ويقال: فلان يقوم الليل أى يصلي، ومنه الحديث:

«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وقد روى عن الحسن أنّه قال: هم رسول الله صلى الله عليه وآله أن يذهب إلى ذلك المسجد، فنادى جبريل عليه السلام لا تقم فيه أبداً.

بعد أن طلبوا منه أن يصلي فيه ويدعو لهم بالبركة، إلّا أنّه صلى الله عليه وآله وبعد أن كشفت له السماء نواياهم وفضحت سرّاتهم وما يحيكونه من وراء هذا البناء، وبعد نهى السماء أن يلبي لهم طلبهم، فيتخذوا قيامه في مسجدهم غطاء وإمضاء

١- أنظر ابن كثير في تفسيره للآية، وتاريخ المدينة لابن شبة ١: ٥٣-٥٤ ومعالم التنزيل للبغوي ٤: ٢٣٩، وغيرها.

ص: ٤٩

شرعياً لعملهم.

قال صلى الله عليه وآله لجماعته عيّنهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وخرّبوه، ففعلوا ذلك، ولم يكتف رسول الله صلى الله عليه وآله بتهديمه وتخريبه، بل أمر أن يتخذ مكانه كناسة يلقي فيها الجيف والقمامة، ولم يدم عمر هذا المسجد إلّا ثلاثة أيام، وانتهى في اليوم الرابع، يقول ابن جريح: فرغوا من إتمام ذلك المسجد يوم الجمعة، فصلّوا فيه ذلك اليوم ويوم السبت والأحد، وانهار في يوم الاثنين.

«لمسجد أسس على التقوى من أول يوم»

اللام في قوله تعالى:

«لمسجد»

هي لام القسم، وقيل لام الابتداء كما تقول:

لزيد أحسن الناس فعلاً، وهي مقتضية تأكيداً، والتقوى أى الخصال التى تتقى بها العقوبة، أى والله لمسجد أسس على التقوى، أى بنى أصله وجذره ورفعت قواعده على تقوى الله تعالى وطاعته منذ أول يوم.

وإنما تمّ هذا التفريق بين المسجدين؛ مسجد أسس على الشر والكيد والنوايا السيئة، ومسجد أسس على تقوى الله وطاعته، ليميز الله الخبيث من الطيب. وقد اختلف في هذا المسجد (مسجد التقوى)، فذهب بعض المفسرين إلى أنه:

مسجد قباء، يروى عن ابن عباس وعروة بن الزبير والضحاك والحسن، وتعلقوا بقوله:

«من أول يوم»

، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم، فإنه بنى قبل مسجد النبى صلى الله عليه وآله، قاله ابن عمر وابن المسيب، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم.

ولقوله تعالى: «فيه» وضمير الظرف تقتضى الرجال المتطهرين، فهو مسجد قباء.

وأن الآية نزلت في أهل قباء:

«فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»

فقد كانوا يستنجدون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية، وقال الشعبى: هم أهل قباء. أنزل الله فيهم هذا، وقال قتادة: لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله صلى الله عليه وآله

ص: ٥٠

لأهل قباء: إنّ الله سبحانه قد أحسن عليكم الثناء في التطهر فما تصنعون؟ قالوا: إنّنا نغسل أثر الغائط والبول بالماء، وهذا ما رواه أبو داود، فيما روى الدارقطني عن طلحة بن نافع أنّه قال: حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الآية

«فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»

فقال: يا معشر الأنصار إنّ الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور، فما طهوركم هذا؟ قالوا: يا رسول الله، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فهل مع ذلك من غيره؟ فقالوا: لا غير، إنّ أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء، قال: هو ذاك فعليكموه.

وقيل - كما هو المروى عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في مجمع البيان - يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط والبول، إضافة إلى ذكره كما روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأهل قباء: ماذا تفعلون في طهركم فإنّ الله قد أحسن عليكم الثناء؟ قالوا: نغسل أثر الغائط، فقال: أنزل الله فيكم «والله يحب المطهرين» أي المتطهرين.

فيما ذهب فريق آخر منهم إلى أنّه مسجد النبي صلى الله عليه وآله مستندين إلى ما رواه أبو سعيد الخدري كما في الترمذي، قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء؛ وقال آخر: هو مسجد النبي صلى الله عليه وآله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو مسجدي هذا. فمن عدّ هذا الحديث صحيحاً الذي نصّ فيه النبي صلى الله عليه وآله على أنّه مسجده، قال: فلا نظر معه، وقد روى أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله عن زيد بن ثابت وابن عمرو الخدري، ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله عليه وآله.

فيما ذهب فريق ثالث إلى أنّ المسجد الذي أسس على التقوى هو كل من مسجد المدينة ومسجد قباء، فقد روى أبو كريب قال: حدثنا أبو أسامة، قال:

حدثنا صالح بن حيان، قال: حدثنا عبد الله بن بريدة في قوله عز وجل:

«في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»

ص: ٥١

قال: إنما هي أربعة مساجد لم يبنهنَّ إلانبيّ: الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذان أسسا على التقوى، بناهما رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال القاضي: لا يمنع دخولهما جميعاً تحت هذا الذكر؛ لأنَّ قوله «لمسجد أسس على التقوى»

هو كقول القائل لرجل صالح أحق أن تجالس، فلا يكون ذلك مقصوداً على أحد.

وقيل: هو كل مسجد بنى للإسلام وأريد به وجه الله عن أبي مسلم.

«أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين»

. ثم راحت السماء تميّز بين ذلك البنيان الذي أسس على الكيد وبين بنيان كان أساسه التقوى ورضا الله سبحانه وتعالى، وراحت تجرى مقارنة بين المسجدين عبر تساؤل كبير وخطير يحمل تحذيراً وتنبهاً، وبالتالي تهدياً وتربيةً للنفوس في أن تميّز بين ما يعرض لها من أمور، فتتبع منها ما يتفق مع الخير وتترك كل شيء يتناغم والشر، إنها التريّة القرآنيّة المتواصلة للمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويذكر صاحب تفسير في ظلال القرآن، وهو يقف عند هذه الآية ليحلق بها بتعبير فني رائع حيث يقول: فلنقف بتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسي الراسخ المطمئن... ثم لتطلع بعد إلى الجانب الآخر! لنشهد الحركة السريعة العنيفة في بناء الضرار... إنه قائم على شفا جرف هار... قائم على حافة جرف منهار... قائم على تربة مخلخلّة مستعدة للانهار... إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزلق وينزلق!... إنه ينهار! إنه ينزلق! إنه يهوى! إن الهوة تلتهمه! يا للهول! إنها نار جهنم

«والله لا يهدي القوم الظالمين»

الكافرين المشركين.

الذين بنوا هذه البنية؛ ليكيدوا بها هذا الدين!

ثم يواصل كلامه: إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرة ترسمه وتحركه بضع كلمات!... ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم، في مواجهة دعوات

ص: ٥٢

الكيد والكفر والنفاق وليطمئن البناء على أساس من التقوى كلما واجهوا البناء على الكيد والضرار! (١).

حقاً إنه لمشهد رائع هذا الذى يصوره كتاب الله تعالى وهو يحكى هذين البنائين ودوافعهما وما آلت إليه أسس بناء الشر من نهاية تعيسة، فيما راح بناء الخير تعلقو كلمته، ويرتفع رصيده عند الله تعالى وعند المؤمنين، ففرق كبير بين من أسس بنيانه متقياً وبين من أسس بنيانه غير متق، فالأول مثاب على عمله فيما يكون الآخر معاقباً عليه رغم ما بذله من جهد ومال... فانهار به فى نار جهنم لأنه معصية وفعل لما كرهه الله تعالى من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، هذا وأن من أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذى هو تقوى الله

ورضوانه خير- كما يقول الرازى- أمن أسس على قاعدة هى أضعف القواعد وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار من أودية جهنم؟
فلكونه

«شفا جرف هار»

كان مشرفاً على السقوط، ولكونه على طرق جهنم، كان إذا انهيار فإتماً ينهار فى قعر جهنم.

١- فى ظلال القرآن لسيد قطب فى تفسير الآية.

ص: ٥٣

ثم يقول الرازي: ولا نرى في العالم مثلاً أحسن مطابقةً لأمر المنافقين من هذا المثال! وحاصل الكلام أن أحد البنائين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم (١).

هذا ولا بد لنا من الإشارة إلى أن العلماء اختلفوا في

«فانهار به في نار جهنم»

هل هذا حقيقة أو مجاز على قولين:

الأول:

أنه حقيقة، فقد أرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله من يهدمه، وفعلًا هدم وخرب ورؤى الدخان يخرج منه، كما في رواية سعيد بن جبير، وقال بعضهم: كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة، فيما ذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضوع الذي انهار فيخرج منه دخان، وروى عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن ابن مسعود أنه قال: جهنم في الأرض، ثم تلا

«فانهار به في نار جهنم»

أما جابر بن عبد الله فيقول: أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

حاصل الكلام أن أحد البنائين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم الثاني:

أنه مجاز، ومعناه: صار البناء في نار جهنم، فكأنه انهار إليه وهوى فيه وهذا كقوله تعالى:

«فأُمُّهُ هَاوِيَةٌ»

، يقول القرطبي: والظاهر الأول، إذ لا إحالة في ذلك والله أعلم (٢).

١- التفسير الكبير الرازي، تفسير الآية.

٢- أنظر أحكام القرآن للقرطبي في تفسير الآية.

ص: ٥٤

«لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلّا أن تقطّع قلوبهم والله عليم حكيم»

. تحمل هذه الآية مشهداً آخر راح التعبير القرآني يرسمه في نفوس بُناته الأشرار، وبناء كل مساجد الضرار.

لقد انهار الجرف المنهار... انهار ببناء الضرار الذي أقيم عليه، انهار به في نار جهنم وبئس القرار! ولكن ركام البناء بقي في قلوب بناته. بقي فيها «ريبة» وشكاً وقلقاً وحيرة. وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر. إلّا أن تنقطع وتسقط هي الأخرى من الصدور!

وإن صورة البناء المنهار - كما يقول صاحب تفسير في ظلال القرآن - هي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار... تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية وهما تتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان. فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة، حائر الوجدان، لا يطمئن ولا يستقر، وهو من انكشف ستره في قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار. ثم يقول سيد قطب: وهذا هو الإعجاز الذي يرسم الواقع النفسي بريشة الجمال الفني، في مثل هذا التناسق؛ بمثل هذا اليسر في التعبير والتصوير على السواء «١».

فيما ذكر القرطبي في أحكامه في قوله تعالى:

«لا يزال بنيانهم الذي بنوا»

: يعني مسجد الضرار.

«ريبة»

أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك.

وقال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبٌ

وقال الكلبي: حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنيانه.

وقال السدي وحبيب والمبرد: «ريبة» أي حزازة وغيظاً أو أن تتصدع قلوبهم كقوله:

«لقطعنا منه الوتين»

لأنّ الحياة تنقطع بانقطاع الوتين، قاله الضحاك وقتادة ومجاهد، وقال سفيان: إلّا أن يتوبوا، وعكرمة: إلّا أن تقطع قلوبهم في قبورهم، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرؤونها: ريبة في قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم، وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم «إلى أن تقطع» كل الغاية، أي لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا (١)، فالبناء الذي بنوه كان وظلّ

شكاً في قلوب مؤسسيه ومخططيه فيما كان من إظهار إسلامهم وثباتاً على النفاق، وبقي حزازة كما يقول بعض المفسرين، وحسرة كما يقول بعض آخر، في قلوب أصحابه يترددون فيها.

هذا وأنّ الرازي يذهب إلى أن بناء ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة لكونه سبباً لريبة. وفي كونه سبباً للريبة ذكر الرازي وجوهاً:

الأول:

إنّ المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر الرسول صلى الله عليه وآله بتخريبه، ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له وازداد ارتيابهم في نبوته.

الثاني:

إنّ الرسول عليه الصلاة والسلام لما أمر بتخريب ذلك المسجد ظنوا أنّه إنما أمر بتخريبه لأجل الحسد، فارتفع أمانهم عنه وعظم

خوفهم منه في كل الأوقات، وصاروا مرتابين في أنه هل يتركهم على ما هم فيه، أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم؟

الثالث:

إنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في بناء ذلك المسجد، فلما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتخريبه، بقوا شاكين مرتابين في أنه لأي سبب أمر بتخريبه؟

الرابع:

بقوا شاكين مرتابين في أن الله تعالى هل يغفر تلك المعصية؟ أعني

١- أنظر أحكام القرآن للقرطبي في تفسير الآية.

ص: ٥٦

سعيهم في بناء ذلك المسجد.

ثم يقول الرازي بعد ذكر هذه الوجوه الأربعة: والصحيح هو الوجه الأول.

أما بخصوص المقطع الثاني من الآية المذكورة وهو

«إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبَهُمْ»

فيقول الرازي - بعد أن يذكر الاختلاف في قراءته - أن تقطع بفتح التاء والطاء مشددة بمعنى تنقطع، فحذفت إحدى التاءين، والباقيون بضم التاء وتشديد الطاء على ما لم يسم فاعله، وعن ابن كثير (تقطع) بفتح الطاء وتسكين القاف (قلوبهم) بالنصب أى تفعل أنت بقلوبهم هذا القطع، وقوله (تقطع قلوبهم) أى تجعل قلوبهم قطعاً، وتفرق أجزاءها إما بالسيف وإما بالحزن والبكاء، فحينئذ تزول تلك الريبة، والمقصود أن هذه الريبة باقية في قلوبهم أبداً ويموتون على هذا النفاق، وقيل: معناه إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا توبه تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم، وقيل:

حتى تنشق قلوبهم غمًا وحسرة.

وقرأ الحسن (إلى أن)، وفي قراءة عبدالله (ولو قطعت قلوبهم)، وعن طلحة (ولو قطعت قلوبهم) على خطاب الرسول صلى الله عليه و آله أو كل خطاب.

إذن، فهم لا ينزعون عن الخطيئة ولا يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم وكفرهم، فإذا ماتوا - كما يقول الشيخ الطبرسي - عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان وأخذوا من الكفر، ويحتمل أن معناه إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا توبه تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم، كما يذهب إليه الزجاج.

والريبة المذكورة في الآية - إذن - تحتمل الأقوال الثلاثة في معناها:

* أن هذا البنيان الذي بنوه لا يزال شكاً في قلوبهم.

* أن هذا البنيان الذي بنوه سيبقى حزازة في قلوبهم.

* وقيل: إنه سيبقى حسرة في قلوبهم يترددون فيها.

وأما معنى (إِلَّا) ها هنا فهو (حتى)، لأنَّ إِلَّا استثناء من الزمان المستقبل، والاستثناء منه منته إليه فاجتمعت إِلَّا مع حتى في هذا الموضع على هذا المعنى.

ص: ٥٧

المقطع الأخير

«والله عليم حكيم»

عليم بنياتهم في تشييد هذا البناء، والدعوة إليه، وعليم بمخططاتهم الخبيثة، التي كان أهمها ما ذكرته وصرحت به الآيات السابقة ذاكراً سيئات عملهم هذا:

«ضارراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل»

. وحكيم فيما حكم به عليهم، وعلى بنيانهم هذا، وفي منعه رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يلبي دعوتهم للصلاة فيه، وكشف حقيقة أمرهم له، ليكون على بينة من مشروعاتهم التآمرى هذا، فكان أمره بنقضه ليمنع الفساد أن يقع في الساحة المسلمة ويمنع كل ما يحمله من أذى وضرر وتفريق وتشتيت للجماعة المؤمنة، وبالتالي يبقى المشروع الإيماني الذي بنى على أسس من التقوى محكماً ثابتاً بلا منازع، ويترك ما أسس على فساد الطوية وخبث النية مهذباً وعبرة لكل من أراد بذر الفتنة.

وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآني في كشف هذا المسجد وأهله، وفي تصنيف المجتمع الى تلك المستويات التي أشارت إليها الآيات الأخرى التي سبقت آية مسجد الضرار (١).

وفي كشف الطريق للحركة الإسلامية، ورسم طبيعة المجال الذي تتحرك فيه من كل جوانبه - كما يقول صاحب الظلال والذي يواصل حديثه قائلاً:-

لقد كان القرآن الكريم يعمل في قيادة المجتمع المسلم، وفي توجيهه، وفي توعيته، وفي إعداد له مهمته الضخمة.. ولن يفهم هذا القرآن إلّا وهو يدرس في مجاله الحركي الهائل ولن يفهمه إلّا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة الضخمة في مثل هذا المجال. ونختم حديثنا عن هذه الآيات بكلام ما أجمله وأعظمه عن آثار هذا المسجد وما هو على شاكلته في واقع المسلم، وأنّ ظاهرة المسجدية الضارة التي يمثلها

ص: ٥٨

مسجد الضرار في ذلك الوقت قد تكرر بل تكررت في عصور الإسلام المختلفة وبأشكال ووسائل متعددة. فمسجد الضرار - كما يذكر سيد قطب في تفسيره - يُتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة، التي يتخذها أعداء هذا الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه فمسجد الضرار - كما يذكر سيد قطب في تفسيره - يُتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة، التي يتخذها أعداء هذا الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه، وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها وهي ترمى هذا الدين! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدّر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدّرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق!... وتتخذ في صور شتى كثيرة...

ويواصل حديثه فيقول: ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال الالفتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك البيان القوي الصريح: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً... والله عليهم حكيم» (١).

ص: ٥٩

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية

إشارة

السيد علي قاضي عسكر
تمتاز مكة عن سائر المدن والبلدان بخصائص فذة وميزات فريدة؛ وذلك لما حباها الله تعالى به من موقع متميز ودور فعال في تاريخ البشرية وتاريخ المسلمين على وجه الخصوص. من هنا أود الإشارة إلى بعض تلك الخصائص التي ذكرها الله سبحانه في كتابه الكريم، وهي كما يلي:

١- مكة أم القرى:

فقد ورد عن المؤرخين أنه عندما كان الماء مشتملاً الكرة الأرضية برمتها، ظهرت فيها بقعة من اليابسة، ثم توسعت شيئاً فشيئاً، وقد سمي يوم ظهور اليابسة (دحو الأرض) وهو يعادل في السنة القمرية الخامسة والعشرين من شهر ذي القعدة. وقد أشارت المصادر الدينيّة إلى هذه المسألة، واعتبرت البقعة الظاهرة من اليابسة هي محل الكعبة المشرفة، وأن الأرض توسّعت من ذلك المكان (١). وجاء في بعض الأدعية ما يدلّ على ذلك ومنه: «اللهم داحي الكعبة» (٢). كما يؤيد ذلك نظريات علم الأرض الحديثة (الجيولوجيا) التي تقول: إن

١- من لا يحضره الفقيه: ٢: ١٢٤، تاريخ مكة المشرفة، لمحمد بن محمد بن أحمد بن الضياء المكي: ٣٤.

٢- مفاتيح الجنان، دعاء الصباح.

ص: ٦٠

قَارَاتِ الْعَالَمِ انْفَصَلَتْ مِنْ نَقْطَةٍ تَقَعُ فِي حُدُودِ أَفْرِيْقِيَا وَشِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ (١).

وَمِمَّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ أَنَّ مَكَانَ الْكَعْبَةِ الْحَالِيَّ يَقَعُ فِي مَقَابِلِ (الضَّرَاحِ) أَوْ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي عِنْدَ الْعَرْشِ، وَهَذَا الْأَمْرُ - وَمَا سَبَقَهُ - يَدُلُّانِ عَلَى أَنَّ لِلْكَعْبَةِ مُحَوَّرِيَّةً فِي عَالَمِ الْخَلْقِ وَالْوُجُودِ وَفِي الْأَرْضِ (٢). وَقَدْ جَاءَ فِي الرَّوَايَةِ «... وَوُضِعَ الْعَبْتُ فِي وَسْطِ الْأَرْضِ لِأَنَّهُ الْمَوْضِعُ الَّذِي مِنْ تَحْتِهِ دُحَيْتُ الْأَرْضِ، وَلِيَكُونَ الْفَرْصُ لِلْأَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فِي ذَلِكَ سَوَاءً...» (٣).

٢- مكة تحظى بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام:

أَسْهَمَتْ مَكَّةُ خِلَالَ تَارِيخِهَا الْعَتِيقِ فِي عَطَاءِ حَضَارِي كَبِيرٍ، وَذَلِكَ فِي أَعْقَابِ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ مَدِينَةً أَوْ بَلَدًا يُؤَسَّسُ لِحَضَارَةٍ دِينِيَّةٍ فِي بَقْعَةٍ جَبَلِيَّةٍ وَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعَائِهِ حَيْثُ قَالَ: «... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا...» (٤).

٣- البلد الأمين:

تَمْتَازُ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْمَقْدَّسَةُ وَحُدُودُ الْحَرَمِ فِي أَطْرَافِهَا بِالْأَمْنِ،

١- الْحَجَّ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْحَقُوقِ الدَّوْلِيَّةِ: ٢٠١. بِاللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ.

٢- تَارِيخُ مَكَّةَ الْمَشْرُفَةِ: ٣٥.

٣- مِنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيهَ ٢: ١٩١.

٤- الْبَقْرَةُ: ١٢٦.

ص: ٦١

فليس لأحد الحق أن يدنس المكان بالظلم والجور، وكل من التجأ إليه فسيكون في كامل الأمن والأمان، ويشمل ذلك الحيوان والنبات، فلا يجوز لأحد أن يتعرض لها بالإساءة والأذى، فلا يقتل حيواناً أو يؤذيه، ولا يقطع نباتاً فيسلب منه الحياة، قال تعالى: «... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا...» (١)

، وقال أيضاً في آية

أخرى:

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (٢)

. ويؤكد في آية ثالثة أن من انتهك حرمة الحرم؛ سيواجه بانتقام إلهي أليم، قال تعالى:

«... وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» (٣)

. أسهمت مكة خلال تاريخها العتيق في عطاء حضارى كبير، وذلك في أعقاب دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أصبحت مدينه أو بلداً يؤسس لحضارة ديتيه في بقعه جبلية وواد غير ذى زرع

٤- سلامة الاقتصاد والموارد:

ومن الخصائص الأخرى التى تتميز بها هذه المدينه المقدسه، أن سكانها يتمتعون باقتصاد سالم وموارد طيبه، أعطاهم الله تعالى هذه النعمه المباركه، قال تعالى:

«... وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...» (٤)، وقال تعالى فى آيه أخرى:

«... يَجِبِ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا...» (٥).

٥- اشتياق القلوب إليها:

ومن خصائصها أن قلوب ملايين المسلمين تهفو إليها، وفى كل عام يحظى بعضهم بالتوفيق لحضور المشاعر المقدسه فيها، قال تعالى:

«... فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...» (٦).

١- البقرة: ١٢٦.

٢- التين: ٣.

٣- الحج: ٢٥.

٤- البقرة: ١٢٦.

٥- القصص: ٥٧.

٦- إبراهيم: ٣٧.

ص: ٦٢

٦- تساوى الناس فيها:

فالذين يَرِدُونَ مَكَّةَ الْمُشْرِفَةَ لِأَدَاءِ الْمَشَاعِرِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُقِيمِينَ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى:

«سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ...» (١)

، وَقَدْ جَاءَ فِي الرِّوَايَةِ:

«فَالْعَاكِفُ الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي الَّذِي يَحْجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ» (٢).

٧- أولياؤها من المتقين:

وَجَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ أَنَّ الْمُتَوَلِّينَ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ الصَّالِحِينَ، قَالَ تَعَالَى:

«... وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» (٣)

، وَسَرَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هُوَ أَنَّ مَكَّةَ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْكَعْبَةَ

لَيْسَتْ مَعْرِدَ مَدِينَةٍ أَوْ أَثَرٍ تَارِيخِيٍّ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْمُتَصَدِّينَ لَهُ أَنْ يَبْذُلُوا الْجُهْدَ لِحِفْظِهِ وَصِيَانَتِهِ وَحَسَبِ، بَلْ هِيَ قَاعِدَةُ الْهَدَايَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَمَرْكَزُ إِشْعَاعٍ لِلْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ، وَمِنْهُ يَنْتَقِلَانِ عَنْ طَرِيقِ الْحَجِّجِ إِلَى كَافَّةِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ.

٨- فيها أول بيت وضع للناس:

فَمِنْ خِصَائِصِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ وَقُوعِ الْكَعْبَةِ فِيهَا، وَهِيَ أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ، وَنَتِيجَةُ ذَلِكَ هُوَ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ لَهُ تَعَلُّقٌ خَاصٌّ بِبَيْتِهِ

الَّذِي هُوَ بَيْتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا يَشْعُرُ بِالْغُرْبَةِ فِيهِ، قَالَ تَعَالَى:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...» (٤).

٩- هدى للعالمين:

فَالْكَعْبَةُ مَنَارُ هُدًى وَمَرْكَزُ إِشْعَاعٍ لِلْهَدَايَةِ الدِّيْنِيَّةِ إِلَى أَرْجَاءِ الْعَالَمِ

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ... وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ»

. وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَسَالَتُهُ عَالَمِيَّةٌ هِيَ:

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (٥) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (٦).

١- الحج: ٢٥.

٢- مجمع البيان فى تفسير القرآن ٧: ١٢٧.

٣- الأنفال: ٣٤.

٤- آل عمران: ٩٦.

٥- الفرقان: ١.

٦- سبأ: ٢٨

ص: ٦٣

والقرآن الكريم أنزله الله تعالى لهداية عموم البشر

«شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ...» (١)، «... إِنَّ هُوَ إِلَازِكُرَى لِّلْعَالَمِينَ» (٢). وبناءً على

ما تقدّم فإنّ الإسلام دين عالمي، والرسول صلى الله عليه وآله إنّما بعث لهداية الناس كافّة، ومثل هذا الدين يحتاج إلى مركز ثابت وغير قابل للتحوّل والتغيّر، كي يستطيع محبّو هذا الدين ومؤيدوه أن يجتمعوا في هذا المركز، ويتحدّثوا في المسائل العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة، ويتبادلوا الخبرات ووجهات النظر المختلفة التي تسهم في حلّ مشكلاتهم والصعوبات التي تعترض حياتهم، قال تعالى:

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ» (٣)

. من هنا، جعل الله سبحانه رابطة تشدّ المسلمين إلى هذا المركز، فهم يتوجّهون إليه كلّ يوم خمس مرّات عند إقامة الصلاة، ويجعلون وجوه موتاهم إليه عند الدفن.

١٠- الكعبة طاهرة مطهرة:

فالكعبة والمسجد الحرام مطهران بأمر الله تعالى من كلّ دنسٍ ورجس، ومن يدخل البيت الحرام فإنّه يطهر من الذنوب، ويردّ إلى أهله وهو

«مَغْفُورٌ لَهُ كُلُّ ذَنْبٍ» (٤)

كما ورد في الحديث.

والأمر في هذه الطهارة هو من عند الله تعالى:

«وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرَّكْعِ السُّجُودِ» (٥)

. ولو أردنا أن نستلهم من الكتاب الكريم لندرك دور المسجد في تطهير المؤمن، فإننا سنجد أنّه يقول حول بناء مسجد قبا:

«لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ»

، ثم يقول:

«... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ

١- البقرة: ١٨٦.

٢- الأنعام: ٩٠.

٣- الحج: ٢٧.

٤- تهذيب الأحكام ٦: ١٢١.

٥- البقرة: ١٢٥.

ص: ٦٤

يتطهروا...»

، وفي النتيجة

«والله يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ» (١)

، ومنه نستنتج أن هذا

البيت بُنى حتى يدخله المسلمون ويطهروا أنفسهم من أدران الشرك والذنوب لينالوا محبة خالقهم.

١١- الكعبة قيام للناس:

فقد جعل القرآن الكريم بقاء المجتمع الإسلامي رهناً ببقاء الكعبة، قال تعالى:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ...» (٢)

. هذه الآية تبين أن الناس إذا اهتموا بالحج والكعبة

واستفادوا من هذا التجمع الديني الكبير على طريق تحقق أهداف الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فإن حياتهم المادية والاجتماعية والسياسية ستصان من التفرق والاختلاف، وتحفظ من التشتت والانفصال، وقد عبّر الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن هذه الحقيقة القرآنية بقوله:

«لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة» (٣)

. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لأولاده وأصحابه:

«اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تَخْلَوْهُ مَا بَقِيتُمْ فَإِنَّهُ إِنْ تَرَكَ لَمْ تُنَظَرُوا...» (٤)

، وجاء أيضاً في حديث

آخر:

«أما إن الناس لو تركوا حج هذا البيت لنزل بهم العذاب وما نوظروا» (٥)

. نستخلص مما تقدم أن عدم الاعتناء بالكعبة وإهمال الحج نقض للعهد مع الله سبحانه وإهمال لأحد أركان ديننا المهمة، ولا ريب أن لإهماله دوراً تخريبياً كبيراً في إضعاف قواعد الإسلام وتبديد قواه، لذلك اتخذت العقوبات القاسية في هذا المجال.

كما أنه على الدول الإسلامية في حال عدم الاعتناء بالحج وترك زيارة بيت الله الحرام أن يرسلوا المسلمين إلى الحج ويُنفقوا عليهم من بيت المال، كي

١- التوبة: ١٠٨.

٢- المائدة: ٩٧.

٣- الكافي ٤: ٢٧١، بحار الأنوار ٩٩: ٥٧.

٤- نهج البلاغة، بتحقيق صبحي الصالح: ٤٢٢، بحار الأنوار ٩٩: ١٦.

٥- بحار الأنوار ٩٩: ١٦، وسائل الشيعة ١١: ٢٢.

ص: ٦٥

لا يبقى بيت الله مهجوراً (١).

١٢- الكعبة بيت عتيق:

فهى بيت حرّ، وهى محور الحرية، قال تعالى:

«... وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٢)

. ويقول الإمام الباقر عليه السلام

حول سبب تسمية الكعبة بالبيت العتيق:

«هو بيت حرّ عتيق من الناس لم يملكه أحد» (٣)

. وبما أنّ الكعبة محور التوحيد. والتوحيد ينطوى على التخلص من كلّ أنواع العبوديّة إلّا لله تعالى، لذا يمكن القول: إنّ الكعبة محور

الحرية، يقول الإمام على عليه السلام:

«ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً» (٤).

١٣- الكعبة مثابة للناس:

إذ هى مرجع ومأمن للناس كافّة، قال تعالى:

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...» (٥)

، فالذى يتوجه إلى البيت ويزوره

فكأنما عاد إلى وطنه الأصلي وبالنتيجة عاد إلى أصله.

ولو أمعنا النظر فى الخصوصيات التى تتمتع بها مكّة المكرّمة، ندرك بوضوح أنّه ليس ثمة مدينة فى الدنيا تمتلك مثل هذه

الخصوصيات، أو أن تكون ندّاً لها فى هذا الإطار، وعليه فإنّ مكّة أليق مكان لتبيين الدين ونشر الثقافة الإسلامية.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطباً لمكّة:

«إِنِّى لأعلم أنّك حرم الله وأمنه وأحبّ البلدان إلى الله تعالى» (٦)

. وعنه صلى الله عليه وآله وكان واقفاً بالحزورة (٧) فى سوق مكّة:

«والله إنّك لخير أرض الله،

١- علل الشرائع: ٣٩٦.

٢- الحج: ٢٩.

٣- الكافى ٤: ١٨٩، علل الشرائع: ٣٩٩.

٤- نهج البلاغة، بتحقيق صبحى الصالح: ٤٠١.

٥- البقرة: ١٢٥.

٦- أخبار مكة للفاكهى ٢٦١، ١٤٧١، كنز العمال ١٤: ٩٧ / ٣٨٠٣٩.

٧- الحزورة: موضع بمكة عند باب الحنّاطين. النهاية ١: ٣٨٠.

ص: ٦٦

وأحب الأرض إلى الله عز وجل، ولولا أني اخرجت منك ما خرجت» (١)

. ويقول الإمام الصادق عليه السلام:

«أحب الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربته أحب إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحب إلى الله عز وجل من حجرها، ولا شجر أحب إلى الله عز وجل من شجرها، ولا جبال أحب إلى الله عز وجل من جبالها، ولا ماء أحب إلى الله عز وجل من مائها...» (٢).

مكة موضع لإقامة الحج ومحور لنشر الثقافة الدينية:

تمتلك مكة المقدسة خصائص الشرف ومقامات العظمة من جهة، كما حظيت من جهة أخرى بأهمية أكثر لإقامته مراسم الحج فيها، فالحج هو الذي جعل من هذه المدينة محورا وعمق أثرها الثقافي والأخلاقي في العالم الإسلامي، وأهلها لأداء هذا الدور على أحسن وجه.

لقد أوجب الله تعالى الحج على المستطيع من الناس في قوله:

«... ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً...» (٣)

، لكي يجتمع المسلمون في موسم

الحج كل عام وفي أيام خاصه من كل أرجاء العالم عند هذه البقعة المقدسة، فيؤدوا مناسك فريضة الحج، وتلك الفريضة واجبة على كل مسلم مستطيع مرة واحدة في حياته، ولهذا قيل لها: (عبادة العمر).

تمتلك مكة المقدسة خصائص الشرف ومقامات

١- مسند أحمد ٦: ٤٤٩ / ١٨٧٤٠.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٤٣.

٣- آل عمران: ٩٧.

ص: ٦٧

العظمة من جهة، كما حظيت من جهة أخرى بأهمية أكثر لإقامته مراسم الحج فيها، فالحج هو الذى جعل من هذه المدينة محورا وعمق أثرها الثقافى والأخلاقي فى العالم الإسلامى، وأهلها لأداء هذا الدور على أحسن وجه إن الروايات والأخبار الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام والمتعلقة بثمرات وبركات الحج، تبين أن الحج قاعدة أساسية للتحوّل الروحى والأخلاقي للمسلمين.

ففى كلّ عام يجب على من تتوفّر فيهم شروط الاستطاعة أن يؤدّوا المناسك المقدّسة، ويطهّروا أنفسهم من الذنوب ويتعدّوا عن الخطايا التى اقترفوها ويختاروا النهج الصحيح فى الحياة، ثم يعودوا فينقلوا هذا التحوّل إلى عوائلهم وأصدقائهم ومعارفهم فى أماكن مختلفة من العالم، وبذلك يسهم الحج فى بسط التهذيب الخلقي والروحي للمسلمين.

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام، هو أنّه لا ترصد أيّة ميزاتٍ لإنجاز هذا العمل، ولا ينفق شىء من بيوت أموال المسلمين، لأنّ كلّ حاجٍ إنّما يتوجب عليه الحجّ عندما يكتسب الاستطاعة أو المقدرة المالية، وبالنتيجة يتحمّل جميع النفقات المترتبة عليه.

وفيما يلى نذكر أنموذجا مناسباً لكى يدرك القراء الأعزاء هذه الحقيقة بشكل جليّ: أرسلت الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى سنة ١٤٢٤ هـ نحو ستمائة ألف حاج و معتمر لأداء مراسم الحجّ والعمرة، وأمضوا فى الحرمين الشريفين نحو خمسة عشر يوماً خلال العمرة، ونحو سبعة وعشرين يوماً خلال موسم الحج، ويحضر الحجاج فى إيران جلسات تعليمية خاصة قبل تشرفهم لأداء مراسم الحجّ بنحو ثلاثة أشهر، وقبل العمرة بنحو شهرين، وتطرح فى تلك الجلسات عدّة مسائل مثل؛

١-

الأحكام الفقهيّة العامّة

٢-

مناسك الحجّ

٣-

أسرار و معارف الحجّ

٤-

تاريخ الإسلام ٥- الأماكن

ص: ٦٨

والآثار الإسلامية في مكة والمدينة

٦-

آداب سفر الحج

٧-

آداب المعاشرة والتأكيد على الأخلاق الإسلامية

٨-

مراعاة الصحة في السفر

٩-

التعريف بقوانين الدولة المضيفة وضوابطها.

١٠-

توصيات وإرشادات وغيرها.

أرسلت الجمهورية الإسلامية الإيرانية في سنة ١٤٢٤ هـ نحو ستمائة ألف حاج و معتمر لأداء مراسم الحج والعمرة، وأمضوا في الحرمين الشريفين نحو خمسة عشر يوماً خلال العمرة، ونحو سبعة وعشرين يوماً خلال موسم الحج

و حينما يتسرفون بزيارة الحرمين الشريفين فإنهم يقعون تحت تأثير قوة الجذب المعنوي والروحي التي تثيرها فيهم مشاهد مكة والمدينة سيما في أيام التشريق وعرفات والمشعر ومنى والطواف والسعي وغيرها من المشاعر المقدسة. فلو فرضنا أن معدل عدد عائلة كل حاج هو أربعة، فإن كل حاج حينما يعود من المشاهد المقدسة بعد أن يتأثر بها وتحدث في وجوده تحولاً روحياً وأخلاقياً، يستطيع أن يؤثر أيضاً على أعضاء عائلته على الأقل، فينقل إليهم تأثيرات نفسه الروحية والأخلاقية بتلك المشاهد والديار المقدسة، وبهذا ينتفع من هذا الإشعاع الروحي والثقافي نحو مليونين وأربعمائة ألف إنسان في كل سنة وفقاً لمثالنا الذي ذكرناه، وهو أمر يستحق الاهتمام سيما في وقتنا الحاضر الذي يسعى فيه أعداء الإسلام إلى سلب الهوية الإسلامية من أبناء الإسلام، ويستخدمون شتى الوسائل المتقدمة لفرض ثقافتهم وقوانينهم ونماذجهم غير الإسلامية.

ولأجل توضيح الموضوع لابد من الإشارة إلى بعض الثمرات والنتائج المترتبة على الحج والوارد في الأحاديث والروايات المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام.

ص: ٦٩

بركات الحج

إذا أنجز الحاج حجه إلى بيت الله بشكل صحيح تُراعى فيه الآداب الخاصّة بالحجّ والمشاعر، وبعبارة أخرى إذا أدّى مشاعر الحجّ بشرطها وشروطها، فسوف تترتب عدّة آثار وثمرات مهمّة يستفيد منها الحاج في دنياه وآخرته، وفيما يلي نذكر بعضها:

١- غفران الذنوب:

إنّ الحاج حينما يؤدّي المناسك ويعيشها يشطب على ماضيه غير الصحيح بخطّ البطلان، ويمهد الطريق لحياة صحيحة يراعى فيها الدين ومبادئه الحقّة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَيُّ رَجُلٍ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَكُلَّمَا رَفَعَ قَدَمًا وَوَضَعَ قَدَمًا تَنَازَلَتْ الذُّنُوبُ مِنْ بَدَنِهِ كَمَا يَتَنَازَلُ الْوَرَقُ مِنَ الشَّجَرِ، فَإِذَا وَرَدَ الْمَدِينَةَ وَصَافَحَنِي بِالسَّلَامِ صَافَحَتُهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا وَرَدَ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَاغْتَسَلَ طَهَّرَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَإِذَا لَبَسَ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ» (١)

. وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«من حجّ يريد الله عزّ وجلّ ولا يريد به رياء ولا سمعة غفر الله له البتّة» (٢)

. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من حجّ البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمّه» (٣)

. ويقول أيضاً في حديث آخر:

«مَعَاشِرَ النَّاسِ، مَا وَقَفَ بِالْمَوْقِفِ مُؤْمِنٌ إِلَّا غَفَرَ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَى وَقْتِهِ ذَلِكَ فَإِذَا انْقَضَتْ حَجَّتُهُ اسْتُؤْنِفَ عَمَلُهُ» (٤)

. وممّا تقدّم نستنتج أنّ أداء الحجّ بشكله الصحيح الذي يقبله الله تعالى، يكون ثوابه غفران الذنوب والدخول في حياة جديدة ومنهج جديد.

١- الحجّ في الكتاب والسنة: ١٤٨ / ٣٢٥.

٢- وسائل الشيعة ١١: ١٠٩.

٣- الحجّ في الكتاب والسنة: ١٦٣ / ٣٩٢.

٤- سنن الدارقطني ٢: ٢٨٤.

ص: ٧٠

٢- دخول الجنة:

جعل تعالى ثواب الحج المبرور والمقبول دخول الجنة، ولعل السبب في ذلك هو أن صاحب البيت حينما يحلّ عليه أحد ضيفاً، يسعى إلى أن يُقرّيه بأحسن ما لديه من الغذاء وأن يوفّر له أحسن الامكانيات المتاحة لديه، والحاج هو ضيف الله القاصد بيته، وهو تعالى العفو الكريم الذي لا يخيب من دعاه ولا يردّ من رجاه، ونحن نخاطبه تعالى في الدعاء فنقول:

«يا أكرم الأكرمين»

. والجنة التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين والمحسنين، هي خير ما يحبو به ضيوف بيته، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة» (١).

٣- النورانية:

لا ريب أن كلّ إنسان يولد على الفطرة الخالصة، وحينما يكون طفلاً فإنّ قلبه يحفل بالنورانية البعيدة عن الكدورة، لكن بعد مرحلة البلوغ والاختلاط مع أفراد المجتمع قد يتلون بشكل تدريجي بأدران الذنوب وندس المعاصي، وأحياناً يتسافل إلى حدّ القسوة، فتغطّي الكدورة قلبه، ويفقد الأمل في إصلاحه ونجاته.

والحاج هو ضيف الله القاصد بيته، وهو تعالى العفو الكريم الذي لا يخيب من دعاه ولا يردّ من رجاه، ونحن نخاطبه تعالى في الدعاء فنقول: «يا أكرم الأكرمين»

لكن الأفراد الذين لم يبلغوا هذه المرحلة الخطيرة، وتوفّقوا لأداء فريضة الحج، يستطيعون أن يطهّروا نفوسهم ويغسلوا أرواحهم ببحر الحج الصافي الزلال، ويعودوا ثانية إلى الحياة وقد استعادوا فطرتهم الأولى واكتسبوا نورانية قلوبهم، تلك النورانية هي أجرهم من الله تعالى، ويمكنهم المحافظة عليها بالعمل وفق مبادئ الاسلام ومنهجه القويم، ومن الواضح أن اقتراف الذنوب يقلّل من

ص: ٧١

تلك النورانية، والاستمرار فيها يزيلها إلى الأبد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلّم بذنب» (١).

٤- الحصول على خير الدارين:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أراد الدنيا والآخرة فليؤم هذا البيت، فما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلا أعطاه الله منها، ولا يسأله آخرة إلا أذخر له منها» (٢). وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وآله لعثمان بن أبي العاص: «واعلم أن العمرة هي الحج الأصغر، وأن عمرة خير من الدنيا وما فيها، وحجّة خير من عمرة» (٣).

٥- طمأنينة القلب:

من فلسفة تشريع فريضة الحج إقامة ذكر الله تعالى، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله» (٤). وجاء في القرآن الكريم أن ذكر الله تعالى باعث على طمأنينة القلب «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٥). ومع النظر إلى هذه المقدمة وإلى ما قاله الإمام الباقر عليه السلام: «الحجّ تسكين القلوب» (٦) يتبين أن إحدى ثمرات الحجّ طمأنينة القلب، التي تعدّ من أهم ما يحتاجه أبناء البشرية في هذا اليوم.

٦- مجالسة النبيين والصالحين:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لما حجّ موسى عليه السلام نزل عليه جبرئيل فقال له موسى: يا جبرئيل، ما لمن حجّ هذا البيت بئته صادقة ونفقة طيبة؟ قال: فرجع إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه: قل له: أجمعه في الرفيق الأعلى»

١- الكافي ٤: ٢٥٥.

٢- مسند الإمام زيد: ١٩٧.

٣- المعجم الكبير للطبراني ٩: ٤٤.

٤- الحج في الكتاب والسنة: ١٣٣ / ٢٨٠.

٥- الرعد: ٢٨.

٦- بحار الأنوار ٧٥: ١٨٣.

ص: ٧٢

مع النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (١).

٧- الأمن من العذاب:

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«من دخل هذا البيت عارفاً بجميع ما أوجبه الله عليه، كان آمناً في الآخرة من العذاب الدائم» (٢).

. وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى:

«وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»

قال:

«من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله...» (٣).

. ويقول الإمام الصادق عليه السلام:

«... وعليكم بحج هذا البيت فأدمنوه، فإن في إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا عنكم، وأهوال يوم القيامة» (٤).

٨- علو الدرجات في الجنة:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الحاج في ضمان الله مقبلاً ومدبراً، فإن أصابه في سفره تعب أو نصب غفر الله له بذلك سيئاته، وكان له بكل قدم يرفعه ألف ألف درجة في الجنة، وبكل قطرة تصيبه من مطر أجر شهيد» (٥).

٩- استجابة الدعاء:

ومن ثمرات الحج استجابة الدعاء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَةٌ: دَعَاءُ الْحَاجِّ فِي تَخَلُّفِ أَهْلِهِ، وَدَعَاءُ الْمَرِيضِ فَلَا تُؤْذُوهُ وَلَا تُضْجِرُوهُ، وَدَعَاءُ الْمَظْلُومِ» (٦).

. وقال في حديث آخر:

«الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَقَدْ لَلَّهِ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَلَّوْهُ فَأَعْطَاهُمْ» (٧).

١- من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٣٥.

٢- عوالي اللآلي ٢: ٨٤ / ٢٧٧.

٣- الكافي ٤: ٢٢٦، والآية من سورة آل عمران: ٩٦.

٤- أمالي الطوسي: ٦٦٨.

٥- كنز العمال ح ١١٨١٢ و ١١٨٤٠.

٦- الحج في الكتاب والسنة: ١٦٢ / ٣٨٦.

٧- نفس المصدر، ح ٣٨٧.



ص: ٧٣

١٠- نفى الفقر:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«حُجُّوا لَنْ تَفْتَقِرُوا» (١)

. وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ... وَحِجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْخِضَانِ الذَّنْبَ» (٢).

١١- سلامة الأبدان:

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام:

«حُجُّوا وَاعْتَمَرُوا تَصَحَّ أَبْدَانُكُمْ وَتَتَّسِعَ أَرْزَاقُكُمْ وَتَكْفُونَ مَثُورَاتِ عِيَالِكُمْ...» (٣).

١٢- الوقاية من الهلاك والعذاب:

عن الصادق عليه السلام قال:

«كَانَ فِي وَصِيَّتِهِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَدْعُوا حِجَّ بَيْتِ رَبِّكُمْ فَتَهْلِكُوا» (٤)

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لَوْ تَرَكْتُ النَّاسَ الْحِجَّ لَمَا نَوَظَرُوا الْعَذَابَ»

أو قال:

«أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ» (٥)

. إِنَّ مَكَّةَ هِيَ عَاصِمَةُ الثَّقَافَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ قَوِيَّةٌ وَمَحْكَمَةٌ لَتَطْهِيرِ الرُّوحِ وَسَمَوِّ الْأَخْلَاقِ، فَإِذَا أَحْسَنَّا الِاسْتِفَادَةَ مِنْ هَذِهِ

١- نفس المصدر، ح ٣٩٨.

٢- نفس المصدر، ح ٤٠٢.

٣- الكافي ٤: ٢٥٢.

٤- المحاسن: ١: ١٧٠.

٥- الكافي ٤: ٢٧١.

ص: ٧٤

الفريضة العظيمة أمكننا بلوغ الأهداف المذكورة بكل يسر

ومما تقدّم ذكره وما يستفاد من الروايات المتعلقة بفلسفة الحجّ وأسرار أعماله المختلفة، مثل: التوبة قبل السفر، ودفع الحقوق المائيّة، وتطهير الأموال، وتحصيل الإخلاص وإنجاز الأعمال لله، والتزوّد من أطيب الزاد، وإعانة الأصحاب، والاحتراز من العجلة، ومراعاة المرضى، واحترام الكبار، وحسن الخلق مع الصاحب في السفر، وعدم الإساءة إلى الآخرين، والتصدّق، وقراءة الدعاء عند الخروج من المنزل وعلى طول السفر وغيره... نستخلص أنّ الحجّ أحد القواعد المهمّة في تغيير الذات وإحداث التحوّل الروحي والأخلاقي للفرد المسلم، وأنّ مناسك الحجّ هي في الحقيقة مناسك الحياة الإسلاميّة الصحيحة، ففي الحجّ تتمثّل الحياة الدنيا والآخرة جنباً إلى جنب، فهو تربية وتهذيب للنفس، وتربية اجتماعية وسياسيّة، وهو باعث للشعور بالأخوة، وتعلّم النظم والترتيب، وهو مجمع لتوحيد الآراء والقلوب في مجالات متعدّدة، وهو محور للقرب من الخالق والزلفى لديه تعالى، ولكلّ ذلك وغيره جعل الله تعالى الحجّ مركزاً لاجتماع المسلمين:

«لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ...»

. ومن مجمل ما ذكرناه يمكن القول: إنّ مكّة هي عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي، وهي قاعدة قويّة ومحكمة لتطهير الروح وسموّ الأخلاق، فإذا أحسنّا الاستفادة من هذه الفريضة العظيمة أمكننا بلوغ الأهداف المذكورة بكل يسر.

أخيراً، ولأجل حسن الختام لهذا المقال المتواضع، أذكر حديثين للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهم السلام والإمام جعفر بن محمد الصادق عليهم السلام يبيّنان طريق وأسلوب الحجّ الصحيح، أو الحجّ المبرور، راجياً من الله العزيز أن يوفّق الجميع للاستفادة من هذه الفريضة المعنوية الإلهيّة على النحو الأحسن والأفضل.

ص: ٧٥

١- قال الإمام زين العابدين عليه السلام حينما التقى الشبلى بعد أداء مشاعر الحج:

حَجَجْتَ يَا شَبْلِي؟

قَالَ: نَعَمْ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أُنْزِلْتَ الْمِيقَاتِ وَتَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِيطِ الثِّيَابِ وَاعْتَسَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِينَ نَزَلْتَ الْمِيقَاتِ نَوَيْتَ أَنَّكَ خَلَعْتَ ثَوْبَ الْمَعْصِيَةِ وَلَبِسْتَ ثَوْبَ الطَّاعَةِ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ تَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِيطِ ثِيَابِكَ نَوَيْتَ أَنَّكَ تَجَرَّدْتَ مِنَ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ وَالدُّخُولِ فِي الشُّبُهَاتِ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ اعْتَسَلْتَ نَوَيْتَ أَنَّكَ اعْتَسَلْتَ مِنَ الْخَطَايَا وَالدُّنُوبِ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَمَا نَزَلْتَ الْمِيقَاتِ وَلَا تَجَرَّدْتَ عَنْ مَخِيطِ الثِّيَابِ وَلَا اعْتَسَلْتَ،

ثُمَّ قَالَ: تَنْظَفْتَ وَأَحْرَمْتَ وَعَقَدْتَ بِالْحَجِّ، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِينَ تَنْظَفْتَ وَأَحْرَمْتَ وَعَقَدْتَ الْحَجَّ نَوَيْتَ أَنَّكَ تَنْظَفْتَ بِثَوْرَةِ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ أَحْرَمْتَ نَوَيْتَ أَنَّكَ حَرَمْتَ عَلَى نَفْسِكَ كُلَّ مُحَرَّمٍ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ عَقَدْتَ الْحَجَّ نَوَيْتَ أَنَّكَ قَدْ حَلَلْتَ كُلَّ عَقْدٍ لِعِزِّ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا،

قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا تَنْظَفْتَ وَلَا أَحْرَمْتَ وَلَا عَقَدْتَ الْحَجَّ،

قَالَ لَهُ: أَدْخَلْتَ الْمِيقَاتِ وَصَلَّيْتَ رُكْعَتِي الْإِحْرَامِ وَلَبَّيْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَحِينَ دَخَلْتَ الْمِيقَاتِ نَوَيْتَ أَنَّكَ بَيْتَهُ الزِّيَارَةَ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ صَلَّيْتَ الرُّكْعَتَيْنِ نَوَيْتَ أَنَّكَ تَقَرَّبْتَ إِلَى اللَّهِ بِخَيْرِ الْأَعْمَالِ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَكْبَرِ حَسَنَاتِ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَحِينَ لَبَّيْتَ نَوَيْتَ أَنَّكَ نَطَقْتَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِكُلِّ طَاعَةٍ وَصُمْتَ عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا دَخَلْتَ الْمِيقَاتِ وَلَا صَلَّيْتَ وَلَا لَبَّيْتَ.

ص: ٧٦

ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْخَلْتَ الْحَرَمَ وَرَأَيْتَ الْكَعْبَةَ وَصَلَّيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.
 قَال: فَحِينَ دَخَلْتَ الْحَرَمَ نَوَيْتَ أَنَّكَ حَرَّمْتَ عَلَى نَفْسِكَ كُلَّ غِيَةٍ تَسْتَعِيبُهَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: لَا.
 قَال: فَحِينَ وَصَلْتَ مَكَّةَ نَوَيْتَ بِقَلْبِكَ أَنَّكَ قَصَدْتَ اللَّهَ؟ قَالَ: لَا.
 قَال عَلَيْهِ السَّلَام: فَمَا دَخَلْتَ الْحَرَمَ وَلَا رَأَيْتَ الْكَعْبَةَ وَلَا صَلَّيْتَ.
 ثُمَّ قَالَ: طُفْتَ بِالْبَيْتِ وَمَسَسْتَ الْأَرْكَانَ وَسَعَيْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ.
 قَال عَلَيْهِ السَّلَام: فَحِينَ سَعَيْتَ نَوَيْتَ أَنَّكَ هَرَبْتَ إِلَى اللَّهِ، وَعَرَفَ مِنْكَ ذَلِكَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ؟ قَالَ: لَا.
 قَال: فَمَا طُفْتَ بِالْبَيْتِ وَلَا مَسَسْتَ الْأَرْكَانَ وَلَا سَعَيْتَ.
 ثُمَّ قَالَ لَهُ: صَافَحْتَ الْحَجَرَ وَقَفْتَ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَصَلَّيْتَ بِهِ رَكْعَتَيْنِ؟
 قَال: نَعَمْ، فَصَاحَ عَلَيْهِ السَّلَام صَيْحَهُ كَادَ يَفَارِقُ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ:

آه آه

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: مَنْ صَافَحَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ فَقَدْ صَافَحَ اللَّهَ تَعَالَى، فَانْظُرْ يَا مَسْكِينُ لَا تُضَيِّعْ أَجْرَ مَا عَظُمَ حُرْمَتُهُ، وَتَنْقُضَ الْمُصَافِحَةَ،
 بِالْمُخَالَفَةِ، وَقَبْضِ الْحَرَامِ نَظِيرِ أَهْلِ الْأَثَامِ.
 ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: نَوَيْتَ حِينَ وَقَفْتَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّكَ وَقَفْتَ عَلَى كُلِّ طَاعَةٍ وَتَخَلَّفْتَ عَنْ كُلِّ مَعْصِيَةٍ؟ قَالَ: لَا.
 قَال: فَحِينَ صَلَّيْتَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ نَوَيْتَ أَنَّكَ صَلَّيْتَ بِصَلَاةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَأَرْغَمْتَ بِصَلَاتِكَ أَنْفَ الشَّيْطَانِ؟ قَالَ: لَا.
 قَال لَهُ: فَمَا صَافَحْتَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَلَا وَقَفْتَ عِنْدَ الْمَقَامِ وَلَا صَلَّيْتَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ.
 ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَهُ: أَشْرَفْتَ عَلَى بئرِ زَمْزَمَ وَشَرِبْتَ مِنْ مَائِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ.
 قَال: نَوَيْتَ أَنَّكَ أَشْرَفْتَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَظُمْتَ طَرَفَكَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ؟
 قَال: لَا.

ص: ٧٧

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَا أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا وَلَا شَرِبَتْ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَسَعَيْتَ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ وَمَشَيْتَ وَتَرَدَّدْتَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ لَهُ: نَوَيْتَ أَنَّكَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ؟ قَالَ: لَا.

قَالَ: فَمَا سَعَيْتَ وَلَا مَشَيْتَ وَلَا تَرَدَّدْتَ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ...

فَطَفِقَ الشُّبْلِيُّ يَبْكِي عَلَى مَا فَرَّطَهُ فِي حُجَّهِ، وَمَا زَالَ يَتَعَلَّمُ حَتَّى حَجَّ مِنْ قَابِلٍ بِمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ (١)

٢- قال الصادق عليه السلام:

«إِذَا أَرَدْتَ الْحِجَّ فَجَرِّدْ قَلْبَكَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ وَحِجَابٍ وَفَوِّضْ أُمُورَكَ إِلَى خَالِقِهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ، وَسَلِّمْ لِقَضَائِهِ وَحُكْمِهِ وَقَدَرِهِ، وَدَعْ الدُّنْيَا وَالرَّاحَةَ وَالْخَلْقَ وَاخْرُجْ مِنْ حُقُوقِ تَلَزُّمِكَ مِنْ جِهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى زَادِكَ وَرَاحِلَتِكَ وَأَصِيحَابِكَ وَقُوتِكَ وَشَبَابِكَ وَمَالِكَ مَخَافَةً أَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ عَدُوًّا وَوَبَالًا، فَإِنَّ مَنْ ادَّعَى رِضَى اللَّهِ وَاعْتَمَدَ عَلَى مَا سِوَاهُ صَيَّرَهُ عَلَيْهِ وَبَالًا وَعَدُوًّا لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا حِيلَةٌ وَلَا لَأَحَدٍ إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَاسْتَعِدَّ اسْتِعْدَادَ مَنْ لَا يَرْجُو الرُّجُوعَ وَأَحْسِنِ الصُّحْبَةَ وَرَاعِ أَوْقَاتَ فَرَائِضِ اللَّهِ وَسَيِّئِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَا يَجِبُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَدَبِ وَالِاحْتِمَالِ وَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالشَّفَقَةِ وَالسَّخَاوَةِ وَإِشَارِ الزَّادِ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، ثُمَّ اغْسِلْ بِمَاءِ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ ذُنُوبَكَ، وَالْبَسْ كِسْوَةَ الصِّدْقِ وَالصِّفَا وَالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ، وَأَحْرِمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَمْنَعُكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَحْجُبُكَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَبَّ بِمَعْنَى إِجَابَةِ صَادِقَةٍ صَافِيَةٍ خَالِصَةٍ زَاكِئَةٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي دَعْوَتِكَ مُتَمَسِّكًا بِالْعَزْوَةِ الْوُثْقَى، وَطُفْ بِقَلْبِكَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ كَطَوَافِكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِنَفْسِكَ حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهَزُولَ هَرَبًا مِنْ هَوَاكَ وَتَبَرُّا مِنْ حَوْلِكَ وَقُوتِكَ وَاخْرُجْ مِنْ

ص: ٧٨

عَفَلَيْكَ وَزَلَّاتِكَ بِخُرُوجِكَ إِلَى مِنَى، وَلَا تَتَمَنَّ مَا لَا يَحِلُّ لَكَ وَلَا تَسْتَحِقُّهُ، وَاعْتَرِفْ بِالْخَطَايَا بِعَرَفَاتٍ، وَحَدِّدْ عَهْدَكَ عِنْدَ اللَّهِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ وَاتَّقِهِ بِمُزْدَلِفَةٍ، وَاصْبِرْ بِرُوحِكَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِصِيْعُودِكَ إِلَى الْجَبَلِ، وَادْبِغْ حَنْجَرَةَ الْهَوَى وَالطَّمَعِ عَنْكَ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ، وَارْمِ الشَّهَوَاتِ وَالْخَسَاسَةَ وَالْدَنَاءَةَ وَالذَّمِيمَةَ عِنْدَ رَمَى الْجِمَارِ، وَاخْلُقِ الْعُيُوبَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ بِحَلْقِ شَعْرِكَ، وَادْخُلْ فِي أَمَانِ اللَّهِ وَكَفَنِهِ وَسِتْرِهِ وَكِلَاءَتِهِ مِنْ مُتَابِعِيهِ مُرَادِكَ بِدُخُولِ الْحَرَمِ وَدُخُولِ الْبَيْتِ مُتَحَقِّقًا لِتَعْظِيمِ صَاحِبِهِ وَمَعْرِفَةِ جَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَاسْتَلِمِ الْحَجَرَ رَضَى بِقِسْمَتِهِ وَخُضُوعًا لِعِزَّتِهِ، وَدَعِ مَا سِوَاهُ بِطَوَافِ الْوُدَاعِ، وَأَصْفِ رُوحَكَ وَسِرَّكَ لِلْقَائِهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ بِوُقُوفِكَ عَلَى الصُّفَا، وَكُنْ بِمَرَأَى مِنَ اللَّهِ نَفِيًّا عِنْدَ الْمَرْوَةِ، وَاسْتَقِمْ عَلَى شَرِطِ حَجَّتِكَ هَذِهِ وَوَفَاءِ عَهْدِكَ الَّذِي عُوْهِدْتَ بِهِ مَعَ رَبِّكَ وَأَوْجِبَتْ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ الْحَجَّ وَلَمْ يَخْصُصْهُ مِنْ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» وَلَا شَرَعَ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سُنَّةً فِي خِلَالِ الْمَنَاسِكِ عَلَى تَرْتِيبِ مَا شَرَعَهُ إِلَّا لِلِاسْتِعْدَادِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ وَالْبُعْثِ وَالْقِيَامَةِ وَفَضْلِ بَيَانِ السَّبْقِ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ أَهْلُهَا وَدُخُولِ النَّارِ أَهْلُهَا بِمُشَاهِدَةِ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَأُولَى النَّهْيِ» (١).

فلسفة الحج موقعاً وعبادةً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

إشارة

محسن الأسدي

الحج فريضة سماوية مباركة، وتكليف إلهي عظيم، وركن عبادي متين، وضيافة للتائبين، وفرصة للمذنبين، وتذكير للغافلين، ودعوة مفتوحة مباركة لهم ولغيرهم من الناس أجمعين، ومؤتمر إسلامي مهم، وتجمع إيماني مهيب، وحشد اقتصادي تجاري كبير، ومدرسة تعارفية اجتماعية ثقافية كبرى، تتسم بمعان عالية وقيم شامخة ومبادئ رفيعة، وهي بالتالي مدرسة ميدانية واسعة واعدة واعية، ضمت شعوباً وقبائل وفدت إليها من كل حذب وصوب، وقد قيضت لها السماء مكاناً واحداً، موسماً واحداً، هدفاً واحداً، منسكاً واحداً، نراهم ينتظمون لأداء مفاصله المتعددة، ويتسابقون إلى إحراز مغفرة من الله ورضوان، وإذا ما نظرنا إليها وجدناها مجموعاً من شتى البقاع والأجناس والألوان رجالاً ونساءً شبيهاً وشباناً، محتشدة كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، وقد ذاب كل ما يميزهم من حطام الدنيا ومعالمها، ومن حب الذات وعناوينها، ويترك هذا التجمع العظيم الرائد المهيب في قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفي نفوس وقلوب أبنائه سكينه وطمأنينه وثقة وقوة وعزة... وحتى يتحقق هذا والكثير غيره، فقد حظيت فريضة الحج بأهمية بالغة ومكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية سواء أكانت تلك الأهمية وهذه المكانة في أحكامها أم في مناسكها أم في أهدافها ومقاصدها. وكل

ص: ٨٠

هذا يدل على رعاية الشريعة لها وتأكيدها الدائم على استمرارها وإقامتها بشكل يتناسب مع روحها وجوهرها ومع الحكمة من وراء تشريعها. ولذا ينبغي لنا بل يجب علينا ونحن نؤدي هذا الفرض المبارك أن نعي معانيه و أهدافه ونعي مسؤولياتنا إزاءه، ويجب علينا أن نتعرف على ما يترتب على أداء مناسك الحج من التزامات سواء أكانت التزامات روحية أم أخلاقية، اجتماعية أم سياسية، وسواء أكانت مردوداتها لنفس الشخص الحاج أم للآخرين، وسواء أكانت ثمارها لمجتمع الحج وحده الذي شارك في أداء مناسكه أم للمجتمعات الأخرى، وعلينا أن لا نكتفي بمعرفة أحكام الحج الفقهية وكيفية أداء مناسكه وفق تلك الأحكام، وهو وإن كان أمراً مهماً وضرورياً، إلّا أن الاكتفاء به دون معرفة ودون إلمام بما ترمي إليه وبما تتبغيه هذه الفريضة يعد نقصاً صارخاً في التفاعل معها روحاً وأهدافاً ومقاصد، وفشلاً واضحاً يلحقنا في الاستفادة من خياراتها والاستزادة من بركاتها.

ويترك هذا التجمع العظيم الرائد المهيّب في قلوب الآخرين مهابة وإعجاباً... وفي نفوس وقلوب أبنائه سكينه وطمأنينة وثقة وقوة وعزة...

وإذا ما تمت هذه المعرفة وتعمقت آثارها في النفوس وتجذرت ثمارها في السلوك، فسيجسد هذا الركن القويم من الشريعة الإيمان في سلوكنا عبادةً وعملاً وسلوكاً وقولاً، وسيصبح صورة رائعة من صور الجمال المعنوي والروحي ينبغي أن لا تفوتنا وأن لا نخسرها، وميداناً للكسب والجهاد، ينبغي أن تلاحق الحاج في أيامه وهو يؤدي هذه الفريضة، وفي أيامه التالية وهو يعيش حياته بين أهله وأحبائه، وهو يعيش مع أبناء مجتمعه الآخرين في عيشه وكسبه وأنشطته المتعددة هنا وهناك.

إذن كم هو عظيم موسم الحج! فقد غدا هذا الموسم - ومنذ أن دوى أذان

ص: ٨١

نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام »

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١﴾

- غدا موسماً عبادياً ما أعظم بركاته على تربيته

النفوس و تزكية الأرواح! وموسماً تجارياً ما أعظم منافعه التي يدرها على المسلمين عامة والحجاج خاصة! ما أعظمه من موسم بأيامه المعلومات امتزجت فيه العبادة والتجارة، فهي منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة حقاً »

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ... ﴿٢﴾

! وكم هي جميلة تلك العبادة التي

تلاحق آثارها الإنسان وتترك بصماتها عليه! حقاً إنها ولادة جديدة وحياء أخرى غير تلك التي عاشها إن استطاع أن يحيا معاني الحج و يقتطف ثماره...

كل هذا وغيره هو ما نراه مجسداً في خطب وأحاديث وأدعية أئمة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وفي رؤاهم لمفاهيم هذه الفريضة ولحكمها وأهدافها، وفيما كتبه علماؤها وفقهاؤها، مكتفين من ذلك كله- وهو الكثير الذي ضمته مجلدات عديدة- بما يسمح به مجال هذه المقالة.

١- سورة الحج: ٢٧.

٢- سورة الحج: ٢٨.

ص: ٨٢

إننا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكاني ومحورها العبادي بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافي معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها... وبكل ما يحمله الثاني من مفاهيم عالية، ومضامين رفيعة، وقيم نادرة... وبكل ما يحمله من ابتلاء شديد وامتحان أشد، وفرصة للمغفرة والرحمة ما أعظمها! ومناسبة لنيل رضا الله ما أوسعها! عبر أيام قدرت لها السماء:

* أن تكون معدودات »

واذكروا الله في أيام معدودات» (١)

وهي أيام

التشريق، اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة.

يقول السيد الطباطبائي في ميزانه: والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذي الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أيام الحج، والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: »

فمن تعجل في يومين...»

، فإن التعجيل في يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة: يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهي ثلاثة، وقد فسرت في الروايات بذلك أيضاً (٢).

إننا هنا بصدد الحديث عما تراه وتتبناه مدرسة أهل البيت عليهم السلام من نظرات وآراء ومواقف تتعلق بفريضة الحج من حيث ظرفها المكاني ومحورها العبادي بكل ما يحمله الأول من موقع جغرافي معروف بوعورة الأرض وصعوبتها وقسوة الطبيعة وشدتها... وبكل ما يحمله الثاني من مفاهيم عالية، ومضامين رفيعة

* وأن تكون معلومات »

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ» (٣)

. وقد

اختلفت الروايات في المراد منها كما اختلفت في الأيام المعدودات أيضاً، ولكننا نكتفي بما ذكره العلامة في تفسيره الميزان.

يقول العلامة: وفي هذا المعنى روايات أخر عن الباقر والصادق عليهما السلام، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هي أيام التشريق». وهناك ما يعارضها، كما يدل على أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة، والمعدودات أيام التشريق. وينتهي إلى أن الآية أشد ملائمة لما يدل على أن المراد بالمعلومات أيام التشريق (٤). إذن فالأيام المعدودات و الأيام المعلومات عند العلامة هي أيام التشريق (٥) (٥).

وهذه الأيام المعدودات أو المعلومات هي بالتالي أيام الله تعالى، كما سماها أمير المؤمنين على عليه السلام، وهو ما جاء في كتابه إلى عامله على مكة قثم بن العباس:

«أما بعد... فأقم للناس الحج، وذكركم بأيام الله...» (٦).

تعد هذه المدرسة مدرسة الإسلام الأولى علماً ومعرفةً بدين الله تعالى وأحكامه ومعارفه ومقاصده... فقد راحت - مع عظيم مسؤولياتها وانشغالها في مكافحة الأفكار المنحرفة الوافدة من هنا وهناك، وخطورة ما تعرضت له من ظلم وتعسف ومؤامرات حكام الجور والسائرين بركابهم، لإبعادها عن خطها ومنهجها الذي اختطته لها السماء - راحت ترعى هذه الفريضة وتتبناها، وتوضح معانيها ومقاصدها وأهدافها وحكمها بوعي كامل وحرص أكيد على استمرارها حيةً فاعلةً مؤثرةً، لهذا لم يترك أئمة هذه المدرسة الحج وهو يؤدي محتفظاً بإطاره الشكلي، الذي يكتفي به البسطاء من الناس، والذين قلّت معرفتهم بأهدافه ومقاصده قصوراً منهم أو تقصيراً، و

الذى يركن إليه المنحرفون من حكام ومن مستفيدين ويشجعون عليه بل ويثقفون الرعية عليه، بعيداً عن روحه ومنهجه الذى انطلق مع أول نداء وجهه الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، يدعو الناس فيه إلى الحج: «
وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ

١- سورة البقرة: ٢٠٣.

٢- راجع تفسير الميزان ٢: ٨٣.

٣- سورة الحج: ٢٨.

٤- الميزان ١٤: ٣٧٩.

٥- أنظر تفسيره للآيتين: ٢٠٣ من سورة البقرة و ٢٨ من سورة الحج.

٦- نهج البلاغة، الكتاب رقم ٦٧.

ص: ٨٤

عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ»

، وغدا وجوبه من ضروريات الإسلام بنص الآية الكريمة: «

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (١)

وفى تأكيد وجوبه

والتحذير من عواقب تركه، جاء في الخبر النبوي بطريق أهل البيت عليهم السلام فيمن وجب عليه الحج ولم يحج:

«فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» (٢)

ويقول

رسول الله صلى الله عليه و آله مخاطباً الإمام علياً عليه السلام:

«يا علي تارك الحج وهو مستطيع كافر»

، ويستدل بالآية الكريمة لتأكيد ذلك: «

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»

، ولم يكتف بهذا، بل واصل خطابه قائلاً:

«يا علي من سوف الحج حتى يموت، بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً» (٣)

. أما الإمام زين العابدين عليه السلام وهو المعروف بكثرة حجه بيت الله الحرام، فقد راح يبين أثر هذه الفريضة المباشر على الإيمان،

فكان يوصي أصحابه بقوله:

«حجوا واعتمروا... يصلح إيمانكم» (٤)

. إن هذا التشديد على أداء هذه الفريضة والترغيب فيها، وهذا النكير على من تعمد تركها، أدله واضحة على أهميتها وعلو مكانتها

وقدسيتها، فهي تتوفر على جميع العبادات الأخرى، وهناك مصالح وغايات عالية المضامين تترتب على أدائها في بناء شخصية الإنسان

المؤمن نفسه وتكامل إيمانه ورقيه في سلم التقوى، التي هي أساس كل شيء، وما يترتب على ذلك من كون الإنسان المؤمن شخصية

مطلوبة لله سبحانه وتعالى، يمكن أن تؤدي دورها المرسوم لها في الحياة الدنيا، ويتجلى هذا الدور في كونه خليفة الله تعالى في أرضه

بكل ما تعنيه هذه الخلافة من

١- آل عمران: ٩٧.

٢- التهذيب ٥: ١٦١٠ / ٤٦٢.

٣- وسائل الشيعة ٨: ٢١.

٤- وسائل الشيعة ٨: ٢١.

ص: ٨٥

دور إيجابى وعمل فاعل مغير فى واقع الحياة على جميع أصعدتها الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية... فالهدف الأسمى للشرائع السماوية عامة والشريعة الإسلامية خاصة هو خلق إنسان اجتماعى مؤمن ملتزم يألف الآخرين ويتآلف معهم، يودهم ويودونه يحبهم ويحبونه، مبشراً بالخير منذراً الذين فى قلوبهم مرض، فىكون بذلك مثلاً طيباً ونموذجاً رائعاً لما تريده السماء وتهدف إليه، ويكون جديراً بتحمل أعباء الأمانة ومسؤوليات الخلافة، التى أعدته السماء لها ويحسن أداءها والحفاظ عليها..

فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التى أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبرى فى الحياة

من هنا، راحت جهود أئمة هذه المدرسة تنصب على تحريك مضامينه ومقاصده هذه- والأخرى غيرها- فى الأئمة، فضلاً عن توضيح أحكامه عبر مواقفهم ونصوصهم الكثيرة جداً، فهناك الأحاديث المنقولة بطرق مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام، التى أضافت عنصراً عظيماً لهذه الفريضة، حيث جعلتها ميداناً تدريبياً تربوياً، لخوض الميادين الكبرى فى الحياة، فى العبادة وفى الكدح والجهاد، والتى منها جهاد النفس، بل جعلته الجهاد بعينه، أو ساوت بينه وبين الجهاد القتالى دفاعاً عن الإسلام وبيضته.

ومن تلك الأحاديث ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«نعم الجهاد الحج»

. «الغازى فى سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله دعاهم

». وعن الإمام على عليه السلام أنه قال:

«والصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد كل ضعيف» (١)

. «الحج جهاد الضعفاء» (٢)

. «الحج جهاد»

. وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من اتخذ محملاً

١- نهج البلاغة: ١٣٦، الحكم.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٩.

ص: ٨٦

للحج كان كمن ارتبط فرساً في سبيل الله»

. فالذي لا- يقوى على الجهاد يكون الحج جهاده عوضاً له عن ذلك الجهاد الذي ينوء به، لضعف اعتراه، أو لمانع يقف حائلاً دون خوضه وأدائه، والذي لا- تصبر أو تتصابر نفسه على تحمل أعباء الجهاد ومستلزماته وهو أعظم درجة عند الله، فإن الحج له دورة تمهيدية تدريبية على تعويد النفس وتدريبها على التحمل والصبر والمثابرة والبذل والعطاء...

وهناك أحاديث أخرى راحت تميز بين حجين: حج يراد به وجه الله تعالى وبالتالي الفوز برضاه وأجره وثوابه، وحج آخر بعيد عن حكمه تشريع الحج وأهدافه، التي أولها وأهمها وأساسها أن يؤدي قرباً إلى الله سبحانه وتعالى بكامل ما تعنيه هذه القربة من التزامات وواجبات... يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«الحج حجان: حج لله. وحج للناس. فمن حج لله، كان ثوابه على الله الجنة، ومن حج للناس، كان ثوابه على الناس يوم القيامة» (١)
فالحج بذاته يجب أن تتحقق رسالته الإنسانية في حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره في وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالى، وإخلاصنا وقد فرقت مدرسة أهل البيت بين حجين آخرين أيضاً: الحج الهدف. والحج الوسيلة، فعن عبد الرحمن بن كثير أنه قال: «حججت مع أبي عبد الله عليه السلام، فلما

ص: ٨٧

صرنا في بعض الطريق، صعد على جبل فأشرف فنظر إلى الناس فقال: ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج» (١). إنها فئة كثيرة، ولكن ليس لها من حجها إلا الصباح

والصراخ والتعب والتراحم. فالأعداد الكثيرة والحشود الكبيرة والتدافع والضجيج والصراخ شيء، والفئة القليلة الواعية المتمتعة ألسنتها الصادقة بالدعاء، والمليئة تلبية نابعة من سلامة القلوب وإخلاص النوايا شيء آخر، فأولئك هم الخاسرون، وهؤلاء هم الفائزون قال تعالى: «

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ»

. فالحج بذاته يجب أن يتحقق رسالته الإنسانية في حياتنا. ويجب أن يتحقق دوره في وجودنا بصدق توكلنا عليه تعالى، وإخلاصنا ونحن نؤدي مناسكه ونرتل قرآنه ونقرأ دعاءه، وهكذا العبادات الأخرى، فهي والحج وسائل و دورات تدريبيه، الهدف منها بناء الشخصية الإيمانية وتكاملها.

وقد ورد في هذا الكثير من الروايات عن هذه المدرسة بدءاً برسول الله صلى الله عليه وآله، فعن النبي صلى الله عليه وآله بطريق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال:

«من حج هذا البيت بنية صادقة، جعله الله تعالى من الرفيق الأعلى من النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً» (٢).

وعن النبي صلى الله عليه وآله بالطريق نفسه:

«الحججة ثوابها الجنة، والعمرة كفارة كل ذنب» (٣).

. وعن النبي صلى الله عليه وآله:

«إنك إذا توجهت إلى سبيل الحج، ثم ركبت راحلتك وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم ومضت بك الراحلة، لم تضع راحلتك خفاً ولم ترفع خفاً إلا- كتب الله لك بكل خطوة حسنة، ومحا عنك سيئة، فإذا أحرمت وليت، كتب الله لك بكل تلبية عشر حسنات، ومحا عنك عشر سيئات، فإذا طفت أسبوعاً كان لك بذلك عند الله عهد وذكر يستحي أن يعذبك بعده، فإذا صليت ركعتين عند المقام كتب الله لك بهما ألف ركعة مقبولة، وإذا سعت بين الصفا والمروة سبعة أشواط كان لك عند الله عز وجل مثل أجر من حج ماشياً من بلاده ومثل أجر من أعتق سبعين رقبة مؤمنة، وإذا وقفت بعرفات إلى غروب الشمس فلو كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج وزبد البحر لغفرها الله لك. فإذا رميت الجمار كتب الله لك بكل حصاة عشر حسنات. فإذا ذبحت هديك كتب الله لك بكل قطرة من دمها حسنة. فإذا طفت بالبيت أسبوعاً للزيارة، وصليت عند المقام ركعتين، ضرب ملك كريم بين كتفيك: أما ما مضى فقد غفر لك، فاستأنف العمل فيما بينك وبين عشرين ومائة

١- بحار الأنوار ٣٠: ١٨١.

٢- بحار الأنوار ٣٠: ١٨١.

٣- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٦.

ص: ٨٨

يوم» (١)

. وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا أردت الحج، فجرد قلبك من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب حاجب، وفوض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في

جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحه» (٢)

. والحوار الذي دار بين الإمام زين العابدين عليه السلام والشبلي مليئ بأسرار هذه الفريضة المباركة، وبعلو مضامينها، ودور كل من

النية الصادقة والجهد المخلص الدؤوب والتفكير الواعي العارف في اكتساب مقاصدها الرفيعة في كل منسك وفي كل موقف تتضمنه

هذه الفريضة المباركة. ومن أراد الاطلاع على هذا الحوار القيم بتفاصيله الواضحة، فما عليه إلا الرجوع إلى ما كتبه أخونا الأستاذ

سماعة الشيخ محمد على المقدادی في العدد الرابع من هذه المجلة (مقات الحج)، الصفحة ٨٩-٨١.

كما راحت هذه المدرسة تؤكد مضامين الحج وما يتوفر عليه من معان جميلة وآداب جليئة وقيم رفيعة، ينبغي للحجيج بل يجب عليهم

التحلي بها والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك متحرك وفاعل في حياتهم الفردية والاجتماعية، وتستنكر على أولئك الذين انحصر

همهم بشكل الحج دون الاهتمام بمحتواه، وإطار الحج دون رعاية مضامينه، ودون التأثير بآثاره والتقيد بأحكامه، وتغيير مسيرة حياتهم

على ضوء أهداف هذه الفريضة المباركة. يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«لئن أعول أهل بيت من المسلمين أشبع جوعتهم وأكسو عريهم وأكف جوههم عن الناس، أحب إلي من أن أحج حجة وحجة

وحجة حتى انتهى إلى عشرة ومثلها حتى انتهى إلى

١- من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٢٠.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٣.

ص: ٨٩

سبعين» (١)

. إنَّه الوعي الأكمل للعبادة ومفاهيمها العالية، وإنَّه الإحساس

الأعمق بالآلام الآخريين والاهتمام الأمثل بشؤونهم، وإنَّه التربية الأخلاقية الرفيعة للعبادات ومنها تكليف الحج، التي تؤكدها هذه المدرسة الطاهرة بخلق إنسان اجتماعي عبر أدائه لمناسك الحج، يكون همه الإحسان للناس واللطف بهم بتفقد حاجاتهم وقضائهم أو على الأقل السعي لقضائهم، وإشباع ضرورياتهم وإغاثة ملهوفهم وحفظ حرمتهم وكرامتهم ومصالحهم... وإلا ما فائدة العبادة إن كانت لا تتعدى أنشطة تؤدي وفعاليات رتيبة اعتدنا على فعلها، ولا تتجاوزها إلى سلوك عملي نافع، و فعل اجتماعي طيب مؤثر، وإلى فضيلة متحركة مغيرة، وإلى أمر بمعروف ونهي عن منكر؟!!

الإمتحان أرضاً وبناءً

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة الله تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا- أنه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين، راحت تعد له السماء- ولحكمته بالغة قد لا تدرك العقول جل مقاصدها وإن جهدت- موضعاً وصفته الآية الكريمة »

بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ

، ووصفه أمير المؤمنين على عليه السلام بهذا النص الرائع:

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم- صلوات الله عليه

إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الذي جعله للناس قياماً.

هذا وصف للبناء وما يتكون منه: أحجار صماء خالية من كل شعور وإحساس. أما موقع هذه الأحجار فهو بقعة أرض وعرة...، كما عبر عنها أمير المؤمنين سلام الله عليه:

«ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدرأً، وأضيق بطون الأودية قطعاً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى

ص: ٩٠

منقطعة، لا يزكو بها خوف، ولا حافر ولا ظلف».

إذن البيت - كما صورت الآية وكلمات أمير المؤمنين - مكانه لا يعدو كون أرضه أرضاً جرداء موحشة، وبنيته من طوب ومدر، وبالتالي فالبيت موقعاً وبناء لا يرى من حوله ممن يطوفون به، ولا يسمع دعاءً منهم ولا قراءةً ولا تكبيراً ولا تلبيةً، ولا توسلاً منهم ولا بكاءً... وبالتالي - أيضاً - لا يمنع ضرراً قد ينزل بهم،

إن الحج، مع كونه شرع رحمة للناس، ومكان دعاء لا يقنط العباد من استجابة الله تعالى لهم فيه، ودار ضيافة موائدها كلها خير وعطاء، إلا أنه، مع ذلك كله، امتحان شاق للعباد، واختبار دقيق للمؤمنين

ولا يدفع سوءاً قد يلزم بهم، ولا يقدم لهم نفعاً ولا يمنحهم أجراً... فيما كانوا يعبدون أصناماً صنعت أيضاً من طوب ومدر... ولكنهم اعتقدوا أنها تسمع وترى، وتضر وتنفع... فالفرق كبير جداً بين عبادة الأصنام، التي يعبدونها وظلوا لها عاكفين في جاهليتهم، والتي لا تضر ولا تنفع، ولا تميم ولا تحيي... وبين عبادة الله تعالى وهو الحي القيوم، فيما أمرهم به من مناسك وشعائر، شاءت إرادته وحكمته تعالى أن تؤدي في هذا الوادي وبين جبال صماء وأرض صحراء ملتهبة، فكان طوافهم وكان سعيهم وكانت مناسكهم الأخرى، التي راحوا يؤدونها وهم بكامل وعيهم وإرادتهم، وبشوق لا ينطفئ، ولهفة لا تخبو، وقد هجروا الأهل والأحبة والأموال، وعيونهم مشرّبة نحو السماء تنتظر منها العوض بالعمو والمغفرة والرضا، يكتنفهم الحب لله تعالى وحده، وهم يعيشون أجواء التوحيد الخالص، والعبودية الخالصة والانقياد التام لخالق السموات والأرض وما بينهما، وإن نفوسهم - مع أنها تعيش في هكذا محيط مبنى من الأحجار ومن الطين وسعف النخيل - لقادرة على أن تكون منقاداً إلى الله سبحانه وحده، كافرة بكل ما يدعى من أنداد له.

تقول الرواية عن أبي جعفر عليه السلام: «إذا دخلت المسجد الحرام، وحاذيت الحجر الأسود فقل: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً

ص: ٩١

عبدہ ورسولہ، آمنت باللہ وکفرت بالطاغوت وبالللات والعزى وعبادة الشيطان وعبادة كل ند يدعى من دون الله...»
 . نعم، مجسدة ما تردده في أغلب أوقاتها في موسم الحج وهي تؤدي شعائره المباركة:

لييك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك. إذا ما خلصت في انقيادها له
 جل اسمه وفي طاعتها وفي استسلامها لأوامره.... انه اختبار عظيم، وابتلاء خطير، وتمحيص شديد وفتنة تتصف بالدقة حتى يعلم الله
 تعالى الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

*** وهذا شرح مختصر لما ورد في المقطع الأول الذي ذكرناه أعلاه من خطبة الإمام على عليه السلام، وقد وصف فيه الكعبة أرضاً
 وبناءً:

... «وجعله للناس قياماً»

، وهذا اقتباس من الآية المباركة: «

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ...» (١)

. والقيام هنا يحتمل أن يكون مصدر

«قام يقوم»

والمعنى: إن الله جعل الكعبة سبباً لقيام الناس إليها، أى لزيارتها والحج إليها، أو لأنها يصلح عندها أمر دين الناس ودنياهم فهم فيها
 يقومون.

يقول الشيخ الطبرسى في تفسيره: قياماً للناس، «أى جعل الله حج الكعبة أو نصب الكعبة قياماً للناس، أى لمعاش الناس ومكاسبهم،
 لأنه مصدر قاموا كأن المعنى: قاموا بنصبه ذلك لهم، فاستثبتت معاشهم بذلك، واستقامت أحوالهم به لما يحصل لهم في زيارتها من
 التجارة وأنواع البركة».

ثم نقل الطبرسى رواية عن سعيد بن جبیر: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه». ثم قال عمّا ورد فيها: «وهو المروى عن
 أبى عبد الله عليه السلام».

ثم أوردتها برواية رواها على بن إبراهيم عنهم عليهم السلام، قال: «ما دامت الكعبة يحج

ص: ٩٢

الناس إليها، لم يهلكوا، فإذا هدمت، فتركوا الحج هلكوا» (١).

أما السيد الطباطبائي فقد قال عن ذلك: «ظاهر تعليق الكلام بالكعبة ثم بيانه بالبيت بأنه حرام، وكذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدى والقلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمه البيت، كل ذلك يدل على أن الملاك فيما يبين الله سبحانه في هذه الآية من الأمر إنما هو الحرمه».

عن سعيد بن جبیر: «من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه»

ثم بعد هذا يقول: «والقيام ما يقوم به الشيء، قال الراغب: والقيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء، أى يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به كقوله: »

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

، أى جعلها مما يمسككم، وقوله: »

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ

، أى قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم... فيرجع معنى قوله: »

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ

، إلى أنه تعالى - والكلام ما زال للسيد الطباطبائي - جعل الكعبة بيتاً حراماً احترامه، وجعل بعض الشهور حراماً، ووصل بينهما حكماً كالحج في ذى الحجة الحرام، وجعل هناك أموراً تناسب الحرمه كالهدى والقلائد، كل ذلك لتعتمد عليه حياة الناس الاجتماعية السعيدة، فإنه جعل البيت الحرام قبله يوجه إليه الناس وجوههم فى صلواتهم ويوجهون إليه ذبائحهم وأمواتهم، ويدوم به دينهم، ويحجّون إليه من مختلف الأقطار وأقاصى الآفاق، فيشهدون منافع لهم، ويسلكون به طرق العبودية. ويهدى باسمه وبذكره والنظر إليه والتقرب به والتوجه إليه العالمون. وقد بينه الله تعالى بوجه آخر قريب من هذا بقوله: »

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» (٢)

١- مجمع البيان فى ذيل تفسير الآية ٩٧ من سورة المائدة.

٢- آل عمران: ٩٦؛ تفسير الميزان، عند الآية ٩٧ من المائدة.

ص: ٩٣

إذن، فالكعبة موضوع مهم بما يحمله من آثار طيبة ومعان جميلة في دنيا المؤمنين وفي أخراهم، تتكامل من خلالها عباداتهم، وتسمو بأجوائها نفوسهم، وتقوى بها شوكتهم، وتتأزر بسببها أواصرهم، وتعمق علاقاتهم بكل مفاصلها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، لهذا ولغيره صارت الكعبة قياماً وعلماً وراية خفاقة تحمل كل مجد وعزة للإسلام وللمسلمين، وهو قول على عليه السلام عن بيت الله الحرام:

«جعله الله سبحانه وتعالى للإسلام علماً»

. وفي كلمة أخرى له عليه السلام: «فرض الله... والحج تقرباً للدين» حقاً إنه مكان لتقريب الآخرين للإسلام، ومكان دعوة إليه بعرض أفكاره ومبادئه وأحكامه. فيما قال الإمام الصادق عليه السلام:

«لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»

. قال على عليه السلام:

«ألا ترون أن الله اختبر الأولين من لدن آدم...».

من اللافت أن هذا المقطع وبالذات السطر الأول منه يقرر شيئاً تاريخياً مهماً، وهو أن إبراهيم عليه السلام لم يكن هو المؤسس الأول للكعبة المشرفة، وإنما كانت في زمن آدم عليه السلام وربما كانت سابقة عليه، ولم يبق منها إلا قواعدا أو أسسها، وكل ما قام به نبي الله إبراهيم عليه السلام أن رفع تلك القواعد بأن بنى عليها بناء الذي شيده وابنه إسماعيل عليهما السلام. والأدلة على هذا كثيرة: آيات قرآنية وأخرى روائية، جاءت بها كتب الفريقين، وما دامت مقالاتنا تختص بما تراه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، نذكر بعض رواياتهم، بعد الآيات الكريمة التالية: »

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ

. عند: تدل على وجود شيء سابق، وهي اسم مكان الحضور حقيقة كما تقول جلست عند زيد، ومجازاً نحو عند زيد علم ... وهذا وجه من وجهين ذكرهما الشيخ الطبرسي في تفسيره للآية حيث يقول «... ويسأل فيقال: كيف سماه بيتاً ولم يبنه إبراهيم عليه السلام بعد؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أنه لما كان من المعلوم أنه يبنيه، سماه بيتاً، والمراد عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه. والثاني: إن البيت قد كان قبل ذلك وإنما خربه طسم وجديس (١)، وقيل: إنه

١- وهما قبيلتان من سكان مكة انقضتا، وقيل: هيان بن عياد.

ص: ٩٤

رفعه الله إلى السماء أيام الطوفان...» (١).

«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (٢)

. والقواعد: جمع قاعدة، وهى الأساس والأصل لما فوق. يرفع

القواعد: أى البناء عليها، لأنها إذا بنى عليها نقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع. إذن القاعدة من البناء: أساسه وجمعها قواعد.

وتأتى القاعدة بمعنى الضابط أو الأمر الكلى ينطبق على جزئياته وهذا ليس محل كلامنا (٣)...

فالقواعد كانت موجودة، وهو ما يفهم من الآية، وأن كلاً من إبراهيم وإسماعيل عملاً على رفعها. وقد يكون قوله تعالى: «

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ»

شاهداً على ذلك.

والذى يراه العلامة أن ما ورد من الروايات من أن الكعبة أول بيت بمعنى أول بقعة من الأرض، وأنه يستظهر من قوله تعالى: «

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...» (٤)

ما تشتمل عليه الروايات التى تقول:

«قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس»

أو «كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع للعبادة للعالمين».

وبدلالة ذيل الرواية، فإن الحطيم والتالى الكعبة

١- مجمع البيان، عند سورة إبراهيم: ٣٧.

٢- البقرة: ١٢٧.

٣- أنظر المعجم الوسيط: ٧٤٨.

٤- آل عمران: ٩٦.

ص: ٩٥

كانت موجودة في عهد آدم عليه السلام وعن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل عن الحطيم - وهو ما بين الحجر الأسود والباب - لم سمي الحطيم؟ قال عليه السلام: لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً، وهو الموضع الذي تاب فيه الله على آدم عليه السلام ^(١). وبدلالة ذيل الرواية، فإن الحطيم وبالتالي الكعبة كانت موجودة في عهد آدم عليه السلام.

قدم الكعبة ودحو الأرض:

والدحو لغه من دحا الشيء أى بسطه ووسعه وبابه عدا، ومنه قوله تعالى:

«وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا» ^(٢)

. أى بسطها و أوسعها أو مدها لسكنى أهلها أو

جعلها دحية وهى البيضة ^(٣). ويقول كل من شيخ الطائفة الطوسى وتبعه الشيخ

الطبرسى فى تفسيرهما: والدحو أى البسط ومعنى دحاهها أى بسطها، وهى لغتان دحا يدحو دحواً ودحيت أدحى دحياً، قال أمية بن الصلت: دار دحاهها ثم أعمر بابها وأقام بالأخرى التى هى أمجد وقال أوس:

ينفى الحصى عن جديد الأرض مترك كأنه فاحص أو لاعب داح ^(٤)

فيما ذكر العلامة السيد الطباطبائي: أن دحاهها «أى بسطها ومدها: أن الدحو بمعنى الدحرجة». ناسباً هذا القول إلى بعضهم ^(٥).

والذى يراه العلامة أن «الأخبار فى دحو الأرض من

١- مجمع البيان ١- ٢: ٧٩٧.

٢- النازعات: ٣٠.

٣- أنظر مختار الصحاح والمعجم الوسيط، مادة: دحا.

٤- راجع مجمع البيان والتبيان، الآية.

٥- الميزان: الآية.

ص: ٩٦

تحت الكعبة كثيرة وليست مخالفة للكتاب ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك».

أما الروايات التي نقلت لنا عن أهل البيت عليهم السلام فهي كثيرة، والتي تتحدث عن دحو الأرض في ٢٥ من شهر ذي القعدة الحرام من تحت الكعبة.

منها: عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «لما أراد الله أن يخلق الأرض، أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً، ثم أزيد فصار زبدًا واحدًا فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلًا من زبد، ثم دحا الأرض من تحته، وهو قول الله: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا»، فأول بقعة خلقت من الأرض الكعبة، ثم مدت الأرض منها» (١).

ويرى العلامة الطبرسي في تفسيره: أن الآية فيها دلالة على أنه «لم يكن قبله بيت مبنى، وإنما دحيت الأرض من تحتها، وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعالى السماء والأرض من تحتها» (٢)...

من هذا يتضح لنا أن الكعبة تاريخياً لها عمق بعيد جداً قد يتجاوز وجود الإنسان الأول المتمثل بآدم عليه السلام قليلاً أو كثيراً، وقد يتزامن معه، فالأمر متروك للبحث التاريخي ودقة أدواته، ولكن الذي يبدو ثابتاً ومن خلال فهم المتيسر من الأدلة أن الكعبة كان لها وجودها المبارك قبل نبي الله إبراهيم عليه السلام، وأن المتيقن من النصوص القرآنية أنه قام وابنه إسماعيل ببنائها بأمر من الله تعالى. هذا وإن الذي يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنى البيت الحرام، وأن الملائكة هي أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء بدءاً بآدم عليه وعليهم السلام، وفي رواية أخرى: أن الملائكة بنى لها بيت في السماء يسمى الضراح بإزاء العرش فهي تطوف به، وأن هذا البيت أي البيت الحرام، بناه آدم بإزاء ذلك. واما إبراهيم وابنه

١- راجع البحث الروائي حول الآية في تفسير الميزان.

٢- مجمع البيان ١- ٢: ٧٩٧.

ص: ٩٧

إسماعيل عليهما السلام فهما اللذان عمرا البيت، بأن رفعا قواعده بعد ذلك (١).

أما الأرض التي اختيرت للكعبة وأنشأت عليها، فيصفها الإمام على عليه السلام بأنها: أوعر بقاع الأرض حجراً: أى أصعبها، ومكان وعر بالتسكين، صعب المسلك أو المقام.

أقل نتائق الأرض مدرأ:

أصل هذه اللفظة من قولهم

«امرأة منتاق»

أى كثيرة الحبل والولادة، ويقال: ضيعة منتاق أى كثيرة الربيع، فجعل عليه السلام الضياع ذوات المدر التي للحرث نتائق، فكان معنى قوله: إن مكة أقلها صلاحاً للزرع، لأن أرضها حجرية. وقيل: إن التناق جمع نتيقة وهى البقاع المرتفعة، ومكة مرتفعة بالنسبة لما انحط عنها من البلدان.

والمدر: قطع الطين اليابس، وأقل الأرض مدرأ، لا ينبت إلا قليلاً.

القطر: الجانب. رمال دمثة: سهلة، وكلما كان الرمل أسهل، كان أبعد عن أن ينبت، أو أنها تكون لينه فيصعب السير فيها والاستنبات منها.

إن الذى يبدو من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن جبريل عليه السلام هو أول من بنى البيت الحرام، وأن الملائكة هى أول من طاف بهذا البيت، وهكذا صار الطواف حول البيت سنة الأنبياء وعيون وشلة:

أى أنها قليلة الماء. والوشل بفتح الشين هو الماء القليل، ويقال: وشل الماء وشلاً أى قطر.

لا يزكو بها خف ولا ظلف:

لا تزيد الإبل فيها أى لا تسمن. والخف ههنا هو الإبل. أما الحافر فهو الخيل والحمير. والظلف الشاة، فيكون المعنى: ليس مرعى يرعاه الغنم فتسمن. وكل هذا (الخف والحافر والظلف) تعبير عن الحيوان بما ركبت عليه قوائمه.

ص: ٩٨

الأحب إلى الله تعالى:

هذا هو واقع البيت أرضاً وبناءً وضحته هذه الكلمات البليغة، إلا أنه الأحب من جميع بقاع المعمورة إلى الله سبحانه وتعالى، والأفضل والأكرم عنده تعالى، وهو حرمه وبيته، ويكفيه منزلة عظيمة، وشرفاً كبيراً أنه أضيف إليه تعالى فهو بيت الله وهو حرم الله، إضافة إلى أن النظر إليه جعلته الشريعة عبادة يثاب عليها المؤمن ويغفر الله تعالى له ذنوبه.

وكل هذا نجده فيما تظافر من روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام:

فقد روى الصدوق عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال:

«أحب الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربت أحب إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحب إلى الله من حجرها، ولا شجر أحب إلى الله من شجرها، ولا جبال أحب إلى الله من جبالها» (١)

. وعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها. ثم أوماً بيده نحو الكعبة. ولا أكرم على الله عز وجل منها، لها حرم الله عز وجل الأشهر الحرم في كتابه، يوم خلق السموات والأرض ثلاثة متواليه للحج: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وشهر مفرد للعمرة، رجب» (٢).

النظر إليها:

وجعل الله تعالى النظر إليها من منازل رحمته، فعن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

«إن الله تبارك وتعالى جعل حول الكعبة عشرين ومائة رحمة، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين» (٣).

. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال:

«النظر إلى الكعبة عبادة... وقال: من نظر إلى الكعبة كتبت له حسنة، ومحيت عنه عشر سيئات» (٤).

، وعنه:

«من نظر

١- وسائل الشيعة ٩: ٣٨٦.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٦٤.

٣- وسائل الشيعة ٩: ٣٦٣.

٤- من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٣.

ص: ٩٩

إلى الكعبة لم يزل تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة حتى ينصرف ببصره عنها» (١)

، وعنه:

«من أيسر ما يعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكل نظرة حسنة، وتمحى عنه سيئة وترفع له درجة» (٢).

المنزلة المباركة:

ثم انتقل الإمام على عليه السلام بعد ذلك و في الخطبة نفسها، ليصوغ عبارات أخرى غنية بالمعاني والبيان ما آلت إليه هذه البنية المتواضعة من منزلة عظيمة مباركة في السماء، و من موقع مقدس في القلوب، و من مكانة كبيرة في النفوس، و من حضور حي في وجدان المؤمنين وفي أرواح الموحدين لا يخبو نوره ولا ينطفئ ضياؤه ولا ينضب معينه ولا تموت حركته... فيقول عليه السلام:

ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يشنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم. تهوى إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم، شعناً غبراً له. قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته، ووصله إلى جنته.

إنها بقعة - مع كونها قفراء جذبة وعره ضيقة - غدت مثابة وأمناً

«مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم»

. لنقف قليلاً عند شرح هذا المقطع.

وقبل هذا لا بد من أن نردف هذا المقطع بمقطع آخر للإمام عليه السلام أيضاً يشبهه،

١- المصدر نفسه ٢: ١٣٠.

٢- ثواب الأعمال: ١٧.

ص: ١٠٠

حيث يصف فيه حال الوافدين إلى الكعبة الطائفين بها... بالقول:

«وفرض عليكم حج بيته الحرام»

، وفي آخر هذه الخطبة في الصفحة ٤٥ من نهج البلاغة لصبحي الصالح، قال عليه السلام أيضاً:

«فرض حجه، و أوجب حقه، و كتب وفادته، فقال سبحانه: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

عَنِ الْعَالَمِينَ»- الذي جعله قبله للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولوه الحمام

- أى يلوذون به ويعكفون عليه. ثم قال عليه السلام:

«وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته»

. ثم راح عليه السلام يصف و يثنى على من اختارته السماء وكانوا بحق وحقيقه حجاج بيته الطائفين به والعاكفين فيه والقائمين

والركع السجود، فاستحقوا بذلك أن يقول على عليه السلام فيهم:

«واختار من خلقه سماعاً، أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه

». إن هؤلاء هم الذين من أجلهم جاء أمر الله تعالى لنبيه إبراهيم الخليل عبر آيتين قرآنيتين: »

وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١)

، «وَطَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (٢)

. إنه تطهير من الأوثان والأصنام، التي كانوا يعلقونها على باب

البيت، أو من الفرث والدم الذي يطرحه المشركون عند البيت قبل أن يصير بيد إبراهيم وإسماعيل، أو طهراه بنياناً بكماله على الطهارة

(٣)... إلا أنه ورد في تفسير

القمي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: »

أَنْ طَهَّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ..»

يعنى

«نَحَّ عَنْهُ الْمُشْرِكِينَ» (٤)

. ولم يتوقف سلام الله عليه عند هذا، بل بين لنا ما كانوا يهدفون إليه في صدق عبادتهم وإخلاص نواياهم، وما كانوا يجنونه من

ذلك فقال:

«يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته».

١- البقرة: ١٢٥.

٢- سورة الحج: ٢٦.

٣- أنظر مجمع البيان في تفسير الآية ١٢٥، من سورة البقرة.

٤- راجع البحث الروائي حول الآية في تفسير الميزان.

ص: ١٠١

ما أعظمها من تجارة وما أذكاهما! وما أطيبها من أرباح وأحلاها! راحوا يتسابقون إلى اقتطافها، ويسارعون إلى اقتنائها بلهفة عالية وشوق عظيم! وما هي هذه الأرباح؟! وأين تكمن هذه الأرباح؟! إنها الأعظم ثواباً والأكبر أجراً، إنها التوبة والمغفرة! إنها هناك حيث الجنة، التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين!

فالأمر الإلهي كان تكليفاً لآدم عليه السلام وولده، وبالتالي فهو دليل على وجود البيت في زمانه، وإلا كيف يؤمرون بزيارته...؟! أن يثابوا أعطافهم نحوه:

ثني عطفه إليه، أي مال وتوجه إليه، أي يقصدوه ويحجوه، وعطفا الرجل: جانباه.
فصار مثابة،

أي يثاب إليه ويرجع نحوه مرة بعد أخرى.

لمنتجع أسفارهم:

أي لنجعتها، والنجعة هي طلب الكلا في الأصل، ثم سمي كل من يروم النفع منه منتجعاً، أي محل الفائدة منها.
وغاية لملقى رحالهم:

أي أن البيت صار هو الغرض وهو المقصد، وعنده تلقى الرحال، بأن تحط رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر، لانهم قد انتهوا إلى الغاية المقصودة. وملقى مصدر ميمي، أي نهاية حصر حالهم عن ظهور إبلهم.
تهوى إليه ثمار الأفئدة:

ثمرة الفؤاد: سويداء القلب، ومنه قولهم للولد هو ثمرة الفؤاد. وتهوى إليه أي تتشوقه وتحن نحوه، أو تسرع سيراً إليه. والمراد بالثمار هنا الأرواح، وهو ما يذهب إليه صبحي الصالح.

المفاوز: جمع مفازة. والفلاة سميت مفازة إما لأنها مهلكة من قولهم: فوز الرجل أي هلك، وإما تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرواية المشهورة

«من مفاوز قفار»

بالإضافة. وقد روى قوم

«من مفاوز»

بفتح الزاء، لانه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا

«قفار»

صفة... الفلاة التي لا ماء فيها. والسحيقة: البعيدة.

والمهاوى: المساقط أو الهوات، أي منخفضات الأراضي. أما الفجاج فهو جمع فج، وهو الطريق بين الجبلين، أو الطرق الواسعة بين الجبال.

ص: ١٠٢

يهزوا مناكبهم:

يحرّكهم الشوق نحوه، إلى أن يسافروا إليه، فكفى عن السفر بهز المناكب وهى رؤوس أكتافهم. يرملون،

الرمّل: السعى فوق المشى قليلاً، فهو ضرب من السير فوق المشى ودون الجرى. شعثاً غبراً:

أى لا يتعهدون شعورهم، فشعورهم منتشرة ملبدة. كما أنهم لا يهتمون بشياهم ولا بأبدانهم، التى علاها الغبار. وشوهوا بإعفاء الشعور:

غُثِّروا محاسن صورهم، بأن أعفوا شعورهم، فلم يحلقوا ما فضل منها وسقط على الوجه، ونبت فى غيره من الأعضاء، التى جرت العادة بإزالتها عنها، فتركوها بلا حلق ولا قص. وتمحيصاً بليغاً:

التمحيص هو التطهير من محصت الذهب بالنار إذا صفيته مما يشوبه، ويأتى التمحيص بمعنى الامتحان والاختبار. وبما أن الإمام عليه السلام ذكر كلا منهما فقال: وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً، فالمناسب أن نأخذ بالمعنى الأول أى تطهيراً بليغاً. جعله الله سبباً لرحمته، ووصله إلى جنته:

إنها نتيجة من يجتازون ذلك الامتحان، إنها الخاتمة التى يمنّ الله تعالى بها على عباده الفائزين باختبار السماء. فكان هذا البيت بترابه و بأحجاره وبأجوائه قاعة امتحانية اختبارية تمحيصية كبرى لكل النفوس والأرواح والأجسام، التى أوت إليها وقد وطنت جهدها وكدحها ومالها وفراق أهلها وأحبّتها لاجتياز ذلك الامتحان والفوز بما هيأته

ص: ١٠٣

السماء من درجات عالية ورتب باهرة.

إنها رحمه الله سبحانه، التي وسعت كل شيء، وإنها جنه الله عز وجل، التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. حقاً إنه سبب ما أعظمه! حقاً إنه وصله ما أجلها وأجملها! حقاً إنهما طريقان مباركان ينتهيان برحمه الله تعالى وجنته! حقاً إنه دار ضيافته ما أكرم صاحبها وما أطيب موائدها! حقاً إنها رحلة عطاء، وأى عطاء! إنه عطاء السماء الذي لا حدود له! حقاً إنه جزاء ما أعدله جاء على قدر الابتلاء!!...

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«وهذا بيت استعبد الله به خلقه، ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محل الأنبياء وقبله المصلين، فهو شعبه من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال...» (١)

. وهكذا تلتقى كلماتهم عليهم السلام في

كون البيت وضع للاختبار والابتلاء، وانه باب رحمة ونجاة للعباد...

وفى هذا المقطع يتناول الإمام عليه السلام موقعاً آخر مغايراً للموقع الأول، وما لو قدر أن يكون موضعاً للكعبة. وما لو كانت مواد بنائها غير تلك التي بنيت منها.

ماذا سيترتب على هذا التغيير؟ إنه سؤال كبير وخطير! وهو ما سنرى جوابه، الذي لا يقل أهمية عنه، وسنراه فيما بعد الفقرات التالية:

وسهل وقرار:

أى فى مكان بدرجة من السهولة يستطيع معها الناس الاستقرار فيه، ولا ينالهم من المقام به مشقة. والقرار يأتى أيضاً بمعنى: المطمئن من الأرض.

وجم الأشجار:

أى كثير الأشجار.

دانى الثمار:

قريبها.

ملطف البنى:

أى مشتبك العمران كثيره. البرة: الواحدة من البر، وهو

ص: ١٠٤

الحنطة. السمراء: أجودها، الأرياف: جمع ريف: الأرض الخصبة، أو الخصب والمرعى فى الأصل وهو ههنا السواد والمزارع. والعراض: جمع عرصه، الساحة التى ليس بها بناء. محدقة: أى محيطه. ومغدة: غزيرة، والغدق: الماء الكثير. ناضرة: ذات نضارة ورونق وحسن. هذا فيما يخص موقع البيت.

أما فيما يخص بناءه، فيقول عليه السلام:

«ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء».

فالزمرد: الزبرجد: وهو حجر نفيس أخضر اللون شديد الخضرة شفاف.

وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحده زمردة. وقيل: هو حجر كريم ذو ألوان كثيرة، أشهرها الأخضر المصرى والأصفر القبرصى.

الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة، معرب، وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ولونه فى الغالب شفاف مشرب بالحمرة أو الزرقة أو الصفرة، وأجوده الأحمر الرمانى. واحده أو القطعة منه ياقوته، الجمع: يواقيت.

وهنا تكمن الإجابة عن السؤال، الذى ذكر أعلاه، والإجابة التى ذكرها الإمام عليه السلام تتوفر على عبارتين:

الأولى: جاءت بعد:

«ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام بين جنات وأنهار...»

، «لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء»

هذا هو الجواب الأول. وهو أمر يتعلق كما هو واضح بالأجر والثواب، وأن الأجر والثواب يأتى على قدر المشقة التى تواكب التكليف المراد من المؤمن إنجازها والقيام به، والتكليف هنا هو مناسك هذه الفريضة المباركة ومشاعرها فى الديار المقدسة.

فكلما كانت التكاليف متعباً أداؤها، كلما تعاظم أجرها، وعظم ثوابها. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل.

الثانية: جاءت بعد:

«ولو كان الأساس المحمول عليها...» «لخفف ذلك مصارعة الشك فى الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج

الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبد بهم بأنواع

ص: ١٠٥

المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره».

فمصارعة الشك، وروى مصارعة الشك بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنوه من النفس، وأصله من مصارعة القدر بكسر القاف وتسكين الدال، أى إذا حان إدراكها، ومن مصارعة الشمس إذا دنت للمغيب. ويذهب الراوندى - كما يذكر ابن أبى الحديد، فى تفسيره لهذه الكلمة (مصارعة الشك) - إلى أن معناها:

مماثلته ومشابهته. ولكن ابن أبى الحديد يستبعد هذا لأنه لا معنى للمماثلة والمشابهة هاهنا، كما يذهب أيضاً إلى أن الصحيح مصارعة الشك بالصاد المهملة.

ولنفى معتلج الريب: أى اعتلاجه، ومعتلج مصدر ميمى من الاعتلاج أى الالتطام، اعتلجت الأموال أى التطمت. فيكون المعنى: زال تلاطم الريب والشك من صدور الناس، أو لنفى اضطراب الشك فى القلوب. يجب أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا بقوله: «إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل فى نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحة إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه».

إذن هذه هى النتيجة لكل هذا الامتحان والاختبار. فما أعظمها من نتيجة! وما أجملها من جائزة! إنها أبواب إلى فضله وأسباب إلى عفوه. ونبذ للباس التكبر وهو خلق - كما تعلمون - ردىء، وتثبيت للتواضع فى النفوس وهو خلق - كما تعلمون - عظيم. وهو ما يجعل فريضة الحج موقعاً ومناسك مدرسة تربوية أخلاقية ميدانية رائعة، لاتجد لها مثيلاً على الإطلاق. هدفها الأكبر وغايتها العظمى تربية الإنسان فرداً ومجتمعاً، فيعود إلى أهله ومجتمعه مبلغاً - مبشراً ونذيراً - فتتواصل عملية البناء فى المجتمعات الإسلامية وفيما بينها وتنمو، وتتكامل النفوس وتتعزيز الأواصر وتتمتن العلاقات على أسس إيمانية واعية.

لقد راحت كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ترسم الحكمة العظيمة والفلسفة الرائعة لموسم الحج، وقد امتحن الله تعالى عباده بهذه المواقع، فراحوا - نفوساً وأجساداً - يطوفون بها خاشعة أرواحهم آمنة مطمئنة، وهى تتراحم لاستلامها والتبرك بها،

ص: ١٠٦

لا يرتابها القنوط من رحمته تعالى، وكيف يداخلها اليأس من رحمته وهي في ضيافته تعالى؟! وهم يقرأون ويسمعون قوله تعالى: «
 قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (١)
 ويقرأون ويسمعون أيضاً قوله تعالى: «

.. وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (٢)

؟! إنه الانقياد الخالص لله تعالى والتسليم له والطاعة المطلقة

لإرادته والامتثال لأوامره والتطبيق الجاد الكامل لها، والثقة العالية بعفوه ورحمته ورضاه. وإنه الحكمة البالغة أن يبتلى الله عز وجل عباده ببذل المال والجهد للوصول إلى بيته المكرم للطواف به والتعبد عنده والتضرع بجواره، وهو لم يكن من زمردة خضراء ولم يكن من ياقوته حمراء ولم يكن من نور وضياء، وهي نفائس تستحق أن يشد لها الرحال، وتستحق أن يتحمل من أجلها الإنسان العناء والمخاطر، وبذل المال، وفراق الأهل والأحبة، إذا ما قسنا الأمور بالموازن الدنيوية، وأن الإنسان مَيَّال للمال وللمتعة والراحة والدعة «
 وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» (٣)

، أما أن يتحمل الحاج كل ذلك للمجيء إلى بناء من البساطة بدرجة

كبيرة متكون من أحجار وصخور وطوب، ضمته أرض جرداء تحيطها جبال صماء، كل شيء فيها يتصف بالجفاف والشحوب بل وحتى بالذبول، ليعبد ربه ويستغفره ويتضرع إليه في تلك الأيام التي باركتها السماء. فهو أمر يحتاج إلى رصيد إيماني راسخ ويقين ثابت وقناعة بما يترتب على ذلك من أجر وثواب، ويحتاج أيضاً إلى صبر ومثابرة ومجالدة لهوى النفس ومجاهدة لرغباتها في الدعة والاسترخاء، وبغضها للمتاع وركوب المخاطر.

إنها إرادة الله تعالى في أن تكون نوايا القاصدين والذين يؤمنون بيته الحرام نابعة من وعي وإيمان، ومن معاناة صادقة خالصة من كل شائبة مادية ودوافع

١- الزمر: ٥٣.

٢- الحجر: ٥٦.

٣- العاديات: ٨.

ص: ١٠٧

دنيوية... ولو قدر أن يكون موقع الكعبة كما يصفه الإمام عليه السلام:

«بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى».

وليس هذا فقط بل هو أيضاً كما يصفه عليه السلام:

«بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراض مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة»

. ولو قدر أن يكون بناؤها من أحجار غير تلك الأحجار التي هي عليها، أى من أحجار معروفة بنفاستها كالتى ذكرها الإمام عليه السلام:

«زمردة خضراء، وياقوتة حمراء»

ثم يضيف عليها شيئاً آخر ألا وهو:

«ونور وضياء»

... لرأيت - إذا ما اكتملت هاتان صورتان صورة الموقع وصورة البناء - ماذا ستكون عليه الكعبة من مزرعة رائعة الجمال، و من بريق وهاج، و من رونق جذاب يأخذ بالقلوب والأبصار، وعندئذ تكون منتجعاً تستروحه الأفئدة والأبدان، وتستجمله النفوس والأجسام، ومكاناً للاسترخاء والدعة والطمأنينة، يستريح فيه القادمون من وعثاء الطريق ومشاق الرحلة، وبالتالي يغدو مكاناً للنزهة والاستجمام لا ميداناً للاختبار والامتحان! هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن نفاسة هذه الأحجار هي التى تشكل الدافع القوى بل الأول لتصديقهم واعتقادهم بأن هذا البيت هو بيت الله، ثم تدفعهم إلى الطواف حوله والمكوث عنده، وهو قوله عليه السلام:

«لخفف ذلك مصارعة الشك فى الصدور»

. ومن ناحية ثالثة، فإن زيارة الكعبة تكون بسبب إعجابهم وانبهارهم بدورها ونفاسة أحجارها، ولكى يتمتعوا بمنظر البيت وزينته. وبالتالي لا يكون دافعهم وقصدتهم مجاهدة إبليس، الذى يدعوهم إلى ترك حج هذا البيت، والذى يشجعهم على اختيار الدعة والراحة والسلامة وهو مبدؤه ومبتغاه. لهذا جاء قول الإمام عليه السلام:

«ولو وضع مجاهدة إبليس فى القلوب»

من ناحية رابعة.

إنها قصة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص، التى تؤدى بدورها ونهايتها إلى نتيجة كبيرة طالما انتظرتها النفوس الصابرة وتشوقت إليها القلوب المؤمنة، وتلهفت إليها الأرواح المطمئنة. إنها رحمة الله تعالى، والوصول إلى جنته

ص: ١٠٨

التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين! إنها المعادلة العادلة بين عظمة الابتلاء وعظمة الجزاء، حقاً
«كلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل»

. التشابه في الابتلاءات: إنها إرادة الله عز وجل ومشيتته هنا في ابتلائه الناس بالكعبة بموقعها وأحجارها، كما هي إرادته ومشيتته في أن يخلق نبيه آدم عليه السلام من طين لا من نور وطيب كما هو قول الإمام على عليه السلام:
«ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهز العقول رواؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرفه، لفعل»
، أما التعليل فهو:

«ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة».

ثم يبين الإمام عليه السلام حقيقة هذا الابتلاء، التي تنفعنا في هذا المورد وفي غيره من موارد الابتلاء الأخرى، والتي منها موضوع مقالتنا وهو الكعبة، التي نجعل الكثير من حكمه وجودها والاختبار والتمحيص بها. فيقول عليه السلام:
«ولكن الله سبحانه يتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم»
. وهذا وذاك هو عين الحكمة في أن الأنبياء والرسل عاشوا في ضعف وفقر وعوز، وهو ما يتناوله الإمام عليه السلام مبيناً ما سيؤول إليه ذلك لو كان كما في النص التالي:

«ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشدد إليه عقد الرجال. لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة» (١)

. وهو يشبه اختبارات

أخرى تمر على العباد وهي تحمل الهدية والبشرى، أتعلمون لمن هذه البشرى؟! إنها للصابرين وهم الذين خرجوا من قاعة الاختبار بأنواعه المتعددة فائزين »

وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ

ص: ١٠٩

وَالْتَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (١)

. إنها سنة السماء في الاختبار

ليتبين الحق من الباطل والخالص من الشائب »

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ...» (٢)

. إن فريضة الحج تعد اختباراً عظيماً يدخله المؤمن ولو مرة واحدة في حياته، فطوبى للذين قبلت السماء حجهم فهم الصابرون

الناجحون بالامتحان الرباني الفائزون بالثواب العظيم!

وقفه:

هذا و أن ما نلا حظه اليوم في الكعبة خاصة و عموم مكة والمدينة وباقي المدن من وضع عمراني ملفت جامع لوسائل الراحة، ومن أبنية للعيش والسكن والاستقرار، وما نراه من مؤسسات ومراكز لرعاية الحجيج وتسهيل أمورهم...

إضافه إلى تطور وسائل النقل بين دول العالم.. هدف كل هذه وغيرها توفير الأمان والسلامة والراحة وتخفيف معاناة المسافرين والقادمين لأداء فريضة الحج والزيارة.. جعلني أستطيع أن أقول: ما عادت رحلة الحج متعبة وشاقة كما كانت عليه، بل إن سفره الحج في عصرنا غدت سفره ممتعة، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب! وقد يكون كل هذا سبباً في تقليل الأجر والثواب إذا ما لاحظنا بأن الثواب على قدر المشقة كما يذكر، وأن هناك مدخيلة للمشقة في زيادة الأجر.

وهذه المتاعب والمشقة و بسبب ما ذكرناه أعلاه قد تنعدم أو

١- البقرة: ١٥٥.

٢- العنكبوت: ٢.

ص: ١١٠

تقل كثيراً، وبالتالي قد ينقص الثواب، فما علينا والحالة هذه إلا مزيداً من الصدق والإخلاص في أداء المناسك، وإلا مضاعفة الأعمال التي ترضى الله سبحانه، والإكثار من عبادته صلاةً ودعاءً وطوافاً وسعيًا... وعدم تضييع الوقت بغير النافع في هذه المناسبة التي قد لا تعود أو لا- نوفق لمثلها والعياذ بالله، حتى لا يفوتنا الأجر الأكمل والثواب الأعظم، ولعل ما نقدمه من عبادات بصدق يعوضنا عما قد يفوتنا من الثواب. والله تعالى العالم وهو الغني الكريم.

الحجر الأسود الناطق الشاهد:

صحيح أن هذه التي يطوف بها الناس أبنية من أحجار صماء لا تضر ولا تنفع، ولكن هذا لا يمنعها من أن تنطلق لتشهد بإذن ربها لمن وافاها ولمن عاهدتها، فهي ليست بعيدة عن ملكوت السماء، وعما أثبتته لها السماء من حكم ومعان ودور ينتظرها هناك، فقد تختزن هي والمناسك من حولها أسراراً وأموراً ووظائف عهدت إليها، وقد خبئت أو أخفيت عنا لمصالح الله أعلم بها، أو صعبت علينا معرفتها ونحن بها جاهلون. تظهر لنا هناك يوم القيامة: »

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» (١)

، وعند مليك مقتدر وهو »

الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» (٢)

. وقد وردت أحاديث عديدة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام بخصوص الحجر الأسود دون غيره من الأحجار، لما يتمتع به من امتيازات لا- تتوفر في غيره من الأحجار والصخور في الكعبة أو في المواقع الأخرى من الحرم الشريف، وهذه الخصوصية للحجر الأسود من أنه يمين الله تعالى في الأرض، وأنه ناطق شاهد يوم القيامة على من زاره ووافاه وعاهده كما صرحت به روايات هذه المدرسة، هذه الخصوصية لم أجدها لغيره، ولعله اختص بها دونه، وكيف لا تكون له هذه الميزة وهذه الفضيلة والطواف يبدأ منه وينتهي إليه؟! وكيف لا ينطلق لسانه بتلك

١- آل عمران: ١٠٦.

٢- فصلت: ٢١.

ص: ١١١

الشهادة ويستحب للحاج أن يقول عنده إذا ما استلمه أو قبله أو أشار إليه: «هذه أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة، اللهم تصديقاً بكتابك، وعلى سنة نبيك، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، آمنت بالله وكفرت بالجبث والطاغوت وباللات والعزى وعبادة الشيطان، وعبادة كل ند يدعى من دون الله» (١).

وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام، أن عمر بن الخطاب مر على الحجر الأسود، فقال: والله يا حجر إنا لنعلم أنك لا تضر ولا تنفع، إلا- أنا رأينا رسول الله صلى الله عليه وآله يحبك فنحن نجبك. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يا ابن الخطاب! فوالله لبيعته الله يوم القيامة وله لسان وشفتان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمين الله عز وجل في أرضه يبايع بها خلقه. فقال عمر: لا أبقانا الله في بلد لا يكون فيه على بن أبي طالب.

وعن عبد الله بن سنان أنه قال: «بيننا نحن في الطواف إذ مر رجل من آل عمر، فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره وأغلظ له وقال له: بطل حجك، إن الذي تستلمه حجر لا يضر ولا ينفع. فقلت لأبي عبد الله... فقال عليه السلام: كذب ثم كذب ثم كذب، إن للحجر لساناً ذليلاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة». ثم ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريته، وأن الحجر التقم الميثاق من الخلق كلهم. إلى أن قال:

«فمن اجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر: أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة، آمنت بالله وكفرت بالجبث والطاغوت واللات والعزى وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان وعبادة كل ند يدعى من دون الله عز وجل» (٢).

وقد يكون الاستلام أو التقبيل تعبيراً عن تجديد للبيعة أو للعهد والميثاق، ولهذا راح الحجاج يتزاحمون بشدة على استلامه وتقبيله ومسحه، وإن لم يتيسر

١- وسائل الشيعة ١٣: ٣٠٢، ٣١٩.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٣٠.

ص: ١١٢

ذلك يشار إليه باليد، مع أن هذا كله ليس بواجب وإنما هو مستحب لا- أكثر، ولهذا يجب الإمام الصادق عليه السلام من كان يستغرب منه تركه استلام الحجر الأسود فيقول:

«أكره أن أؤذى ضعيفاً أو أتأذى» (١)

. وأجاب عليه السلام عن سؤال وجه إليه عن امرأة حجت وهي حبل يراحم بها حتى تستلم الحجر. فقال عليه السلام:

«لا تغرروا بها» (٢)

. وورد عنهم عليهم السلام: «إن الله وضع عن

النساء أربعاً، وعدّ منهن استلام الحجر».

ولزيادة الاطلاع حول الحجر الأسود في قصته التاريخية والفقهية والروائية في المذاهب الإسلامية، تراجع مقالتنا في العدد ٤ من هذه المجلة، ١٥١-١٧٩.

الدعاء:

هذا، وقد اتخذت مدرسته أهل البيت عليهم السلام من الدعاء وسيلة بل أعطته دوراً كبيراً ورئيسياً لتحقيق الأهداف والمقاصد المترتبة على وجود هذا البناء المقدس بكل مفاصله، التي أوجبت السماء على المكلفين بالحج والمعتمرين ارتيادها وتأديتها ما عليهم من أعمال ترافقها الأدعية، التي لا- تجد مكاناً يخلو منها، ولا مفصلاً عبادياً إلا وهي غذاؤه، بل لا تجد لساناً إلا ويتمم بها، أو يكون غير هذا والدعاء لب العبادة أو مخها، ومن خلاله يتم التسامى الروحي والتعلق بعالم الغيب، وتثبيت الإيمان به، وتركيز التوحيد وتعظيمه، والفوز برضا الرحمن، واتباع سنة الأنبياء والأئمة عليهم صلوات الله وسلامه، وقبول الأعمال، وغفران الذنوب...؟! وقد وردت أدعية كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام، اكتظت بها كتب الحديث، واحتلت مكانة كبيرة في مناسك هذه الفريضة المباركة.. وقد جمع طاقة جيدة منها سماحه الأخ الأستاذ الشيخ محمد علي المقدادی في مقالته القيمة: مع أدعية الحج. المنشورة في العدد ١٨ من هذه المجلة.

١- الكافي ٤: ٤٠٩.

٢- التهذيب ٥: ٣٩٩.

موعد مع إبراهيم الحج مرآة التاريخ البشرى

إشارة

عبدالجبار الرفاعى

إن استيعاب مضامين الحج يتوقف على معرفة النبى إبراهيم عليه السلام، بل إن اكتشاف الأديان السماوية، وهكذا دين الإسلام، لا يمكن أن يتحقق من دون التعرف على روح دين إبراهيم، ونمط «الثقافة الإبراهيمية». ذلك أن إبراهيم هو أبرز داعية للتوحيد فى التاريخ، فهو الذى حطم الأوثان، وأشاد الكعبة المشرفة، وسواها من معالم التوحيد فى الأرض.

وباتت مسيرته وخطواته ومفهوماته تطبع دعوة التوحيد، وتظل حية، فاعلة، لانتضب روافدها، ولا تضحل أوتذبل أبدأ. (١)
هذا ما يقوله الدكتور على شريعتى، ويشدد عليه فى مواضع مختلفة من آثاره، معتبراً وعى الدور الإبراهيمى فى حياة البشرية مدخلاً أساسياً لدراسة رحلة البشرية الطويلة، وأديانها الكبرى. كما يعتقد بأن الحج مرآة يتجلى فيها تاريخ الإنسان، عبر ممثلين تنتخبهم السماء، بدءاً بآدم، وإبراهيم وإسماعيل، ثم محمد عليهم السلام. (٢)
وحيث ترسم خطاهم فى البيت الحرام والمشاهد المشرفة فى مكة المكرمة، عانق مساراً آخر للإنسان، طمسته مدونات المؤرخين، ولم تتحدث عنه بقايا الحضارات التليدة، وآثارها.

١- الدكتور على شريعتى، ميعاد با إبراهيم موعد مع إبراهيم: ١٧، ٥٣-٥٤.

٢- المصدر السابق: ٢١٠.

ص: ١١٤

ويحاول شريعتي صياغة «فلسفة تاريخ» محورها حركة الأنبياء، وإبراهيم خاصة، وتجربته الإيمانية العميقة، وطبيعته المنعطفات الهامة في حياته، لاسيما الحقبة المكية منها، التي تضافرت جهوده فيها مع زوجه هاجر، وولده إسماعيل.

البيئة الثقافية لشريعتي

ولد شريعتي في قرية «مزينان» التابعة لمدينة مشهد في خراسان سنة ١٩٣٣. وخراسان بحكم موقعها الجغرافي، وتاريخها، والسياقات الثقافية والاجتماعية لها، بمثابة عالم مصغر للحياة الدينية في إيران.

أن الحج مرآة يتجلى فيها تاريخ الإنسان، عبر ممثلين تنتخبهم السماء، بدءاً بآدم، وإبراهيم وإسماعيل، ثم محمد عليهم السلام أما والد شريعتي فهو محمد تقى، أحد أساتذة التيار الاسلامي المستنير في إيران. انخرط شريعتي الأب في الحوزة العلمية في مشهد سنة ١٩٢٨، وعمل فيما بعد معلماً في مدارسها الثانوية. واهتم بتأسيس منتدى ثقافي إسلامي، يعني باحتضان الشباب ورعايتهم، وتعليمهم حقائق الإسلام، ويتلمس لهم سبل مواءمة الإسلام مع العصر، والتغلب على الإشكالات، والإجابة عن مايتوالد لديهم من أسئلة لاهوتية جديدة، لم يألها علم الكلام أو الفقه من قبل.

وقد تمحور حول محمد تقى شريعتي نخبة من الشباب، ممن كانوا يدرسون في الجامعة والحوزة العلمية في مشهد، وطفقوا يبحثون عن معلم أو مرشد يفتح على أفكارهم، ولا تستفزه استفهاماتهم، ولا تفزعه رؤاهم النقدية للتراث والواقع. فكان شريعتي الأب يحاول أن يصغي إليهم باهتمام، ويقدم لهم تفسيراً للقرآن، لا يكرر آراء السلف، ويوظف بعض مكاسب العلم الحديث في استنطاق النص، ويسعى لوصل الواقع بالقرآن، والقرآن بالواقع، متجاوزاً ماراكمه المفسرون من قطيعة بينهما، بعد إغراق المفسرين مصنفاتهم بمباحث لغوية

ص: ١١٥

بيانية، ومفاهيم كلامية ميتافيزيقية، تتحدث عن عوالم الملكوت، فيما تهمل الإنسان وهمومه في الأرض. في هذه البيئة العائلية نشأ على شريعتي، وترعرع في المحيط الثقافي الذي شكّله والده، واتسع ليضم جماعة من طليعة الإسلاميين في مشهد. وتدرج في مراحل الدراسة، وظهرت مبكراً موهبته، وتفتقت عقلية النقدية، وروحه المتوثبة، عندما كان طالباً في المرحلة الثانوية، فانهاز للتيار الوطني الذي تزعمه الدكتور محمد مصدق، سنة ١٩٥٤.

وفي عام ١٩٥٥ م دخل كلية الآداب بجامعة مشهد، وتخرج فيها بدرجة امتياز في اللغة والأدب الفارسي سنة ١٩٥٨، ثم واصل دراسته في جامعة باريس، وحصل على الدكتوراه في علم الاجتماع، ودكتوراه أخرى في تاريخ الأديان، سنة ١٩٦٣. وكانت أيام باريس أخصب فترة في تكوينه الفكري. ونشاطه السياسي، فقد درس الاتجاهات الفكرية الراهنة في فرنسا والغرب، وتعلم على يد بعض المفكرين المعروفين ذلك الحين في باريس، وتعرف على آخرين ممن لم يتلمذ عليهم، وظل مثابراً على التواصل معهم، كماتعززت علاقاته بالثوار الجزائريين، واشترك في نشاطاتهم، وارتبط بعلاقة مع المفكر والمناضل فرانتس فانون، الذي ترجم للفارسية شيئاً من كتابه «معذبو الأرض».

وفي عام ١٩٦٤ عاد إلى إيران، فسجن لمدة ستة أشهر، بسبب مساهماته في نشاطات مناهضة للشاه خارج إيران. ومنذ سنة ١٩٦٦ عمل أستاذاً مساعداً لمادة «تاريخ الإسلام» في جامعة مشهد. وتعرض في السنوات التالية للمراقبة والملاحقة من الشرطة السريّة، واعتقل مرات عديدة، وفصل من عمله، ومنع من أن يحاضر أو يشارك في ندوات، ولبث في السنين الأخيرة من حياته في وطنه تحت مراقبة مكثفة، أعاقحت حركته، فاضطر للهجرة إلى لندن، وتوفي هناك

ص: ١١٦

فى السادس من حزيران ١٩٧٧، بعد فترة وجيزة من وصوله، وأحاطت بموته ظروف مبهمه غامضة، تنوعت تفسيراتها، ودفعت أنصاره ومريديه للقول بتدبير السافاك مؤامرة لقتله.

لقد كان شريعتى الأب المعلم الأول لشريعتى الإبن، فكانت رؤيا الأب الحره الجريئه تضىء عقل الإبن، وتوقد وعيه، وتقحم تفكيره حقولاً لم يفكر فيها من قبل. مضافاً إلى التحاق على شريعتى فى مطلع حياته بالصراع السياسى، وإصراره على مواصلة الدرب فيما بعد، وإطلاعه على التراث، وتخصصه فى علم الاجتماع ومقارنه الأديان، وعلاقاته المميزة مع مجموعة من المفكرين، وسعيه الحثيث لمواكبة معطيات الدراسات الإنسانية فى الغرب. كل ذلك أتاح له إمكانات، ومنحه مهارات مميزة فى دراسة المجتمعات الإسلامية، والانطلاق من مجتمعه والظواهر السائدة فيه، بوصفه أنموذجاً لدراسة الاجتماع الإسلامى.

علم اجتماع الدين

يمكن القول: إن على شريعتى كان من أبرز خبراء (علم اجتماع الدين) فى العالم الإسلامى، فى العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، ذلك أن آثاره، بما تشتمل عليه من كتابات ومحاضرات، تعالج قضايا ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر، بهذا الحقل. ولعل التكوين العلمى لشريعتى هو الذى وفر له عدة معرفية لخوض مغامرة البحث فى هذا الحقل، الذى كان وقفاً على المستشرقين، والباحثين الغربيين المهتمين بالاجتماع الإسلامى.

ص: ١١٧

وعندما نعود إلى تراثه نجده يستعير جملة أدوات منهاجية، وأفكاراً حديثة، من مفكرين فرنسيين وألمان، فقد تأثر برؤى ريمون آرون، وجاك بيرك، وهنري كوربان، وفرانتس فانون، وروجيه

لقد استقى شريعتي أدواته التحليلية من علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وفلسفة التاريخ، والانثروبولوجيا، والميثولوجيا، وهيمنت على عقله الفلسفة الاجتماعية الفرنسية والألمانية أكثر من سواها، لكنه ظل أقل تعاطياً مع مقولات الفلسفة والآراء الفلسفية، ربما بسبب تخصصه ودراساته في الاجتماع ومقارنته الأديان.

غارودي، وجورج كوروتيش، ولويس ماسينيون، وجان بول سارتر، والبير كامو.

وترد في كتاباته إشارات إلى:

هيغل، وماركس، وهوسرل، وياسبرس، وهایدغر، وماركوزه، تدلل على أن لمناهج ومفاهيم هؤلاء المفكرين تأثيراً بالغاً في صياغة عقلية ونسقه الفكرية.

لقد استعار شريعتي بعض آراء المثالية التاريخية لهيغل، كما أخذ من ماركس «البناء التحتي والفوقي، والصراع الطبقي، والأيديولوجيا، والاعترا ب». واقتبس فكرة «سجن الذات» من هايدغر، وعممها إلى ما أسماه «السجون الأربعة» بعد أن ضم إليها سجون: «الطبيعة، والمجتمع، والتاريخ». كذلك استفاد من ظاهريات هوسرل (١)، واهتم بسارتر، وأفاد من وجوديته في تحليل بعض الظواهر. كما حاول أن يتوكل على فكرة الاعتراض التي قررها البير كامو، بقوله: «أنا أعترض، إذن أنا موجود».

يكتب شريعتي «إنني اتخذت من كلمة البير كامو هذه درساً لحياتي، على أساس نفس الرسالة والمسؤولية الصغيرة التي أحس بها، بالنسبة لوعي وإحساسي وعقيدتي» (٢).

لقد استقى شريعتي أدواته التحليلية من علم الاجتماع، وعلم

١- مهرداد بروجردی. روشنفکران ایران و غرب المثقفون الإيرانيون والغرب. ترجمة: جمشید شیرازی: ١٦٧-١٦٨.

٢- الدكتور علی شریعتی. اسلام شناسی معرفة الإسلام: ٢٣٣.

ص: ١١٨

الاقتصاد، وفلسفة التاريخ، والانثروبولوجيا، والميثولوجيا، وهيمنت على عقله الفلسفة الاجتماعية الفرنسية والألمانية أكثر من سواها، لكنه ظل أقل تعاطياً مع مقولات الفلسفة والآراء الفلسفية، ربما بسبب تخصصه ودراساته في الاجتماع ومقارنهُ الأديان. وكان يدرك أنه اجترح درباً لم يمهّد من قبل لدى الدارسين في ديارنا، فالدراسات الإسلامية في الحواضر العلمية المعروفة، وكليات الدراسات الشرعية تستعين بالمناهج والأدوات الموروثة، ولا تتقن، وربما تخشى، التعاطي مع مناهج العلوم الاجتماعية الحديثة. ولعل روح الاقتحام التي اتسمت بها شخصية شريعتي، هي محفزها للسير في ذلك الدرب، والمغامرة بالمضي فيه حتى النهاية، بالرغم من الهجاء البالغ القسوة الذي تعرض له، وشتى ألوان التهم، وفتاوى تفسيقه وضلاله. إنه كان مدركاً بما يحف بمغامراته من مخاطر، وما يكتنفها من مزالق، باعتباره يبدش نمطاً جديداً في دراسة الدين والاجتماع الإسلامي، مستنداً إلى مفاهيم ومناهج مختلفة. فقد تحدث عن ذلك بصراحة: «أهم درس استطيع أن أعطيه لطلابي كمعلم، هو أن عليهم، لأجل معرفة عميقة بالدين، انتهاج سبيل العلماء غير المتدينين، بل المناهضين للدين، أوحى من كان ينشد محاربة الدين. أنا أسلك هذا السبيل، وأتحدث بنفس اللغة المنددة بالدين، والمتنكرة لدعائمه الغيبية، تحت عناوين: علم الاجتماع، والاقتصاد، وفلسفة التاريخ، وعلم الإنسان. إنني أتحدث بهذا المنهج الذي اعتبره أفضل المناهج لمعالجة المسائل العلمية والإنسانية. إنه المنهج ذاته الذي نهجته أوروبا منذ القرن الثامن عشر، لدراسة مشكلاتها الإنسانية بجميع أبعادها، ومناوءة الدين في المجتمع. سوف أعالج قضايا الدين حتى من منظور طبقي اقتصادي، لكن بموضوعية، ومن دون تعصب وتحيز ما استطعت» (١).

١- الدكتور علي شريعتي. روش شناخت اسلام منهج معرفة الإسلام: ١٨-١٩.

ص: ١١٩

لقد حسم شريعتي خياره، وقرر استخدام المناهج الغربية في دراسة الدين والاجتماع الإسلامى، ولم يتوقف عند الجدل الواسع الذى لما يزل محتدماً، حول مشروعية دراسة الدين والمجتمعات الإسلامية، بمناهج مستوردة من أديان ومجتمعات أخرى. فبدلاً من اصطفاؤه بجانب أحد فرقاء الصراع، واستنزاف تفكيره فى التدليل على مشروعية أو عدم مشروعية ذلك، بادر لحشد مختلف المناهج فى دراساته، ولم يتردد فى انتقاء واستخدام أى مصطلح أو مفهوم، يحسبه مناسباً لحقل بحثه.

وكأنه، بمغامرته هذه، أراد القول: إن السبيل الأمثل لاختبار المناهج وأدواتها هو بتطبيقها مباشرة على ميادين معينة. وإن اكتشاف ماتمخض عنه عملية التطبيق من معطيات، هو معيار اختبارها. كما أن نتائج التطبيق ستقودنا إلى استئناف النظر فى بعض المناهج، وإمكانية تمثلها فى سياقات حضارية أخرى، فنستبعد منها أو نختزل ما لا يتسق مع بيئتنا، أو لا يمكن توطينه ودمجه فى محيطنا الثقافى. وقد صرح شريعتى بأنه يعمل فى دراساته على صياغة رؤية اجتماعية من منظور إسلامى، فمثلاً يلمح إلى محاولته هذه بإشارة دالة قائلاً: «باعتبار تخصصى العلمى هو فى علم اجتماع الدين، وهذا التخصص منسجم مع عملى، فإننى أسعى لتدوين نوع من علم الاجتماع المرتكز على الإسلام والمصطلحات المستوحاة من القرآن والحديث» (١).

إلا أنه فى مناسبة أخرى يوضح أن دراساته لا تتناول المفاهيم المودعة فى المصنفات التراثية، مثلما لاتهمه طبيعة هذه المفاهيم فى وعاء الذهن، وإنما تنصب جهوده على تمثلها فى التاريخ، وأنماط تجليها فى الاجتماع البشرى. فمثلاً يتحدث عن التوحيد الذى يتناوله فى دراساته بقوله:

«أعنى بالتوحيد حضوره فى التاريخ والمجتمع، لا مفهوم التوحيد فى عالم الكتب، أو عالم الحقيقة. فليس حديثى بشأن التوحيد الذى تحدث

ص: ١٢٠

عنه القرآن، ومحمد صلى الله عليه وآله، وعلى عليه السلام.

ما يهمنى الآن هو التوحيد فى المجتمع والتاريخ، والأمر هكذا لدى دائماً» (١).

ويحاول شريعتى استخدام مختلف المنهجيات، والاستعانة بما يطلع عليه من أفكار فى العلوم الإنسانية الجديدة، ليوظفها فى حقل دراساته، فلا يتردد فى الاستعانة بالمعطيات الراهنة فى حقل الميثولوجيا، والنماذج الرمزية، أو غيرها. يكتب فى سياق استعارته لتلك المعطيات: «إننى شخصياً أهتم بدراسة الأساطير، ولى علاقة دائمة بالأساطير والنماذج الأسطورية» (٢).

ويضيف: «منذ فترة وأنا أعمل فى حقل الأساطير، لشغفى بالأسطورة أشد من التاريخ. وأحسب أن ما تشى به الأسطورة من حقائق أوفر من التاريخ، فالأسطورة حكاية وجدت فى فكر الإنسان، أما التاريخ فهو حقائق أوجدها الإنسان. الأسطورة تحكى التاريخ كما ينبغى أن يكون» (٣).

ويمكننا ملاحظة التفسير الرمزى واستعمال الأساليب الحديثة فى البحث الميثولوجى فى مواضع عديدة من آثار شريعتى. وتظل محاولة شريعتى، مع جرأتها وريادتها، عرضة لعدد من الإشكالات والأسئلة. باعتبارها توظف أدوات منهجية متنوعة فى دراسة الظواهر الدينية، من دون أن تتنبه إلى أن الأبعاد الميتافيزيقية، التى تنفرد بها تلك الظواهر، ليس بوسعنا إدراكها، واستكناه مضمونها، بوسائل العلوم الاجتماعية الوضعية.

مضافاً إلى أن طائفة من العناصر المنهجية والمفاهيم والمصطلحات التراثية المولدة فى سياق نشأة وتطور الاجتماع الإسلامى، يمكن استخدامها، مباشرة، أو بعد تهذيبها، أو تفكيكها، وإعادة إنتاجها.

الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا

عاش شريعتى فى عصر طغى فيه صوت النضال، وتسابق المثقفون لتأييد ومساندة الانتفاضات والحركات الثورية، وفى بداية حياته أغواه بريق الشعارات، وشغف بفعل الاحتجاج والاعتراض، فتضامن مع

١- الدكتور على شريعتى. اسلام شناسى معرفه الإسلام: ٢٦٩.

٢- المصدر السابق: ٢٢٢.

٣- المصدر السابق: ٢٠٩.

ص: ١٢١

استغاثات الكادحين، ولوعة المحرومين، وأنين المعذبين. وتلاحم في شخصيته المثقف والداعية والباحث والمناضل، وذابت الحدود في وجدانه بين النموذجين، بل أمسى الوجه الحقيقي للمثقف في وعيه هو الداعية، وتحولت الثقافة إلى أيديولوجيا، وتمحورت جهوده في «أدلجة الدين والمجتمع».

يقول شريعتي: «سألني أحد رفاق الدرب: ماهو برأيك أهم حدث وأسمى إنجاز استطعنا تحقيقه خلال السنوات الماضية؟ فأجبته: بكلمة واحدة، هو تحويل الإسلام من ثقافة إلى أيديولوجيا» (١).

ما الذي يقصده بالأيديولوجيا؟

وهل يستطيع أن يحتفظ بموقفه المعرفي كباحث، في الوقت نفسه الذي يوسع دائرة الأيديولوجيا، لتشمل الدين والثقافة والمجتمع؟! قبل الإشارة إلى ذلك نقتبس نصاً مطولاً من آثاره، يضيء هذا المفهوم، ويحدد ملامحه في وعيه.

يكتب: (الأيديولوجيا عبارة عن عقيدة ومعرفة عقيدة. وهي بالمعنى الاصطلاحي، رؤية ووعي خاص يتوفر عليه الإنسان فيما يتصل بنفسه، ومكانته الطبقية، ومنزلته الاجتماعية، وواقعه الوطني، وقدره العالمي والتاريخي، وفتته الاجتماعية التي ينتمي إليها. وهي المسوغة لهذه الأمور، والتي ترسم له مسؤولياته وحلوله وتوجهاته ومواقفه ومبادئه وأحكامه، وتدفعه بالتالي إلى الإيمان بأخلاق وسلوك ومنظومة قيم خاصة، فعلى أساس رؤيتك الكونية، وابتناءً على نمط «علم الاجتماع» و«علم الإنسان» و«فلسفة التاريخ» الذي تحمله، يمكن تحديد ما هي عقيدتك في الحياة، وفي علاقتك بنفسك وبالآخرين وبالعالم؟ كيف ينبغي العيش، وما الذي يجب فعله؟

أي مجتمع يتعين بناؤه، وكيف يتوجب تغيير نظام اجتماعي بشكل أنموذجي، وما هي مسؤوليته كل فرد حيال المجموع؟ وما هي صراعاته، وأواصره، وأشواقه، ومثله العليا، وحاجاته، ومركزاته العقيدية،

ص: ١٢٢

وقيمه الإيجابية والسلبية، وسلوكه الاجتماعي، ومعايير الخير والشر لديه، وبالتالي ما هي طبيعة الإنسان وهويته الاجتماعية؟ وعلى هذا فالأيديولوجيا هي عقيدة تحدد الاتجاه الاجتماعي والوطني والطبقي للإنسان، وتفسر نظامه القيمي والاجتماعي، وشكل الحياة، والوضع المثالي للفرد والمجتمع، والحياة الإنسانية بكل أبعادها، وتجب عن الأسئلة: ((كيف تكون؟)) و «ماذا تفعل؟» و «ماذا ينبغي فعله؟» و «كيف يجب ان نكون؟» (١).

الأيديولوجيا تقنية يستعين الإنسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب مايشاء

لكن ما هي حدود الأيديولوجيا؟

وما هي علاقتها بالعلوم والمعرفة التقنية؟ يجب شريعتي:

«الأيديولوجيا تهدي للإنسان ماتمنحه له الإمكانيات التقنية تماماً. ما التقنية إلّا مجموعة الجهود الإنسانية الرامية إلى توظيف الطبيعة لتحطيم هيمنتها وجبرها، وفرض احتياجاتنا عليها. الأيديولوجيا تقنية يستعين الإنسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب مايشاء» (٢).

ويتداخل مفهوم التقنية والأيديولوجيا لديه، بنحو تصبح «التقنية عبارة عن فرض إرادة الإنسان على قوانين الطبيعة، أو هي استخدام العلم من قبل الإرادة الإنسانية الواعية، للوصول إلى مبتغاه. العلم هو مسعى إنساني لفهم الطبيعة واكتشاف مافيه، والتقنية هي سعيه لتطويع الطبيعة واستخدامها، واصطناع مالميس فيها. وفقاً لهذا التعريف تكون الأيديولوجيا بالمعنى الأخص للكلمة، تقنية بالمعنى الأعم للكلمة» (٣).

ويبدو أن الهموم النضالية لشريعتي، ومحاولاته الواسعة لأنسنة الدين، والتشديد على المضامين الاجتماعية للإسلام، هي الباعث لمساعاه في تحويل الإسلام «من ثقافة إلى أيديولوجيا». وربما تأثر شريعتي بأطروحات جماعة لاهوت التحرير،

١- المصدر السابق ١٦: ٢٨ - ٢٩.

٢- المصدر السابق ١١: ٢٤٢ - ٢٤٣.

٣- المصدر السابق ٤: ٢٣٢ - ٢٣٤.

ص: ١٢٣

ودعواتهم لتحويل الدين إلى أيديولوجيا لمناهضة الاستعمار، وتحرير الأرض، وتنمية المجتمع، بعيداً عن مشاغل اللاهوت الكلاسيكي.

ومما لا ريب فيه أن هيمنة الأيديولوجيا على وعي الباحث ولاوعيه، تحول بينه وبين الوصول إلى نتائج علمية، أكثر موضوعية وحياداً في تفكيره وبحثه. ذلك أن الأيديولوجيا تقود أيه عملية تفكير وتوجهها الوجهة التي تنشدها، وتضاعف التحيزات والمفروضات القبلية في ذهن الباحث، وتسوقه دائماً إلى مواقف ونتائج محددة سلفاً، باعتبار التفكير الأيديولوجي يسعى إلى تغيير العالم لا تفسيره. وينشغل أنصار الأيديولوجيا في سكب المجتمع في قوالبها ورؤيتها الخاصة، ولذلك ينددون بالتعددية، ويكرهون الناس على تفسير رسمي للمعتقدات الدينية والاجتماعية والسياسية، ويخنقون الأسئلة الكبرى، ويعملون على ترسيخ الجزئية واليقين، وبالتالي بناء مجتمع مقلد مغلق.

وتكمن المفارقة في أن شريعتي الذي أعلن عن مطمح في الانتقال بالإسلام «من ثقافة إلى أيديولوجيا» تسود كتاباته نزعة تفكير حرة، ترفض المجتمع المغلق، وتدعو إلى إصلاح الفكر الإسلامي، والانفتاح على مختلف الأديان والثقافات. وتحكي آثاره ذائقة فنان، وروح شاعر، وعقلية ناقد، ونزعة متمرّد. ومثل هذه السمات في الشخصية يتعذر على الأيديولوجيا الانسجام والتوافق معها.

ص: ١٢٤

والمفروض أن مثقفاً كشريعته يدرك مثل هذا التهافت، ويعي الالتباس بين الشخصية الأيديولوجية، وشخصية المثقف، والشاعر، والفنان، والناقد، لكن موقفه ظل ملتبساً بين شفافية الفنان الرومانسي، وبين أحلام وتطلعات المناضل.

العدة المعرفية للحاج على شريعته

تكرر ذهاب شريعته إلى ديار الرحمن عدة مرات، فقد أدى العمرة ثلاث مرات، فيما أدى الحج أكثر من مرة، في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١، وكانت المشاعر المشرفة في مكة المكرمة، والمشاهد الكريمة في المدينة المنورة، مصدر إلهام لجملة من أفكاره، وانطباعاته، وتأملاته، وإشراقاته الروحية، التي أفاضها في محاضرات وكتابات احتلت مئات الصفحات من آثاره المنشورة.

وتحتل هذه المجموعة من الآثار أهمية فائقة، ليس لحجمها الواسع، وتنوع م تناولته من موضوعات، تتصل بفلسفة التاريخ، وفلسفة العبادة، ومقاصد الشريعة، وأهدافها العامة، فقط، وإنما لأنها تعبر عن تجربة مميزة في أدب الحج، وعموم الإنتاج الفكري حول الحج والعمرة، باعتبار صاحبها من القلائل الذين توفروا على عدة معرفية، تجمع بين التخصص الأكاديمي في علم الاجتماع وتاريخ الأديان، والاطلاع على تراث وآداب الشعوب الإسلامية، ووعي العصر، وواقع المجتمعات الإسلامية، وأحوال العالم. وقلما نجد من يتوافر في نفس الوقت على ذائقة فنان، وخيال شاعر، وانفعال إنسان رومانسي، وخبرة في العلوم الإنسانية الجديدة، واطلاع واسع على التراث والواقع، وداعية ومناضل.

في شخصية على شريعته نلمح عدة أبعاد، تمثل، المفكر، والباحث، والمثقف، والفنان، والناقد، والمتمرد، والداعية. وهي أبعاد ربما يبدو بعضها منافياً للبعض، لا تجتمع وتتوحد في إنسان إلأى حالات محدودة.

ص: ١٢٥

تلك هي المواهب الذاتية، والإمكانات الخاصة، والأدوات المعرفية، التي يمتلكها شريعتي، وفتحت له أبواباً ونوافذ لتأمل وتحليل التجربة الدينية للحاج؟

ودراسة العناصر الرمزية في المناسك، وأنماط التحولات الروحية والأنثروبولوجية للمسلم الحاج. قد نلتقي في ضيوف الرحمن مع مبدعين، وشعراء، وفنانين، ومفكرين، ومنتقدين، وأكاديميين، وسياسيين، وعلماء دين، وعرفاء ومتصوفة، ولكن قليلاً ما نشاهد أحداً تتجاوز في شخصه وتلتحم مجموعة من تلك المواهب. ولاريب في أن الفنان تتجسد المناسك في وجدانه بصورة تحكي الألوان، والتشكيلات، والحركات، والأصوات، وكأنها لوحة متناسقة خلاصة، في أطراف ألوانها، وملامحها الجمالية، وأنغامها. وهكذا تبدو المناسك في عيون السياسي، باعتبارها أنموذجاً لوحدة الأمة وتضامنها، ومظهراً لعزتها واقتدارها.

فيما تتجلى المناسك بصورة ثالثة لدى العارف والمتصوف، وهكذا. أمّا لو تكاملت مجموعة من هذه القابليات والإمكانات في فرد واحد، فسوف تتسع رؤيته، لتلامس طائفة من المعاني والدلالات الرمزية العميقة التي تشي بها الفاعليات المتنوعة للحج، والمواضع المتعددة للمشاعر، يصعب على غيره استلهاها والتعرف عليها. لقد وظف شريعتي كل عدته المعرفية، وثقافته الواسعة، وخياله الرحب في استجلاء المقاصد الكامنة وراء مناسك الحج، وأشار إلى أن الوجه الظاهر للمناسك بوسعنا وعيه بما نتداوله من أدوات إدراك، لكن الوجه الخفي يتعذر علينا وعيه بهذه الأدوات، لأنه خلاصة لتجربة وجدانية باطنية، لا يمكن قياسها أو اكتشافها بمفهوماتنا المتعارفة، كما لانستطيع التعبير عنها بوضوح، لقصور اللغة عن حكاية الأنطولوجيا الذاتية، وما يضيء النفس من نور جواني.

الحج يخلق معنى على ما لا معنى له

يعترف شريعتي بأنه عندما يتحدث عن الحج إنما يلخص فهمه، وتجربته الخاصة، وما أدركه من معانٍ، وهي بالتأكيد ليست كل المعاني، فهو يصف كتابته عن الحج بأنها «نتاج قدرته المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز، ذلك أن المهيمن على خشبة المسرح في الحج هو ذاته المهيمن على الكون الواسع. وأقول بوضوح: لقد حاولت أن أسكب بحراً في كوز! ففي كل مرة أذهب إلى الحج أحاول أن أعود لتقييم ما استوحيت من المرة السابقة، لكي تنضج رؤيتي. فأكتشف آفاقاً وعبراً جديدة» (١).

ويمثل برغسون العالم بأنه «بمثابة موشور زجاجي، لامتناهي الأبعاد، وقادر على تفكيك وعكس مالا نهاية له من ألوان. وكل إنسان يقتبس ما هو مستعد لإدراكه من تلك الأبعاد والألوان، حسب شفافية قلبه، وتسامي روحه، وعلى أية حال فهو لا يستطيع إدراك تمام الألوان والأبعاد».

وهكذا هو الحج، فإنه مشبع بالمعاني والدلالات، وهو كما يقول شريعتي، معلقاً على رأي برغسون: «عبارة عن مجموعة من الإشارات، وأجلى وعى للحج هو وعى أولئك القادرين على إدراك ما ترمز إليه تلك الإشارات» (٢).

ويضيف: إن مناسك الحج كأنها شكل زجاجي شفاف، متعدد الزوايا والأضلاع، وكل إنسان عندما ينعكس نوره على ضلع من أضلاع هذا الشكل الزجاجي، يتحلل هذا النور إلى مئات الألوان. فليس هناك معنى أحادي لمناسك الحج، وكل ذلك أن المهيمن على خشبة المسرح في الحج هو ذاته المهيمن على الكون الواسع. وأقول بوضوح: لقد حاولت أن أسكب بحراً في كوز! ففي كل مرة أذهب إلى الحج أحاول أن أعود لتقييم ما استوحيت من المرة السابقة، لكي تنضج رؤيتي. فأكتشف آفاقاً وعبراً جديدة

١- الدكتور على شريعتي، الحج: ٥٨، ١١٥، ٢٥٠.

٢- ميعاد با إبراهيم: ٢٠٩.

ص: ١٢٧

إنسان تبعاً لذوقه، ومشاعره، وروحيته، تسطع على مرآة روحه إشعاعات ماتفيضه المناسك من أنوار (١). وبالتالي ليس من الصواب أن يزعم أحد بأنه وعى كل مقاصد الحج، وتعرف على أهدافه وفلسفته بتمامها. وأنه ليس هناك معنى أو مقصد سوى ماوعاه (٢).

الحج ليس ضريبة مالية على الثروة، وإنما هو فريضة كالصلاة. ومدلول الاستطاعة هو القدرة، والفهم والحكمة، بنحو تدرك ماتفعله، والاستطاعة شرط عام لكل الممارسات الدينية المناطة بالإنسان إنَّ اللاجدوى، واللامعنى، واللاهدف، والحيرة، والارتياح والشك، من أعقد المشكلات التي تعاني منها أعداد غفيرة من البشر منذ فجر التاريخ، والدور الأعظم للدين في الحياة، أنه يحرر الإنسان من حيرته، وارتياحه، ويخلع معنى على ملامعنى له في نظره، كما يضع أهدافاً عظيمة للحياة، ويخلص البشر من الشعور بالعبث واللاجدوى. والحج أحد أهم الشعائر التي تبعث في المسلم الحيوية والفاعلية، وترسخ القيم الفاضلة، والأهداف الخيرة في حياته.

قبل أن يذهب المسلم إلى الحج يجب أن يكون مستطيعاً لأداء هذه الفريضة، والاستطاعة، كما يفهمها شريعتي، لاتعنى الثراء وامتلاك المال اللازم للسفر، ذلك أن الحج ليس ضريبة مالية على الثروة، وإنما هو فريضة كالصلاة. ومدلول الاستطاعة هو القدرة، والفهم والحكمة، بنحو تدرك ماتفعله، والاستطاعة شرط عام لكل الممارسات الدينية المناطة بالإنسان (٣).

ويختلط في مفهوم عامة الناس الحج بالزيارة، فيفهمون الحج بأنه زيارة إلى بيت الله الحرام، غير أن صاحبنا يرفض هذا الفهم، باعتبار الزيارة تنتهى عادة عند المقصد والغاية، أما الحج فهو عملية ديناميكية، وحراك متواصل، وأشواق روحية، وسعى متوثب،

١- المصدر السابق: ٢٤٦.

٢- المصدر السابق: ٢٠٩.

٣- المصدر السابق: ١٤.

ص: ١٢٨

وصيرورة تكاملية، لطي منازل ومقامات في مدارج التكامل المعنوي، والارتقاء من مرتبة إلى أخرى. الحج حركة دائبة، مستديمة، متوثبة، من منزل إلى منزل، يواكب فيها التسامي المعنوي الانتقال من مشعل إلى آخر. إن الحج يبدأ حيث يهبط المسلم في الميقات ويباشر الإحرام، ويظل يتصاعد الحاج روحياً مع توالي أدائه للمناسك، ومكوته في المشاعر (١). ومن المزايا التي ينفرد بها الحج، أنه مؤتمر لا كالمؤتمرات المعروفة، فعادة ما يأتلف المؤتمر من جماعة تشترك في مواصفات ترتبط بالموضوع الذي ينعقد هذا الاجتماع لأجله، وهي عادة ماتضم النخبة من ذوي الرأي. بينما الحج ملتقى واسع، يجمع مختلف أصناف المجتمع، وتسوده أعمال عبادية شاملة، ينخرط فيها كافة الحجاج، من دون نظر إلى أعراقهم، ومواقعهم الطبقية، ومستوياتهم الثقافية، ومراتبهم الاجتماعية والوظيفية. إن لقاء بشرياً من هذا النوع لا تعرفه أية مؤتمرات أو ندوات أخرى، ولا تحصد مكاسبه الكثير من الملتقيات في العالم (٢).

ويرجع شريعتي الحج إلى شكل من أشكال الهجرة. إنه هجرة مزدوجة، فهو من جهة هجرة ذاتية أنفسيه، يغادر فيها المسلم عالمه الخاص، أولاده، مقتنياته، منزله، ممتلكاته، كذلك يتحرر من خطايا، وموبقاته، ونوازع الشر، والأهواء في نفسه، ويتطهر من الأحقاد، والأغلال، والكراهية. لا بد أن يوفى كافة ديونه، والديون هنا لا تقتصر على الأموال المقترضة، وإنما تتجاوزها إلى انتهاكات حقوق الناس ومظالمهم، وهي الديون الأهم في عنق الإنسان. هذه هي الهجرة الذاتية الأنفسية، وبموازاتها يهاجر الحاج هجرة أخرى في عالم الإنسان، هجرة خارجية آفاقية، ليتعاطى مع الكثير من الناس، الذين يعاشرهم لأول مرة، ويتوغل في عالمهم، وثقافتهم، وتقاليدهم، وطبائعهم، ويتفاعل

١- المصدر السابق: ٤٣٨.

٢- المصدر السابق: ٣٢٦.

ص: ١٢٩

معهم، مكتشفاً آفاقاً متنوعة، وخصائص عديدة، وظواهر مختلفة، في الاجتماع الإسلامي. إنها رحلة وهجرة في عمق الاجتماع الإسلامي، تسهم في إخصاب وعي المسلم، وتدمجه بمحيطه الثقافي والاجتماعي الشامل، وتقتلع من نفسه مشاعر الاغتراب (١). وتكتسب الهجرة مدلولاً خاصاً في الوعي التاريخي لشريعتي، ذلك أنه يرتقى بها إلى مستوى القانون الفلسفي والاجتماعي، وإن «الهجرة عامل من عوامل التطور والتمدن طوال التاريخ، فمجموعة المدن السبع والعشرين إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر وإبراهيم، وملخص مافعلته هاجر هو الهجرة، والانتقال من مرحلة ما قبل الحضارة إلى الحضارة، وإن أية هجرة من نوع هجرتها هي حركة باتجاه الحضارة في التاريخ التي نعرفها إلى الآن، كلها وليدة هجرات تمت من قبل، ولا يوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. ومن هذه الناحية لا توجد قبيلة واحدة كانت بدائية، ثم تمكنت - صدفةً - أن تتحضر، وتغيرت ثقافتها، وأوجدت ثقافة جديدة متقدمة، من دون أن تتحرك وتهاجر من أرضها إلى أرض أخرى... فكل الحضارات في العالم، سواء كانت آخرها وأحدثها، وهي حضارة أمريكا الحديثة، أو أقدم الحضارات التي نعرفها، وهي الحضارة السومرية، إنما وجدت كلها على أثر هجرات، مما يعني أن المجتمع البدائي ظل بدائياً طيلة بقائه في أرضه، وتمكن أن يتحضر، وتغيرت حالته جذرياً، بعدما هاجر إلى أرض ثانية وأقام فيها. كل الحضارات كانت وليدة هجرة المجتمعات البدائية» (٢).

وتحليل مضمون الحج على أنه نوع من الهجرة، يعني أن للحج وظيفة تمدنيّة حضاريّة، مثلما هي الهجرة ودورها في صناعة الحضارة في التاريخ.

إن شعائر الحج هي مذكرات هاجر وإبراهيم، وملخص مافعلته

١- المصدر السابق: ٤٣٨-٤٣٩، والآثار الكاملة ١٧: ٦٧.

٢- الدكتور على شريعتي. منهج معرفة الإسلام. في كتاب: هكذا تكلم على شريعتي. فاضل رسول: ١٥٦.

ص: ١٣٠

هاجر هو الهجرة، والانتقال من مرحلة ما قبل الحضارة إلى الحضارة، وإن أية هجرة من نوع هجرتها هي حركة باتجاه الحضارة (١). ويكرس شريعتي عدته المعرفية، وثقافته المتنوعة، ومفهوماته الخاصة لموضوع «الهجرة» وغيره، كأدوات تفسيرية لأعمال الحاج، وما يؤديه في مناسكه من ممارسات، وما يمتنع عنه من محظورات، بحيث تغدو هذه الممارسات نحواً من الهجرة الأنفسية الآفاقية عند الفحص والتدبر.

الحج خلاصة دعوة إبراهيم ومعاونة هاجر

يحشد شريعتي تحليلات مفصلة لكل منسك من مناسك الحج، مواكباً رحلة الحاج، منذ أن يتأهب من منزله مستعداً لهذه الرحلة المباركة، استجابةً لنداء إبراهيم عليه السلام، حتى يعود إلى أهله. في الميقات، يخلع الحاج لباسه، ويرتدي ثياباً هي بمثابة الكفن، في لونها ومواصفاتها. وهنا يتكشف الوجه الآخر للوظيفة الرمزية للباس في حياة الإنسان، وما تشير إليه الأزياء، في ألوانها، وتشكيلاتها، وتصاميمها المتنوعة. فلا يقتصر دور اللباس على السترة، والزينة، وحماية الإنسان من المؤثرات المناخية، كالحر والبرد والرياح، وإنما ترمز أزياء الناس إلى مكانتهم، وطبقتهم، وموقعهم، وتشير إلى وجهة تفكيرهم، وما يميزهم عن سواهم، في معظم المجتمعات. اللباس يكرس

ص: ١٣١

«الأنا» ويشى بالمختلف. أما الإحرام الذى يرتديه كل حاج، ويخضع لشروط صارمة تضبط بساطته، وتنفى عنه أية زخارف، أو ألوان، وأشكال، فهو تدريب عملى لتربية الإنسان المسلم على تجاوز ثنائىة:

السيد والعبد، والقوى والضعيف، والشريف والوضيع، والمتحضر والبدوى، والعربى والأعجمى، والشرقى والغربى، والغنى والفقر، والمتنخم والجائع.

إن التجرد من الثياب فى الميقات، يتضمن - فيما يرمز إليه - هتك الأقمعة، التى تختفى وراءها جملة من نزعات الكراهية، الكامنة لدى الإنسان. إنه تجرد من قناع الوحشية، والمكر، والخديعة، والخنوع، والذلة، والجبن، والهوان. وسائر منابع الشر والعدوان. وكأن لحظة الميقات لحظة يولد فيها الإنسان من جديد. وقتئذ تتجلى الذات على حقيقتها، متحررة من الأعراف والتقاليد، ومن سائر الأسماء والألقاب، التى تضج بها الحياة، وتغضى الأشخاص بطبقات

إن التجرد من الثياب فى الميقات، يتضمن - فيما يرمز إليه - هتك الأقمعة، التى تختفى وراءها جملة من نزعات الكراهية، الكامنة لدى الإنسان

وحجب، شديدة الكثافة، تستر على حقيقة الإنسان (١).

ثم يردد الحاج التلبية بعد ارتداء الإحرام)

ليبك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك

(. والتلبية تتضمن اعترافاً وإقراراً بالتوحيد، ونبذاً للشرك بكافة أنواعه، فالشرك منبع اغتراب الإنسان فى العالم، والشرك يمسح الإنسان، ويكرس استلابه، ويبرر الانقسامات، والصراعات، والتمييز العنصرى. ذلك «أن الاعتقاد بتعددية الآلهة، يبرر تعددية المخلوقات، ويسوغ تقديس بعضها، ويصورها كأنها حقائق خالدة أبدية. وإن الاعتقاد بوجود تناقض بين الآلهة، يصور الصراعات والتناقضات فى الحياة بمثابة أمر طبيعى وإلهى. بينما

ص: ١٣٢

التوحيد الذى يعنى رفض كل أشكال الشرك، ينظر إلى كل ذرة وظاهرة فى الوجود على أنها تندرج فى حركة متسقة باتجاه هدف واحد» (١).

إن التلبية فاعلية جوائية، يفصح عنها اللسان، بهذه الصيغة، بغية تطهير جوانح الإنسان من كافة ألوان الشرك، وتعميق التوحيد فى وجدانه.

أما الكعبة الشريفة، فيشتق لها شريعتى أسماء، يستنبط شيئاً منها من القرآن الكريم، وماورد من أوصاف لها فى المأثور. إذ يسميها تارة «بيت الناس» استناداً إلى قوله تعالى:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين» (٢)

. فالناس ككل هم ممثلو الله وعباده. والقرآن يبدأ باسم الله وينتهى

إن هجرة إبراهيم، ورحلته الطويلة ما بين بلاد الرافدين وفلسطين ومكة، كانت هجرة تمدنية، تهدف إلى إرساء قواعد ومعاليم شاخصه للحضارة، ومحطات يأوى إليها الناس، حين تضيق الأرض عليهم

باسم الناس. والكعبة «بيت الله»، ولكن يطلق القرآن عليها اسم «بيت الناس» أيضاً. ويعتقد شريعتى أن الآيات القرآنية التى نسبت الملكية إلى الله »

إن ترضوا الله قرضاً حسناً» (٣)

، المقصود من كلمة الله فيها هو الناس، وإلا فما حاجته إلى المال؟

وفى حالات متعددة يمكننا وضع كلمة الله حيثما كانت كلمة الناس أو العكس. ومع ذلك تبقى الآية مفهومة وصحيحة (٤)، وهكذا يتحد سبيل الله مع سبيل الناس، بمعنى أنه لكي تقترب من الله عليك أن تقترب أولاً من الناس. وأن الوصول إلى الله إنما يجرى من خلال نفع الناس «خير الناس من نفع الناس» وخدمة الناس (٥).

وعندما بنى إبراهيم الكعبة، أرادها أن تكون بيتاً لمن لا بيت لهم، ومأوى لكل الذين لا مأوى لهم، هى مظلة لمن تعرض للطرْد والنفى. هى ملاذ للمعذبين والمستضعفين فى الأرض، وملجأ للمشردين. إنها مصباح يضيء فى ظلام الطغيان الذى

١- الدكتور على شريعتى. الرؤية التوحيدية للعالم. فى كتاب: هكذا تكلم شريعتى. فاضل رسول: ١٧٠.

٢- سورة آل عمران: ٩٦.

٣- سورة التغابن: ١٧.

٤- فاضل رسول. مصدر سابق: ٣٧، ١٤٠.

٥- الحج: ١٠٤، ١٠٧.

ص: ١٣٣

يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم.

لقد عانى إبراهيم التشريد من قبل، بعد أن حطم الأوثان، وأراد أن يحرر الناس من عبوديتها، وعبودية النمرود. ثم طاف الأرض باحثاً عن الحرية، ومحاوفاً أن يبنى للناس بيتاً لتحريرهم، بدلاً عن معابد الأصنام، التي تشيع الشرك، والذي هو أبرز رافد تستقي منه عبودية الإنسان للآلهة المزيفة. إن هجرة إبراهيم، ورحلته الطويلة ما بين بلاد الرافدين وفلسطين ومكة، كانت هجرة تمدينية، تهدف إلى إرساء قواعد ومعالم شاخصة للحضارة، ومحطات يأوي إليها الناس، حين تضيق الأرض عليهم (١).

إن شريعتي يشدد على اشتقاق معنى «التحرير» من وصف البيت ب «العتيق»، فيغدو بيتاً يفيض الحرية على الوافدين إليه، ذلك أن «العتق» هو «التحرير» (٢).

ففي البيت العتيق يتساوى الحر والعبد، والأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، وتتلاشى كافة الأسماء، والألقاب، والعناوين، والأعراق، وكل ما يميز الناس، ويصنفهم إلى طبقات، ومراتب، ودرجات.

الكعبة بمثابة بوصلة تحدد وجهة السير، وترسم الاتجاه الذي ينبغي أن يسعى الجميع نحوه. إنها (القبلة) التي تشكل محور اللقاء، وتشير إلى الهدف الشامل للمسلمين بأسرهم (٣). هي كالشمس في المركز، والناس كالأجرام تسبح حولها. الكعبة ترمز لخلود الله ودوامه، وحركة الطائفين الدائرية تمثل النشاط الدائم، والسعي المتواصل، والحركة المستمرة. الكل يتمحورون حول الكعبة كشخصية معنوية واحدة، توحد غاياتهم، وتضئ لهم دروب الحياة، وتحذرهم من مزالق الطريق ومنعرجاته، بينما خارج محيط الكعبة يتشرذم الناس، وتصبح لكل منهم وجهة هو مولها (٤).

وطوافهم حول البيت هو معراج يلتحمون فيه ويندمجون، هو معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية باتجاه الحق، وفي طريق الخير العام. وكأن الطواف نهر يفيض بالحب والخير للبشرية كافة. هو استئناف

١- المصدر السابق: ١٢٤-١٢٥.

٢- المصدر السابق: ٩٧.

٣- المصدر السابق: ١٤٥-١٤٦.

٤- المصدر السابق: ١٠٣-١٠٤، ١٠٦.

ص: ١٣٤

لمسيرة إبراهيم رائد الحب والخير والحرية (١).

يقول شريعتي: «في العام الماضي حين كنت أطوف في شدة الزحام، تعرضت مراراً لتدافع شديد، فثرت منفعلًا، غاضبًا من هذا السلوك. غير أنني شعرت بالأسى والندم، ذلك أن الإنسان في هذه الحالة ينبغي أن ينسلخ من الأنا والذات، بينما ما زالت الأنا غاطسة في داخلها» (٢).

الطواف والسعي خلاصة شديدة لهجرة هاجر، ورحلتها الشاقة المضنية من أجل تشييد قواعد التوحيد. اختار الله تعالى هاجر الأمة، التي تقع في أدنى سلم الألقاب والمقامات، وما يسبغه الناس من تسميات وعناوين، تصنف المجتمع إلى طبقات ومراتب. اختارها لمهمة ربانية، تعد من أعظم المهمات في مسار النبوة. وفي ذلك دلالة صريحة على أن منظومة القيم والمعايير الربانية، لا تتطابق مع ما ينشده الناس، ويتواضعون على تبنيته في حياتهم. وتظل البشرية عبر الأجيال تقتفي خطى هاجر، وتكرز مسعاها. وتبقى أطياف هاجر، وظلالها، وأنفاسها، وزفرتها، يتردد صداها على الدوام.

ففي السعي يترسم الحاج درب هاجر، ويستلهم تجربتها، ويحرص على استئناف مسيرتها، ومحاكاتها بحذافيرها. السعي الذي يحكي ظمًا هاجر، هو تعبير عن ظمأ البشرية الأبدى للإيمان والحق، والعدل، والإحسان، والصدق، والحكمة، والحرية، والأمن، والجمال، والإيثار، والفداء، والحب، والتواضع، وكل قيم الخير والفضيلة. وافتقار البشرية إلى هذه القيم، واضمحلالها يعني انحطاطها وتفسخ مجتمعاتها. والسعي ممارسة، وإعداد تربوي، وتدريب عملي على تجذير هذه القيم، وتنميتها، وترسيخها.

لقد عالج شريعتي كافة ما يؤديه الحاج من شعائر، برؤية تتداخل فيها العقلية التحليلية الناقدة، ومخيلة الفنان، وأحاسيس الشاعر، وذوق المتصوف، وأشواق العارف، فاستغرق في تحليلات شتى، قد لا

١- المصدر السابق: ١١٧، ١٢٠، ١٢٥.

٢- معاد با إبراهيم موعد مع إبراهيم: ٤٣٨

ص: ١٣٥

نلتفت إليها في نظرة سريعة خاطفة، أو ملاحظة عامة ساذجة.

إلّا إنه راح يغرقنا أحياناً في تفسير إشارى باطنى، لا يلامس وعى وإدراك عامة الناس، ويعمد إلى استخدام مختلف الأدوات، المنتقاء من العلوم الإنسانية الحديثة، فضلاً عن خبرته، وذوقه الخاص، من أجل تأويله الرمزي للحج ومناسكه. وبالتالي تبقى رؤيته معبرة عن تجربته الخاصة، وهى لا-تعبّر بالضرورة عما سواه. ذلك أن لكل تجربته شروطها، وظروفها، والعناصر المكوّنة لها، والمنابع التى تستقى منها. فقد تشترك التجارب الروحية فى قواسم عامة، لكنها لن تتطابق.

دعاء

فيما يلي مقتطفات من دعاء بصياغة شريعتى، تتجلى فيه بوضوح أحلامه وما يطمح إليه من قيم وأخلاقيات، وما ينشده من نزعات معنوية وإنسانية ينبغى أن تسود الاجتماع الإسلامى:

إلهى: صن «عقيدتى» من «عقدتى».

إلهى: مكنى من احتمال العقيدة المخالفة.

إلهى: هبنى إيمان ((الطاعة المطلقة)) لك، لكى أخوض عالم العصيان المطلق.

إلهى: أجيح فى نار ((الشك)) المقدسة، حتّى إذا أحرقت كل ((يقين)) نقشوه فى داخلى، تشرق البسمة الحنون على شفتى فجر اليقين الذى لا غبار عليه.

إلهى: قل للماديين: إن الإنسان ليس بشجرة تحيا من غير وعى منها فى الطبيعة والتاريخ والمجتمع.

إلهى: علم مجتمعى بأن السبيل إليك، إنما يكون من الأرض، واهدنى يا إلهى، إلى السبيل الذى يختصر المسافات.

إلهى: علم المتدينين بأن الإنسان من تراب، وأن ظاهرة من مادة تفسر الله بقدر ظاهرة من غيب. فله وجود فى الدنيا يساوى وجوده فى الآخرة.

لقنهم أن الدين إن لم يسبق الموت فلا

ص: ١٣٦

معنى له ولا فائدة فيه بعد الموت.

يا رب:

هب روح المسؤولين للعلماء، والعلم للجاهلين، والنور للمؤمنين، والإيمان للمفكرين، والتفهم للمتعبين، والتعصب للفاهمين، والحس للنساء، والشرف للرجال، والوعى للشيوخ، والأصالة للشباب، والعقيدة للمربين، واليقظة للغافلين، والإرادة للمتيقظين.

هب الحقيقة للدعاة والمبلغين، والدين للمتدينين، والالتزام للكتّاب، والمعاناة للفنانين، والشعور للشعراء، والأمل لليائسين، والقوة للضعفاء، والجرأة للمحافظين المترددين، والقيام للقاعدين، والحركة للراكدين، والحياة للأموات، والبصر للعميان، والصحة للمعاقين، والصراخ للصامتين، والقرآن للمسلمين.

يارب:

هب الوحدة لديننا، والشفاء لحسادنا، والموضوعية للأتانيين والمغرورين منا، والأدب للسبابين منا، والصبر للمجاهدين، والوعى لعامة الناس، وهب للأمة: الهمة والتصميم والاستعداد للفداء من أجل التحرر والكرامة.

يارب:

اهدنى كى أقيم مجتمعى على هذه القواعد الثلاث: الكتاب، والميزان، والحديد، اللهم اجعل قلبى فياضاً بالحق والخير والجمال. اللهم زدنى إرادةً، وعلماً، وتمرداً، وغناً، وحيرةً، ووحدةً، وفداءً، وشفافيةً روح.

الهوامش

الحج والحجاج في كتب المستشرقين

إشارة

خالد الطويلي

بدأ اهتمام الغرب ببلاد العرب منذ القرن الخامس قبل الميلاد في كتب هيرودوتس وثيوفريست تلميذ أرسطو، ولاحقاً في القرنين الأول والثاني للميلاد عند الجغرافي اليوناني سترابون، والمؤرخ الروماني بليني. بعد ذلك لم يصف الكثير على ما كتب آنذاك، حتى جاء القرن الخامس عشر الميلادي وبدأ تدفق الرخالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية.

بقيت مكة المكرمة منذ نشأتها - وعلى مرّ العصور - مجهولة الملامح لغير العرب الذين كانوا يحجون إليها، وعصية على الغزو الأجنبي رغم محاولات أباطرة الروم وملوك فارس في حقب مختلفة، وكان عدم توافر معلومات واضحة عن الصحاري العربية من أهم الأسباب التي أحبطت أولئك الغزاة الذين راودتهم فكرة الغزو.

وخلال حقبة انتشار الإسلام في أوروبا، تفاقم ذلك الغموض الذي كان يحيط بمكة المكرمة وبالمدينة النبوية خصوصاً بالنسبة إلى أولئك الذين أرادوا معرفته ما يمكن عن منشأ الإسلام الذي ساق الجيوش إلى ديارهم. ولأنهم كانوا ممنوعين من دخولها، ولبعد المسافة ومشقة السفر وخطورة المغامرة، تمكنت المدينتان من الاحتفاظ بأسرارهما وغموضهما عبر كل ذلك التاريخ المتقلب، وبقي

ص: ١٣٩

حب المعرفة يدغدغ فضول المهتمين لاختراق حاجز سريتها ضمن مناطق جغرافية أخرى في المشرق اهتم بها تيار فكري غربى سمي بالاستشراق. وبتنوع خلفيات هؤلاء المهتمين وأهدافهم وتوجهاتهم وسبلهم ظل الحج الوسيلة الأمثل لتغلغلهم إلى داخل هذا المجتمع المنغلق أمامهم. أتقنوا اللغة العربية وانتحلوا شخصيات إسلامية فى سبيل هذه المعلومات رغم المخاطر التى كانت تحيط بهذا النوع من التسلل الذى أثار- حسب روايات بعضهم- ريبه أهل البلد وكاد يجلب الهلاك لهم، ولم يكن الفضول وحسب هو الذى أتى بهم جميعاً، فقد كان منهم الرحالة المستشرقون، وكان منهم الجواسيس، ومنهم من ساقتهم ظروف مختلفه كالعبودية وخلافها إلى الحج. وقد عرفنا منهم من تسنّت له العودة إلى بلده من دون أن يهلك وأن ينشر مذكراته عن تلك الرحلات، ومنهم الكثير ممن لم تصلنا أخبارهم.

ولبعد المسافه ومشقه السفر وخطورة المغامرة، تمكنت المدينتان من الاحتفاظ بأسرارهما وغموضهما عبر كل ذلك التاريخ المتقلب، وبقي حب المعرفة يدغدغ فضول المهتمين لاختراق حاجز سريتها ضمن مناطق جغرافية أخرى فى المشرق اهتم بها تيار فكري غربى سمي بالاستشراق.

وبتنوع خلفيات هؤلاء المهتمين وأهدافهم وتوجهاتهم وسبلهم ظل الحج الوسيلة الأمثل لتغلغلهم إلى داخل هذا المجتمع المنغلق أمامهم. أتقنوا اللغة العربية وانتحلوا شخصيات إسلامية فى سبيل هذه المعلومات رغم المخاطر التى كانت تحيط بهذا النوع من التسلل بدأ تدفق الرحالة المستشرقين إلى المنطقة خلال القرن الخامس عشر الميلادى فى إطار لايمكن عزله عن التطورات الدولية السياسية والعسكرية.

وكانت كتاباتهم عنها متباينه من حيث الالتزام بالموضوعية والحياد، ولكنها كانت تعكس اهتمام الأوروبيين المتزايد بالشرق عندما بدأت البوادر الأولى للصراع من

ص: ١٤٠

أجل السيطرة والتوسع، والذي بدأت إسبانيا والبرتغال، ثم هولندا وفرنسا وبريطانيا بوصفها قوى بحرية استطاعت الوصول إلى الشرق العربي والجزيرة العربية.

طلائعهم: ممالیک أو فی لباسهم

كان أول من ادعى الوصول إلى مكة المكرمة من المستشرقين جون كابوت عام ١٤٨٠ م. أي قبل ١٢ عاماً من سقوط الأندلس واكتشاف أمريكا، ولكن لم يصل إلينا أي شيء مما كتب عن تلك الرحلة. أما أول سجل وصلنا حول رحلة مستشرق إلى الحج فكان حول رجل إيطالي يدعى لودفيجودي فارتينا عام ١٥٠٣ م، دخلها بوصفه جندياً في حرس المماليك وانتحل لنفسه اسم «يونس المصري»، ويبدو أن تقمص شخصيه المملوك لفارتيما وغيره - كما سيأتي ذكره لاحقاً - كانت أكثر سهولة، كون كثير من المماليك كانوا من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام.

ص: ١٤١

أبحر فارتیما من البندیة عام ١٥٠٣ م، وزار كلّاً من الاسکندریة وطرابلس وأنطاکیة وبيروت ودمشق، وسارع منذ وصوله دمشق، إلى تعلّم اللغة العربیة، واستعدّ لاستئناف الرحلة جنوباً، ثمّ أمّن لنفسه مكاناً فی القافلة الذاهبة إلى مکه المکرمة، بعد أن عمل على عقد عری الصداقة مع أحد زعماء الممالیک الذی عینه حارساً من حراس القافلة.

وفی الثامن من أبريل ١٥٠٣ م تحرّك فارتیما إلى مکه المکرمة بزى جندى مملوك، وحينما وصل إلى المدينة بقى فيها ثلاثة أيام، ودخل الحرم الشريف، الذی یصفه وصفاً موجزاً، فیقول: «إنه مسجد مقبّب یدخل إليه من بايين كبيرين، ويحمل سقفه حوالى أربعمائه عمود من الآجر الأبيض، وفيه عدد كبير من المصاييح المعلّقة- الثريات- يناهز الثلاثة آلاف»، ويشير إلى وجود عدد من الكتب، فی جهة من جهات المسجد التی تحتوى على تعاليم الدين الإسلامی.

ويستهز فارتیما الفرصة لتصحيح الاعتقاد الشائع فی أوروبا آنذاك من أن جثمان النبی محمّد صلى الله عليه وآله معلق فی الفضاء، فیقول: «أما بخصوص هذه الأخبار فأنا أخالفها تماماً، وأؤكد أن هذا ليس صحيحاً». ویدكر فی الفصل الذی يتطرّق فيه إلى مکه المکرمة وتشييدها وإنشائها أنها مدينة جميلة تكتظ بالسكان، لأنها تحتوى على ستة آلاف أسرة. ودورها حسنة للغاية، «مثل دور الإيطاليين»، على حد تعبيره، ویدكر كذلك أن مکه المکرمة لم تكن مسورة، لأن أسوارها هی الجبال الطبیعية التی تحيط بها، ولها أربعة مداخل. وقد اندهش فارتیما من كثرة الحجاج الهائلة وتعدد جنسياتهم وقومياتهم، ممّا دفعه للقول: إنّه لم يجد مطلقاً، من قبل، مثل هذا العدد من الناس یجتمع فی بقعة واحدة من الأرض.

ویمضى الرحالة فی نقل انطباعاته ومشاهداته، فيذكر فی الفصل المخصص للحج من رحلته أن مركز مکه المکرمة یوجد فيه «معبد» جميل جداً، على حدّ

ص: ١٤٢

تعبيره، مبنى من اللبن المشوى، وللمسجد الحرام- أو المعبد كما يسميه- مئة باب، ثم يشير إلى وجود الكعبة الشريفة في الوسط من دون أن يذكر اسمها، ثم يصف بئر زمزم قائلاً: «إن سته أو سبعة رجال يقفون عادة حول البئر ليستقوا الماء للناس منها. وهؤلاء يريقون ثلاثة أسطل من ماء زمزم فوق كل حاج من الحجاج، فيتبلل به من قمّة الرأس إلى أخمص القدم، ولو كان لباسه من حرير».

ويظل القرن السادس عشر الذي كاد يطبع بصبغة برتغالية، شاهداً على محاولات أخرى، على هذا الصعيد وفي السياق نفسه. ففي يوليو ١٥٦٥ م حجّ إلى مكة المكرمة مملوك برتغالي الأصل مجهول الاسم. فكتب وصفاً دقيقاً عنها. رغم اختصاره واقتضاب ما جاء فيه. وقد اكتشف ما كتبه هذا المملوك في حاشية كتاب عربي موجود في مكتبة الفاتيكان برقم ٢١٧.

وفي الوقت نفسه تقريباً. وصل إلى مكة المكرمة رجل ألماني يسمى هانس وايلد كان الأتراك قد أخذوه أسيراً في هنغاريا، وسيق إلى مكة المكرمة، فلم يعد إلى ألمانيا إلّا سنة ١٦١١ م. وبعده بسنوات قليلة أسرفتيّ بندقي يدعى ماركو دي لومباردو وهو يعبر البحر الأبيض المتوسط بصحبة عمّه القبطان، فبعث به إلى مكة المكرمة من مصر مصاحباً لابن سيده. وقد دوّن أشياء طريفة عن سفرته.

أما جوزيف بيتس فهو شاب انجليزي يافع من أهالي أو كسفورد، وقصته طريفة وغير عادية. فقد كان هذا البريطاني شديد التعلّق بالبحر، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره التحق بسفينة كانت متوجهة إلى أمريكا عام ١٦٧٨ م، وفي طريق العودة. على مقربة من الشواطئ الإسبانية، هاجم قراصنة جزائريون السفينة وأسروا أعضاء الطاقم ونقلوهم إلى العاصمة الجزائرية، حيث بيعوا في السوق عبيداً.

قام بيتس برفقة سيده الجزائري بالحج إلى مكة والمدينة في أواخر القرن السابع عشر. ثم تمكّن من الفرار، ونشر قصة رحلته تلك في بريطانيا سنة

ص: ١٤٣

١٧٠٤ م، وهى قصة فيها بعض الأخطاء والمبالغات الشائعة فى الكتب المعاصرة له. ولكن الكتاب وعنوانه «وصف أمين لديانة وأخلاق المحمدين» اجتذب اهتماماً كبيراً. فقد كان بيتس من أوائل الإنجليز الذين دخلوا شبه الجزيرة العربية ووصفوا شعبها، والأماكن المقدسة فيها، وشعائر الحج فى مكة، وقد زار كذلك قبر النبى صلى الله عليه وآله، ونفى كما فعل فارتينا من قبله حكاية أن القبر معلق فى الهواء، ويبدو أن هذه القصة كانت شائعة فى أوروبا عن الجسد الشريف حتى أتى على نفيها أكثر من رحالة.

ويمضى بيتس فى وصف قافلة الحجاج، وهو ينتقل بمعينه سيده من القاهرة إلى السويس، ومنها إلى مرفأ صغير بين ينبع وجدة، ومن هناك استخدموا الجمال للوصول إلى مكة المكرمة ودامت إقامتهما هناك شهرين، وكان بيتس يرافق معلمه كل يوم فى جولة حول المدينة، ويسجل فى ذهنه صور المباني وعادات الأهالى الدينية. وكان الجهد الذى بذله لتسجيل كل هذه التفاصيل مميّزاً.

ويقدم بيتس انطباعاته حول مكة المكرمة، فيقول: إنه لم يجد فيها شيئاً مثيراً أو مبهجاً. ولم يعجبه سكان مكة أيضاً، فهم فقراء ميالون إلى النحافة والهزال، ثم استرعى انتباهه «المتصوفون» (الدراويش) الذين يعيشون حياة الزهد والتسكك ويسافرون من أدنى البلاد إلى أقصاها، وهم يعيشون على صدقات الآخرين، يلبس الواحد منهم قفطاناً أبيض وقبعة طويلة بيضاء وعلى ظهر الواحد منهم جلد ضأن أو ماعز يرقد عليه، وفى يده يحمل عصا طويلة.

ويذكر - خلال وصفه للحج ومناسكه - أن سلطان مكة يقوم شخصياً بغسل الكعبة بماء زمزم، ثم بالماء المطيب المعطر. «وحيثما يقومون بهذه العملية ترفع السلالم التى تؤدى إلى بيت الله، ولذلك يحتشد الناس تحت الباب ليدفع ماء الغسيل

ص: ١٤٤

عليهم حتى يتبللوا به من الرأس إلى القدم. ثم تقطع المكائن التي يكنس بها البيت قطعاً صغيرة، وترمى عليهم فيتلافونها، ومن يفرز بقطعه منها يحتفظ بها كأثر».

ويضيف: «إن مكة كان فيها ماء كثير، لكنها خالية من العشب والزرع إلا في بعض الأماكن». على أنه وجد فيها عدة أنواع من الفاكهة متوفرة للناس مثل العنب والبطيخ والخيار والقرع وما أشبه. وهذه يؤتى بها في العادة من مكان يقع على مسيرة يومين أو ثلاثة ربما قصد به الطائف.

الرحلات المحضرة بعناية

وفي عام ١٨٠٧ م وصل الحجاز رجل إسباني الأصل يدعى دومنيكو باديا أي ليليج، ليتحل اسماً ونسباً عربياً «على بك العباسي»، وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذا الرجل، فقد يكون عميلاً للفرنسيين أو البرتغاليين أو ربما الإنجليز.

وهناك من يذهب إلى أنه كان جاسوساً لسلطان مصر محمد علي باشا، الذي كان يجهز لحملة على الحجاز. على كل، فإن على بك العباسي كان أول أوروبي احتك بالناس عن قرب من موقع لم يثر حساسيتهم. وكان لادعائه النسب العباسي، وتأكيده لشريف مكة بأنه كان واحداً من عائلتهم الوجه الذي دخل به قلوب الناس.

سعى على بك إلى توخي الدقة في كتاباته. فهو يصف بالتفصيل الأروقة المعمدة والقباب والمآذن في المسجد الحرام، ويخبرنا عن الأماكن المبلطة والأماكن ذات الأرض الرملية. ويميز الأماكن التي تخص أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة في أرجاء الحرم. ويأتي بعد ذلك على إيراد تفاصيل أخرى عن مناسك الحج، فيحدث قراءه عن رمي الجمرات ويشرح رمزياتها.

ولم يكتف على بك بزيارته الأولى، فعادر دمشق عام ١٨١٨ م، متجهاً إلى

ص: ١٤٥

زيارة مكة المكرمة للمرة الثانية ولكنه توفي على الطريق، وتقول التقارير البريطانية: إن وفاته كانت بسبب مرض الديزنتاريا. في حين أن التقارير الفرنسية تؤكد بأنه قتل مسموماً من قبل البريطانيين.

بقى أن نشير إلى أن رحلات علي بك قد طبعت بالإنجليزية عام ١٨١٦ م، تحت عنوان «رحلات علي بك في المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية وسوريا وتركيا ١٨٠٣-١٨٠٧ م»، وأعيد طبعها في لندن عام ١٩٩٣ م.

أما الرحالة الثاني الذي قام بمهمة مشابهة، فهو الألماني أولريخ سيتزن.

غير أن المعلومات عنه موجزة جداً. ولد عام ١٧٦٧ م، ونجهل الكثير عن نشأته وحياته، وكل ما نعرفه أنه قضى عشرين سنة يدرس ويتأهب لرحلته إلى الشرق. فجاء إلى سوريا سنة ١٨٠٥ م وأقام فيها بضع سنين، وكتب في رحلته كتاباً قيماً باللغة الألمانية قبل أن يعلن إسلامه ويتوجه إلى أداء فريضة الحج.

فسافر إلى الحجاز، في زى درويش اسمه «الحاج موسى»، ودخل مكة حاجاً سنة ١٨١٠ م.

وزار الحجاز عدد آخر من الأوروبيين الرحالة بعد ذلك. وقد كانت حملة الخديوى محمد على باشا على الحجاز، سبباً في دخول عدد من الأوروبيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضي المقدسة وزيارتهم مكة والمدينة، ومنهم السويسرى بيركهارت، والإيطالى فيناتى، والجندي الأسكتلندى توماس.

أما فيناتى، فهو رجل من أهالى فيرارا فى إيطاليا، وقد قدّر له بعد مغامرات عدة، أن يحجّ إلى مكة المكرمة فى ١٨١٤ م، وقد اتخذ محمداً اسماً. كل ما لدينا من معلومات عنه، أنه سيق إلى الجنديّة فى بلدته سنة ١٨٠٥ م. ففرّ منها إلى ألبانيا، وعمل عند أحد الباشوات الأتراك فيها، واعتنق الإسلام.

ص: ١٤٦

ثم توجه إلى اسطنبول، وبعد مغامرات وتقلبات عدّة وصل إلى القاهرة في عام ١٨٠٩ م، وانخرط في سلك الحرس الألباني. ثم فرّ من الجندية عام ١٨١٤ م وتوجه إلى مكة المكرمة، فحجّ فيها. وكتب عن ما شاهده بالتفصيل، ومنه قوله: «ولما كنت مسروراً لنجاحي في الفرار، كنت في وضع فكري يتقبّل الكثير من الانطباعات القويّة. ولذلك تأثرت كثيراً بجميع ما رأيت عندما دخلت البلد (يقصد مكة)، لأنها وإن لم تكن واسعة ولا جميلة بحدّ ذاتها، فقد كان فيها شيء يبعث على الرهبة والاندعاش. وكان ذلك يلاحظ على الأخص عند الظهيرة، حينما يهدأ كل شيء تمام الهدوء، إلا المؤذن الذي يدعو الناس إلى الصلاة من فوق المأذنة».

وفي الوقت الذي كان فيه فيناتي يقوم برحلة الحج إلى مكة، كان هناك مستشرق آخر يُعدّ من أشهر رحالي القرن التاسع عشر وأغزرهم علماً وثقافةً وأبعدهم صيتاً وشهرةً، يشارك في موسم الحج ذاته، متخفياً تحت اسم مستعار وهو «الشيخ إبراهيم».. ذلك هو الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت

ويمضي فيناتي في وصف البيت الحرام والكعبة معلقاً على ازدحام الناس في مكة، وكثرة الحجاج فيها فيقول: «وصلت إلى مكة، منذ أن أتيت إليها، قافلتان كبيرتان، إحداهما من آسيا والأخرى من إفريقيا، يبلغ عدد القادمين فيهما حوالي أربعين ألف شخص، كان يبدو عليهم كلهم مقدار ما يكتونه في نفوسهم من الاحترام والتقديس للبيت الحرام».

عصر كبار المستشرقين

وفي الوقت الذي كان فيه فيناتي يقوم برحلة الحج إلى مكة، كان هناك مستشرق آخر يُعدّ من أشهر رحالي القرن التاسع عشر وأغزرهم علماً وثقافةً وأبعدهم صيتاً وشهرةً، يشارك في موسم الحج ذاته، متخفياً تحت اسم مستعار

ص: ١٤٧

وهو «الشيخ إبراهيم».. ذلك هو الرحالة السويسري جون لويس بيركهارت الذي نزل في جدة في الثامن عشر من يوليو ١٨١٤ م. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوى محمد على باشا، ثم قصد مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

قبل أن يرحل بيركهارت إلى الحج، قرر أن يعدّ نفسه إعداداً كافياً لتلك الحياة المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التي تنتظره. فالتحق بجامعة كمبردج عام ١٨٠٨ م لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم أخرى. ثم قصد حلب حيث قرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامى، ثم اعتنقه عام ١٨٠٩ م وتسمى بإبراهيم بن عبد الله، وراح يعود نفسه على الحياة الصعبة، فهجر حياة الترف، وبات ينام على الأرض.

وصل بيركهارت إلى مكة، في ٨ سبتمبر ١٨١٤ م، وكانت معرفته باللغة العربية، واطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعده على إنجاز مهامه بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكة خلال موسم الحج كله، ويشارك في مناسكه وشعائره، من دون أن يثير أية شكوك.. وكان بيركهارت نفسه يقول: إنه من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد على باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته، وشخصية المملوكى والدرويش كانت مناسبة للتخفى بين الحجيح بالنسبة لرجل أوروبى كما فعل فارتيماس قبل، والملاحظ مما كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته في مكة كانت

ص: ١٤٨

مريضة جداً، إذ يقول: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتى عشتها في مكة. وسأحتفظ بذكريات جميلة عن إقامتي هنا».

ولا شك أن بيركهارت لم يضع وقته سيدي، إذ وضع ٣٥٠ صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها.. وترك وصفاً مفصلاً لبيت الله الحرام، خلال ليالى شهر رمضان عندما «تلتهم آلاف الفوانيس فى أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمه الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام».

إن مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تشكل مانعاً حصيناً ضد العدو. وقد كان لها فى الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمى جوانبها

ومن طريف ما يورده بيركهارت، فى هذا الفصل، قائمه بأسماء الأبواب الموجودة فى المسجد الحرام تحتوى على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. ويضيف فى وصفه لمكة المكرمة: «إنها يمكن أن تعتبر بلدة جميلة، لأن شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام.

وبيوتها عالية مبنية بالحجر. فيها عدد من الشبايك التى تطل على الشوارع فتسبغ عليها منظرًا مليئًا بالحيوية، بخلاف الدور فى مصر وسوريا، التى لا تطل على الطرق فى الغالب، وهى مثل جدّة، تحتوى على عدد من الدور ذوات ثلاثة طوابق». ويقول كذلك: «إن مكة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تشكل مانعاً حصيناً ضد العدو. وقد كان لها فى الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمى جوانبها».

ويمضى بيركهارت فى التطرق إلى العديد من التفاصيل، كالماء الذى يعتمد عليه سكان مكة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التى يسهب فى سرد تاريخها وما شهدته

ص: ١٤٩

من ترميم وإصلاح على مرّ التاريخ. كما يصف محلات مكة التجارية وأسواقها وأدق التفاصيل الأخرى عن حاراتها ومطوّفها وسفوحها، وأجهزتها الإدارية، وأماكنها التاريخية.

قدّر بيركهارت عدد سكان مكة في غير مواسم الحج، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، ثم يقول: «إن مكة كان بوسعها، في تلك الأيام، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً». ويضيف في حديثه عن السكان أن جلّهم غرباء وأجانب عنها. من أهالي اليمن و حضرموت. وكان يليهم في العدد أبناء الهنود والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان هناك أيضاً مكّيون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردي. ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً.

في منتصف يناير ١٨١٥ م، غادر بيركهارت مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء (المالاريا)، حتى أصابه اليأس من نفسه. وظنّ أنه سيقضى نحبه في المدينة فيقبر فيها. لكنه مع ذلك استطاع أن يكتب عدّة فصول عنها في الجزء الثاني من رحلته. غير أن هذه الكتابات بقيت أقل شموليّة من كتاباته عن مكة.

وفي صبيحة يوم الخامس والعشرين من يوليو ١٨٥٣ م، وصل المدينة المنورة بريطاني متنكّر باسم «الحاج عبدالله»، ليغدو هو الآخر أحد أبرز الرّحالة الأوروبيين الذين استشرقوا.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى السير ريتشارد فرنسيس بيرتون الذي كان يعمل موظفاً في شركة الهند الشرقية المعروفة، ورحل إلى إفريقيا والهند وسوريا وشمال إفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التي ظلّت بين هذه جميعاً - كما قال هو نفسه -: «البلاد التي تولّعت بها».

ص: ١٥٠

استعدّ بيرتون - كما فعل بيركهارت - من قبل أن يقدم على رحلته الخطرة بأشهر عديدة، واتخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام، حتى أنه عمد إلى الاختتان وهو يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره! وخلع عنه ثيابه الأوروبية، واستبدلها بملابس مسلم أفغانى في طريقه إلى أداء فريضة الحج، وتسمى باسم الحاج عبدالله. وقد وصف لنا بيرتون بدقة رحلته هذه في كتاب ممتع من جزأين ضخمين هو «الحج إلى المدينة ومكة».

وفى طريقه إلى الشرق، كان بيرتون يعمل على إتقان دوره كمسلم فى تفاصيل الحياة اليومية للمسلم، منتحلاً شخصية نبيل فارسى بداية الأمر، ثم شخصية درويش متجول. وعن سبب إقدامه على هذه الخطوة. يقول بيرتون: «ليس هنالك من شخصية مناسبة للتخفى فى العالم الإسلامى أكثر من شخصية الدرويش، فهذه الشخصية يمكن لأى رجل من أية طبقة أن يتلبسها، من أى عمر أو من أى مذهب. كما يسمح للدرويش بتجاوز أو تجاهل أصول الأدب والمعاملة كأشخاص قد انسلخوا عن المجتمع، وتوقفوا عن الظهور على مسرح الحياة».

وصل بيرتون إلى المدينة المنورة أولاً، وكتب عن تشكيلات خدم الحرم النبوى، وما يلبث أن يقارنها بما قرأه عند بيركهارت. ويعلمنا بيرتون أن حجم المدينة المنورة حين زارها كان أكبر بمرّة وثلاث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكة، وهى عبارة عن مكان مسور يؤلف شكلاً بيضاوياً غير منتظم.

ولها أربع بوابات.. وهناك عمارات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفى داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكعون. ثم يصف البنايات العامة فيقول: إن هناك أربع خانات كبيرة وبضع مقاه صغيرة، وحماماً ممتازاً، ويقدر السكان ب ١٦ ألف نسمة.

ص: ١٥١

ومن المستشرقين الذين قاموا بالحج بغرض التجسس، أو التعرف على أحوال مواطني مستعمرات بلادهم، الهولندي سنوك هورخنيه الذى كان أستاذاً للغه العربيه فى جامعه لندن

فى ١١ سبتمبر ١٨٥٣ م، وصل بيرتون إلى مكه المكرمه بعد رحله متعبه حافله بالمخاطر؛ ليستقر به المقام فى بيت مرافقه محمد البسيونى الذى كان دليله ومرافقه منذ بدايه الرحله.

يقول بيرتون عن مكه حينما وصلها لأول مره: إنه لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيق المتناسق الذى يتجلى فى آثار اليونان وإيطاليا، (وهذا دليل على التحول الذى طرأ على معمار مكه فى الفتره ما بين زياره فارتيمى الذى وصف دورها بأنها تشبه الدور الإيطاليه، وبين زياره بيرتون لها) ولا الفخامه المتجلبه فى أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً بالنسبه إليه، وكتب: «لكننى لم أر مثل هذه المشاهد المهيبه والرائعه فى أى مكان آخر».

ومن المستشرقين الذين قاموا بالحج بغرض التجسس، أو التعرف على أحوال مواطني مستعمرات بلادهم، الهولندي سنوك هورخنيه الذى كان أستاذاً للغه العربيه فى جامعه لندن، وعاش ١٧ عاماً فى جزر الهند الشرقيه (أندونيسيا)، ثم زار مكه وبقي فيها سته أشهر بين العامين ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م.

وتزامنت هذه الزياره مع قيام حركات مقاومه للاستعمار الهولندى فى تلك الجزر الآسيويه التى يحج منها عشرات الآلاف إلى مكه سنوياً، وكان الهدف منها التعرف على المؤثرات التى تدفع الثوار إلى العصيان بشكل خاص بعد عودتهم من مكه. والتقط هورخنيه آنذاك كميه كبيره من الصور الفوتوغرافيه لمواطني هذه الجزر إضافه إلى أماكن عديده فى مكه وجوارها.

إن قائمه الأوروبيين الذين زاروا مكه المكرمه طويله فى الحقيقه، إذ تضم إضافه إلى المشاهير الذين ذكرناهم عدداً أكبر ممن هم أقل شهرة، وبشكل عام

ص: ١٥٢

يمكن القول: إن ملاحظات هؤلاء اختلفت بمرور الزمن. فقد كان الأوائل منهم أكثر اهتماماً بشرح تفاصيل الدين ومناسك الحج. وتعبيراتهم تطبعها الدهشة وأحياناً الانبهار وأحياناً التعصب الديني. كما أن الأوائل ركزوا على دحض الأخطاء والخرافات الرائجة في أوروبا عن الدين الإسلامي ومقدساته.

إن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويله في الحقيقة، إذ تضم إضافة إلى المشاهير الذين ذكرناهم عدداً أكبر ممن هم أقل شهرة

أما المتأخرون منهم، فقد ذهبوا إلى وصف أدق لحال سكان مكة والمدينة، والحجاج وتركيباتهم الإثنية وأعدادهم وطبقاتهم وأحوالهم المادية والسياسية والاجتماعية، كما تركّز وصفهم للمدينتين على ذكر تحصيناتهما مصادر المؤونة والماء فيهما، كما استغل رحالة كل بلد أوروبى فرصة الحج للتجسس على حجاج مستعمرات بلده.

وقد كانت هناك بضع عوامل مشتركة بين هؤلاء الرحالة الأوائل منهم أو المتأخرين. فقد شاع بينهم تقمّص شخصيات يسهل لهم التسلّل عبرها و تبرير سحتتهم الأوروبية من خلالها مثل جنود المماليك، أو تصرفاتهم الغريبة مثل الدراويش. كما أن جميعهم تعلّم اللغة العربية وأجادها واستعدّ للرحلة وتعلم الدروس ممن سبقوه إليها بفطنة شديدة.

ص: ١٥٣

الصحابي عبد الله بن رواحة

إشارة

من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه

محمد سليمان

ظلت ومازالت الصحبة ومدرستها النبوية المقدسة شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وظل الصحابي الصادق المخلص ومازال غصناً يانعاً مباركاً، وينوعاً لا يعرف النضوب، ومادام ملتزماً بمبادئ هذه المدرسة الربانية وبسيرتها وأخلاقها ومناهجها، ومادام وفياً لصاحبها ومؤسسها رسول الرحمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

فالصحبة نبع ثر وبضاعة لا تبور، تغني تراثنا وأجيالنا وموائدنا العلمية والعبادية والأدبية والأخلاقية من خزينها وما ورثته لنا من خير عميم وعطاء جزيل وعلم نافع وتضحية كبيرة... لا يمكننا الاستغناء عنها وعن تاريخها الحافل بكل معنى جميل وقيمة عالية، أما رواد هذه المدرسة فقد اختلفت منازلهم، فشأنهم شأن كل التلاميذ والطلبة، منهم الجاد والمخلص في استيعاب دروسها ومبادئها، ومنهم دون ذلك، ومنهم المتخلف عنها حتى صار عالماً عليها بل ظلّ مسيئاً إليها، فالصحابه ليسوا كلّهم في الفضل سواء وإن زعمنا هذا فهو ظلم للمدرسة ولصاحبها ولزوادها المخلصين. وكيف نزع هذا لهم وقد فضّل الله تعالى الرسل بعضهم على بعض وهم الأفضل والأكرم والأقرب إليه تعالى من غيرهم، فقال:

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض»

؟! والتفضيل حالة توافق طبيعة

ص: ١٥٤

الأشياء، فما من شيء في الدنيا إلّا والتفاضل جارٍ فيه.

ولا يضرّ هذه المدرسة السماوية بل ولا يفيدها من انحرف عنها وشطّت به قدماء بعيداً عن أسسها ومتبنياتها، كما لا يضر ذلك في سمعة الصحابة الآخرين الذين أجزم أنّ بعضهم كان صناعه خاصه، أعدّتهم السماء واختارتهم وتفضّلت بهم علينا جميعاً؛ ليصوغوا لنا تأريخاً مليئاً بكلّ معاني الخير، وحاضراً كلّ عطاء، ومستقبلاً زاهراً بالأمل مشرقاً بالحب، بعيداً عن العداوة والبغضاء.

إنّهم بحقّ جيلٌ قد لا يكون له نظير فيما مضى من تأريخ الرسالات وفيما هو آتٍ إلّا عند القلّة القليلة النادرة.

فهيّتّهم هذه المدرسة، وصاغتهم لتبليغ أعظم رسالة سماوية وأعظم دين خاتم للديانات، فغيروا أمّة جاهليّة بل غيروا أمماً أخرى فتغيّر وجه التاريخ، فاستحقوا بذلك العظيم في الدنيا والآخرة، وغدوا من ورثة جنّة النعيم، يتبوأون فيها غرفاً، وينعمون بها، ويمرحون في بحبوحة منها.

ولا غرابة في ذلك بعد أن أحبوا الله ورسوله، وطلبوا رضوانه تعالى وملئوا شوقاً إلى لقائه، يطلبون الموت ويتحاثّون عليه.

كم كانت تريبتك يا رسول الله لهذه النخبة الطيبة نافعة خالدة!

وكم كان حبهم واحتفاؤهم بك يا رسول الله عظيماً صادقاً حتى شهد به أبو سفيان وهو يعيش العدا كلاً والكراهية كلّها لرسول الله ودينه وصحبه:

ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كما يحبّ أصحاب

ص: ١٥٥

محمّد محمداً!

ونحن ما إن ننتهي من تاريخ واحد منهم حتى ندخل تاريخ آخر يكمل الصورة المشرقة لهذه المدرسة ولهذه الصحبة ولما تتوفر عليه من مبادئ وقيم عالية.

والصحابي الذي بين أيدينا هو واحد من الذين لم يفتأ سيفهم يطارد فلول الوثنية المقهورة وأذيالهم المدحورة، وانجلت فروسيته ومضاؤه في معارك الإسلام الكبرى في معركة بدر وفي معركة أحد وفي الخندق ويوم الحديبية وخيبر، وهو ينتضي سيفيه الباترين - كما يعبر السيد الجميلي - سيف في يده، وآخر في لسانه، فأخذ يحصد أعداءه ويضرب الباطل فيهم على أم رأسه في غير هوادة أو رحمة (١).

إنّ الصحابي الجليل، المؤمن المجاهد، والكاتب الشاعر، الخزرجي: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، هذا نسبه من أبيه وقد وقع فيه اختلاف.

كم كانت تربيتك يا رسول الله لهذه النخبة الطيبة نافعة خالدة!
وكم كان حبهم واحتفاؤهم بك يا رسول الله عظيماً صادقاً حتى شهد به أبو سفيان وهو يعيش العداء كلّه والكراهية كلّها لرسول الله ودينه وصحبه:

ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كما يحبّ أصحاب محمّد محمداً!

أمّا نسبه من أمّه، فهي كبشة بنت واقد بن عمرو بن الإطناة ابن عامر بن زيد مناة.

وأمّا كنيته فهو يكنّى ب (أبو محمد)، ويقال له: أبو رواحة، ويقال له أيضاً: أبو عمرو الأنصاري.

١- صحابة النبي صلى الله عليه وآله للدكتور السيد الجميلي: ٢٦٤.

ص: ١٥٦

إسلامه

كان من الذين منَّ الله تعالى عليهم، يوم العقبة الأولى، حيث شهدا مبايعاً رسول الله صلى الله عليه وآله مع نخبة من الخزرج، وشهدا نقيباً حيث كان من الاثنى عشر نقيباً، ولم يكتف بهذا، بل شهد العقبة الثانية مع جمع كبير من الأنصار والذين كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

وكان واحداً ممن اعترضوا ناقه رسول الله حين وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج - وكان هذا يوم اعتراض القبائل في يثرب لناقته رسول الله صلى الله عليه وآله تبتغي نزولها عندها - فاعترضها منهم سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، وعبدالله بن رواحة في رجال من بنى الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة، فقال لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فانطلقت... وكان له موقف آخر يتصف بالقوة والرغبة العظيمة في سماع آيات القرآن وما يبشر به رسول الله صلى الله عليه وآله وينذر:

فعن زيد بن حارثة قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى سعد بن عبادة يعود من شكوى أصابه على حمار عليه إكاف، فوقه قطيفة فديكة، مختطمة بحبل من ليف، وأردفني رسول الله صلى الله عليه وآله خلفه، قال: فمر بعبد الله بن أبي، وهو في ظل مزاحم أطمه (الحصن، وأطام المدينة سطوحها...)، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله تدمم أي استنكف واستحيا من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم، ثم جلس قليلاً فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر. وهو زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من مقالته، قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغته به

[أي لا تثقل عليه]

[ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.]

وهنا انبرى عبدالله بن رواحة قائلاً في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى، فاعشنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا. ثم واصل كلامه هذا قائلاً:

ص: ١٥٧

فهو والله ممّا نحبّ، وممّا أكرمنا الله به وهدانا له.

فما كان من عبدالله بن أبي حيث رأى - بعد مقالته عبد الله بن رواحه - من خلاف قومه ما رأى، إلّا أن أنشد قائلاً:

متى ما يكنّ مولاك خصمك لا تزل تذلّ ويصرعك الذين تصارع!

وهل ينهض البازي بغير جناحه وإن جُدَّ يوماً ريشه فهو واقع (١)

وكان عبد الله بن رواحه ممّن شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية من الأنصار وهم: عوف ومعوذ بن الحارث وأمهما عفراء، وعبدالله

بن رواحه خرجوا لمقاتلة عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من رجال قريش المشركين الذين دعوا المسلمين إلى المبارزة

في أول وقعة بدر الكبرى، فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

وكان عبد الله بن رواحه ممّن شهدوا معركة بدر، وهو من الفتية من الأنصار

ثم نادى مُناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

وكأنهم لم يروا في فتية الأنصار أكفاء لهم.

فقال صلى الله عليه وآله: قم يا عبيدة بن الحارث!

وقم يا حمزة!

وقم يا علي!

فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسنّ القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي

الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم

ص: ١٥٨

يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيده وعتبه بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكثر حمزه وعلى بأسيا فهما على عتبه فذقنا عليه أي أسرعا قتله. واحتملا صاحبهما فحازاه الى أصحابه.

وفى رواية أن عتبه بن ربيعة قال للفتية من الأنصار وكان منهم - كما قلنا - ابن رواحه حين انتسبوا: أكفاء كرام، إنما نريد قومنا (١). ثم خاض الجميع معركة بدر وحققوا نصراً عظيماً.

وشهد - بعد ذلك - معارك الإسلام الأخرى، معركة أحد ومعركة الخندق ويوم الحديبية وخير مقاتلاً عنيداً، وشهد مؤتة في غزوة الأمراء أميراً ثم شهيداً.

وكان هذا الصحابي الجليل - إضافةً إلى كونه شاعراً بارزاً - كان كاتباً، فهو من القلّة الذين يجيدون الكتابة في الجاهلية حيث كانت الكتابة في العرب قليلاً.

رحم الله ابن رواحه، كان أينما أدركته الصلاة أناخ وقد كلفه رسول الله صلى الله عليه وآله بمسؤوليات عديدة، منها أنه قدّمه في بدر يشرّ أهل العالیه بما فتح الله عليه، والعالیه: بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل.

واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينة حين خرج إلى غزوة بدر الوعد. وبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله سريّة في ثلاثين راكباً إلى أسير بن زارم اليهودى بخير فقتله، ثم بعثه الى خير خارصاً كما يأتينا.

وَمِمَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهِ:

رحم الله ابن رواحه، كان أينما أدركته الصلاة أناخ. إنّه سيلقى حجّته، فعن أنس أنّه قال:

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر فأصابنا مطر ورداغ [والردغ والردغة والردغة: الماء والطين والوحل الكثير الشديد، والجمع، رداغ وردغ. أنظر

ص: ١٥٩

اللسان: ردغ

[. فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نصلي على ظهور رواحلنا.

قال: ففعلنا، ونزل ابن رواحه فصلى في الأرض.

قال: فسعى به رجل من القوم فقال: يا رسول الله أمرت الناس يصلون على ظهور رواحلهم ففعلوا، ونزل ابن رواحه فصلى في الأرض.

قال: فبعث إليه فقال: ليأتينكم وقد لقي حجتة.

قال: فأتاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ابن رواحه، أمرت الناس أن يصلوا على ظهور رواحلهم، نزلت وصليت في الأرض!

قال: فقال: يا رسول الله؛ لأنك تسعى في رقبة قد فكها الله، وإنما أنا نزلت لأسعى في رقبة لم تفك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألم أقل لكم إنه سيلقى حجتة؟!

وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في سرية، فأدركته الصلاة وهو على ظهر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله

آله على ظهر، ونزل ابن رواحه فصلى بالأرض، ثم أتى النبي صلى الله عليه وآله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا ابن رواحه، أرغبت

عن صلاتي؟!

قال: لست مثلك، إنك تسعى في عتي ونحن نسعى في رق، فلم يعب عليه ما صنع.

وقد فرّق أو ميز رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا بين ابن رواحه ورجل آخر، حين خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في سرية

فصلى بأصحابه على ظهر، فاقتحم رجل من الناس فصلى على الأرض، فقال: خالف خالف الله به، فما مات حتى خرج من الإسلام.

وفرق كبير بين هذا وذاك، فذاك رجل اختبر رسول الله - كما يبدو - إيمانه وإخلاصه... فيما ظهر نفاق هذا وبعده عن الإيمان.

ص: ١٦٠

ابن رواحة وآيات قرآنية:

في رواية: لما نزلت الآية:

«والشعراء يتبعهم الغاؤون» (١)

قال عبدالله بن

رواحه: قد علم الله أنني منهم، فأنزل الله عز وجل:

«إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» (٢).

حتى ختم الآية.

وعن ابن عباس أن الآية المباركة

«إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا» (٣).

نزلت في جماعة كان منهم عبدالله بن رواحة.

لقد انقبضت أسارير وجهه حيث نزول الآية الأولى، واعتَمَّ غمّاً عظيماً وذهبت به الظنون كل مذهب حتى نزلت الآية الأخرى، التي أزالَتْ عن صدره هذه الظنون وذلك الغم.

وفي قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَّانٌ مَرصُوصٌ» (٤)

. في نفر من الأنصار منهم عبدالله بن رواحة. قالوا في مجلس: لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملنا به حتى نموت، فلما نزلت فيهم، قال ابن رواحة: ولا أزال حبيساً في سبيل الله عز وجل حتى أموت، فقتل شهيداً رحمه الله عليه.

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى نفر من أصحابه فيهم عبدالله بن رواحة يذكرهم الله، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله سكت، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ذكر أصحابك،

١- الشعراء: ٢٢٤.

٢- الشعراء: ٢٢٧.

٣- الشعراء: ٢٢٧.

٤- الصف: ٢-٤.

ص: ١٦١

فقال: يا رسول الله، أنت أحق مني.

قال: أما إنكم الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معهم، ثم تلا عليهم:

«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم» (١).

الآية إلى آخرها.

قال: وما قعد عِدَّتكم قط يذكرون الله إلّا قعد معهم عددهم من الملائكة. فإن حمدوا الله حمدوه، وإن استغفروا الله آمنوا، ثم عرجوا

إلى ربهم، فسألهم وهو أعلم منهم، فقال: أين ومن أين؟

قالوا: ربنا، عبيد لك من أهل الأرض ذكروك فذكرناك.

قال: ويقولون: ماذا؟

قالوا: ربنا حمدوك، فقال: أول من عبد وآخر من حمد.

قالوا: وسبحوك.

قال: مدحى لا ينبغي لأحد غيرى.

قالوا: كبروك.

قال: لى الكبرياء فى السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم.

قالوا: ربنا استغفروك.

قال: إني أشهدكم أنى قد غفرت لهم.

قالوا: ربنا فيهم فلان وفلان؟!

ص: ١٦٢

قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

- وفي الآية

«لأمة مؤمنة خير من مشرك ولو أعجبكم» (١)

. عن ابن عباس أنها نزلت في عبدالله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء، وإنه غضب عليها فلطمها، ثم إنه فرغ فأتى النبي صلى الله عليه وآله فأخبره خبرها.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ما هي يا عبدالله؟

قال: هي تصوم، وتصلى، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله.

فقال: يا عبدالله هذه مؤمنة.

فقال عبدالله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها. ففعل.

فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم.

فأنزل الله تعالى فيهم:

«ولأمة مؤمنة خير من مشرك ولو أعجبكم»

ابن رواحة ثالث ثلاثة شعراء

كان ابن رواحة شاعراً مجيداً، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من شعره، وغيّده واحد من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية المباركة، ونالوا منها حظاً وافراً، وموقعاً إعلامياً ضرورياً، لا تستغنى عنه أى حركة تغييرية خاصة فى بيئة كتلك التى احتلّ فيها الأدب والشعر بالذات مكانة مرموقة، بل دخل كلّ معالم ومفاصل حياتهم ونواحيها المتعددة حتى غدا وسيلتهم الإعلامية الأولى والمحبة، التى يتجاوبون ويتفاعلون معها، فهى التى تخاطب عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، كما أنهما، أى الشعر والنثر - إضافة الى أنهما وسيلتان إعلاميتان مهمتان - مدرستان تثقيفيتان متنقلتان تربيان النفوس، بما تحمّلانه من معان حسنة أو سيئة؛ لهذا ولغيره راحت المدرسة النبوية تستثمرهما - بعد تهذيبهما من شوائب الجاهلية - فى

ص: ١٦٣

خدمة الإسلام ودعوته الخالدة وبأيامها ومواقعها المشهودة.

فكان عبدالله بن رواحة وهو الذى عرف فى أوساطهم بكونه شاعراً من الطراز الأول، راحت كتب التاريخ والأدب تذكر لنا شعره وأراجيزه وهو يقاتل، وهو يطوف، وهو يدعو إلى الله تعالى، وهو يهاجم أعداء الله ورسوله... واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية وعرفهم العصر الأول للإسلام ودعوته، وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وثالثهم الصحابي الجليل ابن رواحة. وفى جوابه عن سؤال يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وجهه له يوماً:

ما الشعر؟

كان ابن رواحة شاعراً مجيداً، وقد نقل لنا الرواة مقاطع من شعره، وعَدَّوه واحداً من ثلاثة شعراء عرفتهم الصحبة النبوية المباركة، ونالوا منها حظاً وافراً، وموقعاً إعلامياً ضرورياً

قال: شئ يختلج فى صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعراً.

قال: فهل تستطيع أن تقول شيئاً الآن؟

فنظر فى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: نعم، فأنشد من البسيط ثمانية أبيات منها:

إننى توسمت فيك الخير نافلةً والله يعلم إننى ثابت البصر

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

وعنه رحمه الله أنه قال: مررت بالنبى صلى الله عليه وآله وهو جالس فى نفر من أصحابه، فأضرب القوم

[أى تكلموا متتابعاً]

[يا عبدالله بن رواحة، يا عبدالله بن رواحة، فعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعانى، فانطلقت إليهم مسرعاً، فسلمت.

فقال: ها هنا، فجلست بين يديه.

فقال - كأنه يتعجب من شعري -: كيف تقول الشعر إذا قلت؟

قلت: أنظر فى ذلك ثم أقول.

ص: ١٦٤

فقال: فعليك بالمشركين.

قال: ولم أكن أعددت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فخّيتوني أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

قال: فكأنني عرفت في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله الكراهية أن جعلت قومه أثمان العباء، فقلت:

نُجالد الناس عن عرض فأنسرتهم فينا النبي وفينا تنزل السور

وقد علمتهم بأننا ليس يغلبنا حتى من الناس إن عزّوا وإن كثروا

يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ماله غير

إني تفرست فيك الخير أعرفه فراسه خالفهم في الذي نظروا

ولو سألت أو استنصرت بعضهم في جلّ أمرك ما آووا ولا نصروا

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

فأقبل عليّ بوجهه متبسماً ثم قال: وإياك فثبت الله.

وتصدى ثلاثة من كفار قريش وهم: أبو سفيان بن الحارث، وعمر بن العاص، وابن الزبير ليهجوا رسول الله صلى الله عليه وآله

وأصحابه.

فقال قائل لعلّي: أهج عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا.

فقال علي: إن أذن لي رسول الله صلى الله عليه وآله فعلت.

فقال الرجل: يا رسول الله، أتأذن لعلّي كيما يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا؟

فقال: ليس هناك... ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين قد نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله بسلاحهم وأنفسهم أن ينصروه

بألسنتهم؟

فقال حسان بن ثابت: أنا لها يا رسول الله وأخذ بطرف لسانه، فقال: والله ما يسرنى به مقولاً بين بصرى وصنعاء.

ص: ١٦٥

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: وكيف تهجوهم وأنا منهم؟

فقال: إني أسلُك منهم كما تُسلُ الشعرة من العجين.

فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار يجيئونهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة.

فكان حسان بن ثابت وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب.

وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إلى الكفر، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر.

وكانوا في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وأهون القول قول عبدالله بن رواحة. فلما أسلموا

وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول عبدالله بن رواحة.

وفى يوم الخندق، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره المبارك، راح عبدالله بن

رواحه هذا الصحابي الجليل يرتجز قائلاً:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكيناً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا

وكان ارتجازه هذا تلبيةً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله حينما قال له: أنزل فحرك بنا التراب.

وبعد أن أنشد أرجوزته المذكورة دعا رسول الله صلى الله عليه وآله له قائلاً: اللهم ارحمه.

وفى شعره وهو يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله حين يقول:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبعث يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

هذا لعمرى من معاريف الكلام...

ونسب لهذا الصحابي لطائف أضحكت رسول الله صلى الله عليه وآله:

فقد كانت لعبدالله بن رواحة جارية يستسرّها سرّاً عن أهله، فبصرت به امرأته يوماً قد خلا بها، فقالت: لقد اخترت أمتك على

حُرَّتكَ، فجاحدها ذلك.

قالت: فإن كنت صادقاً فاقرأ آية من القرآن، وفى رواية: وقد عهدته لا يقرأ القرآن وهو جنب.

فقال من الوافر:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

قالت: فردنى آية أخرى، فقال:

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

فقالت: زدنى آية أخرى، فقال:

وتحملة ملائكة كرام ملائكة الإله مقربينا

وفى ديوانه... شداً... مؤمنينا

فقالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

فأتى ابن رواحه رسول الله صلى الله عليه وآله فحدثه، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يغير عليه. وزاد في رواية بمعناه، فقالت له: أما إذا قرأت القرآن فإنني قد عرفت أنه مكذوب عليك. فافتقدته ذات ليلة، فلم تجده على فراشها، فحبست نفسها، فلم تزل تطلبه حتى قدرت عليه في ناحية الدار، فقالت: الآن صدقت فيما بلغني، فجعلها، فقالت: اقرأ الآيات من القرآن إن كنت صادقاً، فإنك إن كنت جنياً لم تقرأ، فقال

ص: ١٦٧

من الطويل:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشَقَّ معروف من الصبح ساطعٌ
 لبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ
 أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا له موقنات أن ما قال واقعٌ
 وأعلم علماً ليس بالظن أننى إلى الله محشورٌ هناك وراجعُ
 فحدث رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فاستضحك حتى ردَّ يده على فيه، وقال:
 هذا لعمري من معارضض الكلام، يغفر الله لك يا بن رواحة، إن خياركم خيركم لنسائكم.
 فأخبرني ما الذى ردَّت عليك، حيث قلت ما قلت؟
 قال: قالت لى: الله بينى وبينك، أما إذ قرأت القرآن فإنى أتهم ظنى وأصدقك.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد وجدتها ذات فقه فى الدين (١).

ابن رواحة في عمرة القضاء

بعد رجوعه صلى الله عليه وآله إلى المدينة من خير منتصراً، أقام فى المدينة شهرى ربيع وجماديين ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً،
 ثمانية أشهر، وكان يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه صلى الله عليه وآله.
 بعدها خرج صلى الله عليه وآله من المدينة فى شهر ذى القعدة من سنة سبع للهجرة النبوية، قاصداً مكة معتمراً عمرة القضاء، بعد أن
 صدّه مشركو مكة عنها عام الفتح فى شهر ذى القعدة سنة ست، وسمى شهر الصّد، وهو من الأشهر الأربعة الحرم، ثلاثة سرّد أى
 متتابعة (ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب). فيما سميت عمرة شهر ذى القعدة من العام السابع بعمرة القصاص، لأنّ
 المشركين صدّوا

١- أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٨-١٥٩.

ص: ١٦٨

رسول الله صلى الله عليه وآله في شهر ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقتصر رسول الله صلى الله عليه وآله منهم، فدخل مكة في الشهر نفسه الذي صدّوه فيه من سنة سبع، وقد أنزل الله تعالى في ذلك

«والحرّات قصاص» (١)

. وقد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمون ممّن كان صدّ معه في عمرته، وعدّتهم كانت ألفين سوى النساء والصبيان. وحين دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة في عمرة القضاء هذه دخلها وكان الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة أخذاً بخطام ناقه رسول الله وهو يرتجز قائلاً:

خلّوا بني الكفار عن سبيله خلّوا فكلّ الخير في رسوله

يا ربّ إنّني مؤمن بقبيله (٢) أعرف حقّ الله في قبوله

نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله (٣)

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

١- البقرة: ١٩٤.

٢- بقبيله: أي قوله.

٣- أي نحن نقاتلكم على إنكار تأويله، كما قتلناكم على إنكار تنزيله.

ص: ١٦٩

والذى يبدو أنّ (نحن قتلناكم على تأييله... ويذهل الخليل عن خليه) كانت للصحابي الجليل عمار بن ياسر رضوان الله عليه، ارتجز بهما في غير هذا اليوم أى يوم معركة صفين التى دارت رحاها بين جيش الإمام على عليه السلام وجيش البغاة بقيادة معاوية بن أبى سفيان، وقد استشهد فيها عمار بن ياسر رحمه الله تعالى.

والدليل على هذا، وهو ما ذكره ابن هشام صاحب السيرة، أنّ ابن رواحاً إنما أراد المشركين، والمشركون لم يقرّوا بالتنزيل وإنّما يُقتل على التأويل من أقر بالتنزيل (١).

ويقال: إن عمر بن الخطاب قال: يا بن رواحاً، فى حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله تقول هذا الشعر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: خلّ عنه يا عمر، فوالذى نفسى بيده لكلامه أشدّ عليهم من وقع النبل (٢). وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يطوف بالبيت فى عمرة القضاء على بعير له، يستلم الركن بمحجن، كان عبدالله بن رواحاً أخذاً بغرزه وينشد بين يديه من أرجازه:

يارب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا

فأنزلن سكيناً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إنّ الذين قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا

هذا ما ذكره السيد الجميل فى كتابه صحابة النبى صلى الله عليه وآله دون أن يذكر مصدر هذا الشعر، فيما ذكر صاحب مختصر تاريخ دمشق وقال: إنّ هذه الأبيات كانت لابن رواحاً يوم الخندق.

كما ذكرناها فى حفر الخندق.

إذن فعبد الله بن رواحاً كان حاضراً عمرة القضاء، ولم يحضر فتح مكة فى

١- أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٤: ١٣.

٢- أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٥.

ص: ١٧٠

شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة، لأنه استشهد في جمادى الأولى من السنة نفسها في معركة مؤتة فما نسب إليه من أشعار كان خطأً، والذي يبدو أن كعب بن مالك هو الذي كان يرتجز بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله في فتح مكة وليس عبد الله بن رواحه (١).

من حكمه رضوان الله عليه

اتّسمت مواقفه وأحاديثه بالحكمة والموعظة الحسنة، وطالما كان يذكر إخوانه وأصحابه بما يرضى الله تعالى، وبما يشدّهم إلى ذكره سبحانه، فعن أبي الدرداء أنه قال:

أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم، لا أذكر فيه عبد الله بن رواحه.

وراح أبو الدرداء يواصل حديثه عن إيمان ابن رواحه وحبّه لمجالس التفكير والذكر قائلاً:

كان إذا لقيني مقبلاً، ضرب بين ثديي، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفيّ ثم يقول: يا عويمر، اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول: يا عويمر، هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان مثل قميصك؛ بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبيننا أنت قد لبسته إذ نزعته، يا عويمر، للقلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياً (٢).

ويقال: إن عبد الله بن رواحه - وقبل غزوة مؤتة - كان قد مرض مرضاً شديداً، حتى أغمى عليه، فكانت أخته عمره تعدّد ماثره وتبكيه، فلما أفاق، قال لأخته: ما قلتِ فيّ شيئاً إلّا أنبوني ووبخوني، أي فلا تنبغي النياحة.

ونقل أنه في مرضه هذا، عاده النبي صلى الله عليه وآله وهو مغمى عليه، فقال صلى الله عليه وآله: اللهم إن كان أجله قد حضر، فيسر عليه وإلّا فاشفه.

فوجد خفّة وأفاق.

فقال: كأنّ ملكاً قد رفع مرزبنة من حديد، (وكأنّه ردّ على نياحة أخته

١- أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٥.

٢- أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٥٧-١٥٨.

ص: ١٧١

وتعدادها لمناقبه ومآثره)، ويقول: أأنت كذا؟

فلو قلت: نعم، لقمعني بها.

كل هذا كان دليلاً على عدم رضاه عن ذكر مناقبه، وكان دليلاً على تواضعه وزهده في شأن الدنيا ومراتبها حتى وإن كان جديراً بها وأنه ينالها بحق.

موقفان لابن رواحه مع يهود خيبر

الموقف الأول:

غزا عبدالله بن رواحه يهود خيبر بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أصاب فيها يسير بن رزام، الذي كان يبذل جهوداً كبيرة في تجميع قبائل غطفان، استعداداً لغزو رسول الله صلى الله عليه وآله. فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن بعث إليه عبدالله بن رواحه في نفر من أصحابه، منهم عبدالله بن أنيس حليف بني سلمة، فلما قدموا عليه كلموه وواعدوه وقربوا له وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله استعملك وأكرمك.

غزا عبدالله بن رواحه يهود خيبر بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أصاب فيها يسير بن رزام، الذي كان يبذل جهوداً كبيرة في تجميع قبائل غطفان، استعداداً لغزو رسول الله صلى الله عليه وآله

فلم يزالوا به حتى خرج معهم في نفر من يهود، فحملة عبدالله بن أنيس على بعيره وردفه، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر، على ستة أميال، ندم اليسير بن رزام على مسيره إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. ففطن له عبدالله بن أنيس وهو يريد السيف، فاقتحم به، ثم ضربه بالسيف فقطع رجله، وضربه اليسير بمخرش في يده من شوقط، فأثمه في رأسه، وقتل الله يسيراً، ومال كل رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على صاحبه من يهود فقتله، إلّا رجلاً واحداً أفلت على رجله أو على راحلته، فلما قدم عبدالله بن أنيس على رسول الله صلى الله عليه وآله تفل أي بصق بصاقاً خفيفاً على شجته فلم تقح ولم تؤذه.

ص: ١٧٢

الموقف الثاني:

فكما كان ابن رواحة عظيماً في إيمانه شجاعاً في جهاده، كان عظيماً في عفته، شجاعاً في عدله وزهده.

ففي روايته، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم،...

وكان عبدالله بن رواحة يأتيهم بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله في كل عام فيخبرهم بها «١»

عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله، تطعموني الشُّحْت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، وأنتم أبغض إلي من عدتكم من القرود والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبِّي إياه على أن لا أعدل عليكم.

فكان جوابهم أن قالوا له: بهذا قامت السماوات والأرض.

فيما هناك رواية أخرى بهذا الخصوص تقول:

إنهم جمعوا حُلِيًّا من حُلِي نساءهم، فقالوا:

هذا لك، وخفف عنا وتجاوز في القسم.

فما كان جواب ابن رواحة، الذي اتسم موقفه هذا، كما مواقفه الأخرى بالشدة المتصفة بالعدل والحق، إلّا أن أجابهم بقوله: يا معشر يهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم، وأما الذي عرضتم علي من الرشوة، فإنها سُحْتُ وإنا لا نأكلها.

قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض «٢».

ابن رواحة ثالث ثلاثة أمراء!

«هي إن شاء الله الشهادة!»

في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة النبوية، وفي قرية من أرض البلقاء من

ص: ١٧٣

الشام، وقعت معارك طاحنة اتسمت بالضراوة والشدة بين جيش المسلمين وتعداده ثلاثة آلاف تحت إمرة ثلاثة من الأمراء المسلمين حتى سميت هذه الغزوة بغزوة جيش الأمراء. حيث خاضوا معركة لم يخض المسلمون معركة مثلها كما وصفت، وكان أعداء المسلمين من المشركين الروم قد أدروا بالعتاد والأعداء ما يملأ السهل والجبل وما لا طاقة للمسلمين به. وكان الصحابي عبدالله بن رواحة أحد أمراء هذا الجيش المسلم الثلاثة، الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وآله. تقول الرواية:

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بعثته إلى مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، وزاد الزرقاني: فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم».

فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلموا عليهم، فلما ودع عبدالله بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله بكى؛ فقالوا:

ما يبكيك يا بن رواحة؟ أو أنهم زعموا أن ابن رواحة بكى حين أراد الخروج إلى مؤتة، فبكى أهله حين رأوه يبكي. فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم، أو والله ما بكيت جزعاً من الموت ولا صباة لكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار:

«وإن منكم إلاًواردها كان على ربك حتماً مقضياً»

أو أني بكيت من قول الله: (الآية) فقد علمت أني وارد النار ولا أدري أو فليست أدري كيف لي بالصّدر بعد الورود؛ أو فأيقنت أني واردها ولم أدر أنجو منها أو لا؟!

فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين.

ص: ١٧٤

وهنا أنشد عبدالله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربه ذات فرغ تقذف الزبدا (١)

أو طعنه بيدي حزان مُجهزَةً بحربه تُنفذ الأحشاء والكبدا (٢)

حتى يُقال إذا مَرُوا على جَدَثِي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا (٣)

ثم إن القوم تهيئوا للخروج، فأتى عبدالله بن رواحة رسول الله صلى الله عليه وآله فودعه، ثم قال:

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذى نُصروا

إني تفرست فيك الخير نافله الله يعلم أنى ثابت البصر

أنت الرسول فمن يُحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

وفى روايته:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

فثبت الله ما آتاك من حسن فى المرسلين ونصراً كالذى نُصروا

إني تفرست فيك الخير نافله فراسه خالفت فيك الذى نظروا

يعنى المشركين، وهذه الأبيات فى قصيده له.

قال ابن إسحاق: ثم خرج القوم، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم، قال عبدالله بن رواحة:

خلف السلام على امرئ ودّعه فى النخل خير مُشيع و خليل

١- ذات فرع: ذات سعة. والزبد هنا: رغوۃ الدم.

٢- مجهزة سريعة القتل. تنفذ الأحشاء: تخترقها.

٣- الجدث والجدف: القبر.

ص: ١٧٥

لَمَّا ودع رسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله بن رواحة، قال ابن رواحة: يا رسول الله، مرني بشيء أحفظه عنك.
قال: إنك قادم غداً بلدًا، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال عبد الله بن رواحة: زدني يا رسول الله.
قال: اذكر الله فإنه عون لك على ما تطالب.

فقام من عنده، حتى إذا مضى ذاهبًا، رجع إليه فقال: يا رسول الله، إن الله وتر يحب الوتر.
قال: يا ابن رواحة، ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشرًا أن تحسن واحدة.

فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها.

ويقول زيد بن أرقم، وكان يتيمًا في حجر عبد الله بن رواحة:

فلم أر والي يتيم خيرًا منه.

وقد خرج معه فحمله على حقيقه رحله، وخرج به غازيًا إلى مؤته، فسمعه زيد وهو يتمثل أبياته التي قال فيها مخاطبًا ناقتة:

إذا أدنيتني وحملت رحلي مسيرة أربع بعد الحساء (١)

فشأنك فانعمي وخلاكي ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي

١- الحساء: موضع، معجم البلدان، وأنظر لسان العرب: حسا.

ص: ١٧٦

وجاء المؤمنون وغادروني بأرض الشام مشتهي الثواء

وردك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن وانقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلع نخل ولا بعل أسافلها رداء (١)

[أى إذا استشهدت لم أبال ما تركت من عذى النخل وسقيه (٢)]

[فلما سمعه زيد بكى فخفقه بالدرة، وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله الشهادة، وترجع بين شعبي الرحل.

وراح ابن رواحة يرتجز لزيد قائلاً:

يا زيدُ زيدَِ العملاتِ الذبلِ تطاولَ الليلُ هُديتَ فانزلِ

أى انزل فسقُ القوم.

وفى حديث آخر بهذا المعنى: ثم نزل من الليل فصلّى ركعتين ثم دعا فيهما دعاءً طويلاً ثم قال لى: يا غلام، فقلت: لبيك قال: هي إن شاء الله الشهادة.

ومضى قوله: هنالك لا أبالي طلع نخل... البيت يقول: استشهدت لم أبال ما تركت من عذى النخل وسقيه.

ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من

لحم وجذام والقيين وبهداء وبلى مئة ألف منهم، عليهم رجل من بلى ثم أحد إراشة يقال له: مالك بن زافله.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فنخبره بعدد

عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فمضى له.

فشجع الناس عبد الله بن رواحة، وقال:

١- البعل: ما شرب بعروقه من الأرض، أنظر اللسان، بعل.

٢- عذا: والعذى من النبات: البعل.

ص: ١٧٧

يا قوم، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقابلهم إلّا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسينين:

إما ظهور

وإما شهادة

وفى رواية أنهم فى سيرهم إلى تبوك إذ هم بناحية معان، بضم الميم أو فتحها، وهى مدينة فى طريق بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء، وهى من أرض الشراء، والشراء: صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول صلى الله عليه وآله (١). وهم بهذه الناحية مُعان أخبروا أن الروم قد نُذروا أى علموا، وجمعوا لهم جموعاً كثيرة من الروم وقضاة وغيرهم من نصارى العرب، فاستشار زيد بن حارثة أصحابه فقالوا:

قد وطئت البلاد وأخفت أهلها، فانصرف، فإنه لا يعدل العافية شىء.

وعبد الله ساكت، فسأله زيد بن حارثة فقال: إننا لم نسر إلى هذه البلاد، ونحن نريد الغنائم، ولكننا خرجنا نريد لقاءهم ولسنا نقاتلهم بعدد ولا عدّة، فالرأى المسير إليهم.

فقبل زيد رأيه وسار إليهم (٢).

فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس، فقال عبدالله بن رواحة فى محبسهم ذلك:

جلبتنا الخيل من أجاء وفرع تُغَرُّ من الحشيش لها العُكُوم (٣)

١- أنظر معجم البلدان.

٢- أنظر مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٦٢-١٦٣.

٣- أجاء: أحد جبل طىء، والآخر سلمى. وفرع بالفتح: اسم موضع من وراء الفرك. وقال ياقوت: الفرع: أطول جبل بأجاء وأوسطه. والظاهر أن هذا هو المراد هنا. وتغر بالغيين المعجمة: تطعم شيئاً بعد شىء. يقال: غر الفرج غرا وغراراً: زفه. والعكوم: جمع عكم بالفتح وهو الجنب. ويروى: جلبتنا الخيل من أجام قُرح، وقرح: سوق وادى القرى، كما عند ياقوت وقد ذكره منسوباً الى ابن رواحة.

ص: ١٧٨

حَدَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَانِ سِبْتًا أَزَلَّ كَأَن صَفَحَتْهُ أَدِيم (١)

أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ فَأَعْقَبَ بَعْدَ فِتْرَتِهَا جُمُوم (٢)

فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ مَسُومَاتٌ تَنْفَسُ فِي مَنَافِرِهَا السُّمُوم (٣)

فَلَا وَأَبَى مَأَبٍ لَنَا تَيْنِهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُوم (٤)

فَعَبَانَا أَعْنَتْهَا فَجَاءَتْ عَوَابِسَ وَالْغَبَارُ لَهَا بَرِيم (٥)

بَذَى لَجِبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ إِذَا بَرَزَتْ قَوَائِشُهَا النُّجُوم (٦)

فِرَاضِيَةُ الْمَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا أَسْتَهَّاهَا فَتَنَكَّحُ أَوْ تَتِيم (٧)

حتى إذا كان جيش المسلمين بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على يمينتهم رجلاً من بنى عذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى يسرهم رجلاً من الأنصار يقال له: عُبَابَةُ بن مالك أو عبادة بن مالك.

١- حذوناها: جعلنا لها حذاء وهو النعل: والصوان: حجارة ملس؛ واحدها: صوانة. والسبت: النعال التي تصنع من الجلود المدبوغة. وأزل، أى أملس صفحته ظاهرة. والأديم: الجلد، هذا ما قاله أبوذر، فيما قال السهيلي: أى حذوناها نعالاً من حديد، جعله سبتاً لها مجازاً، وصوان: من الصون، يصون حوافرها، أو أحفافها، إن أراد الأبل فقد كانوا يجذونها السريح، وهو جلد يصون أخفافها. وأظهر من هذا أن يكون أراد بالصوان يبيس الأرض، أى لا سبت لها إلا ذلك.

٢- معان بفتح الميم: موضع بالشام، والفترة: الضعف والسكون، والجموم: اجتماع القوة والششاط بعد الراحة.

٣- مسومات: مرسلات. والسوموم: الريح الحارة.

٤- مأب: اسم مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. قال السهيلي: يجوز نصبه بفعل مقدر، أو مرفوع على الابتداء.

٥- البريم في الأصل: خيطان مختلطان أحمر وأبيض، تشدهما المرأة على وسطها أو عضدها. وكل ما فيه لوان مختلطان فهو بریم أيضاً. يريد ما علاها من الغبار، فخالط لونه لونها. والدمع المختلط بالإثمد. وهذا أقرب لمعنى البيت: أى أن دموع الخيل اختلطت بالتراب فصارت كالبريم.

٦- ذى لجب: أى جيش. واللجب: اختلاط الأصوات وكثرتها والبيض: ما يوضع على الرأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.

٧- وتييم: تبقى دون زوج، يقال: آمت المرأة إذا لم تتزوج.

ص: ١٧٩

ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى شاط
[أى سال دمه فهلك

[فى رماح القوم.

ثم أخذها جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء
[أى رمى بنفسه عنها

[فعرها، ثم قاتل حتى قُتل، فكان جعفر رضوان الله عليه أول رجل من المسلمين عقر فى الإسلام.

[وعلى فرض صحه هذا الخبر، فقد يكون المبرر لعقرها هو خوفه من أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين

[وقاتل حتى استشهد رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث شاء بعد أن قطعن
يداه فى المعركة....

فلما استشهد جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:
أقسمت يا نفس لتنزلن لتنزلن أو لتكرهن

إن أجلب الناس وشدوا الزنة مالى أراك تكرهين الجنة (١)

قد طال ما قد كنت مطمئن هل أنت إلانطفة فى شنه

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

يريد بهذا صاحبيه اللذين استشهدا قبله: زيدا و جعفرا، وتقول الرواية: ثم نزل، فلما نزل أتاها ابن عم له بعرق لحم
[عظم عليه بعض لحم

[فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه مالمقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة (٢).

١- أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا. والرنه: صوت فيه ترجيع شبه البكاء.

٢- نهس اللحم: أخذه بمقدم الأسنان، والنهش: الأخذ بجميعها. أنظر لسان العرب: نهس.

ص: ١٨٠

ثُمَّ سَمِعَ الْحَطْمَةَ (١) فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا! ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَتَقَدَّمَ...

وَرَوَى أَنَّ الرَّايَةَ لَمَّا انْتَهَتْ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، جَاءَهُ الشَّيْطَانُ فَرَغِبَهُ فِي الْحَيَاةِ وَكَرِهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ، ثُمَّ تَذَكَّرَ فَصَاحَ بِأَوْلَيْكَ النَّفَرِ الَّذِينَ حَضَرُوا ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، الَّذِي بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَتَلَا عَلَيْهِمْ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ» (٢) أَيْنَ مَا كُنْتُمْ عَاهَدْتُمْ اللَّهَ عَلَيْهِ، قَدْ جَاءَ مُصَدِّقُهُ، اصْدُقُوا اللَّهَ بِصَدَقَتِكُمْ.

فَجَاؤُوهُ يَخْبُونَ كَأَنَّهُمْ بَقَرٌ نَزَعَتْ مِنْ تَحْتِهَا أَوْلَادُهَا، فَتَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَتَى ابْنَ رَوَاحَةَ بِلُوحٍ مِنْ ضَلْعٍ وَقَدْ التَّاثُ (٣) جَوْعاً فَرَدَّهُ وَقَالَ: هَذَا أَدَعَهُ فِيمَا أَدَعَهُ مِنْ

الدُّنْيَا، فَشَدَّ عَلَيْهِمْ وَشَدَّوْا حَتَّى شُدِّخُوا جَمِيعاً.

إِذْنًا، مَا إِنْ قَتَلَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى دَعَا النَّاسَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ. وَكَانَ فِي جَانِبِ الْعَسْكَرِ، وَمَعَهُ ضِلْعٌ حَمَلٍ يَنْهَسُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَاقَ طَعَاماً قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثٍ، فَرَمَى بِالضِّلْعِ ثُمَّ قَالَ: وَأَنْتَ مَعَ الدُّنْيَا!

ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَقَاتَلَ، فَأَصِيبَتْ إَصْبَعُهُ، فَارْتَجَزَ قَائِلاً:

هَلْ أَنْتَ إِلَّا اصْبِغْ دُمِيتَ

١- الحطمة: زحام الناس، وحطم بعضهم بعضاً. اللسان: حطم.

٢- الصف: ٤.

٣- التاث فلان في عمله: أبطأ، والمراد هنا: ضعف. أنظر اللسان: لوث.

ص: ١٨١

وفى سبيل الله ما لقيت

يا نفس إلتقتلى تموتى...

وواصل أرجوزته هذه وقد ذكرنا شيئاً منها هنا وشيئاً هناك.

ثم قال: يا نفس، إلى أى شىء تتوقين؟!

إلى فلانة؟!

فهى طالق بالثلاثة، وإلى فلان وفلان، غلمان له، وإلى معجف: حائط له، فهو لله ولرسوله، ثم ارتجز:

يا نفس مالك تكرهين الجنة

أقسم بالله لتنزلته

طائعه أو لا لتكرهه

فطالما قد كنت مطمئنه

هل أنت إلانطفة فى شنه

قد أجلب الناس وشدوا الرنه

وفى خبر أن ابن رواحة لما نزل للقتال طعن، فاستقبل الدم بيده فذلك به وجهه ثم صرع بين الصفين، فجعل يقول: يا معشر المسلمين، ذبوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمون يحملون حتى يحوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى مات مكانه.

ويصف الدكتور الجميلى ما دار فى غزوة مؤتة بقوله: وفى غزوة مؤتة يواجه المسلمون فرسان الروم بأعداد كثيرة لا تحصى تملأ السهل والجبل، ويستشرف المسلمون عدوهم المدجج بالسلاح، مسلحين باليقين والتقوى، وتقابل الجمعان والتحم الفريقان، وسقط «زيد بن حارثة» أمير جيش المسلمين، فاستلم مكانه «جعفر بن أبى طالب» وسرعان ما سعت إليه الشهادة وعوجل إلى ربه، فكان عبدالله بن رواحة ثالث الأمراء الذين تولوا إمرة جيش المسلمين، فضربوا أجناد هرقل من الروم، وأخذ يصول ويجول فى أحشائهم حتى أدركته الشهادة، وما هى إلالحظات حتى يتناهى خبر الشهداء الثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما قدموه من بطولات وفدائية، فترحم عليهم واستغفر لهم ثم

ص: ١٨٢

أطرق قليلاً ثم قال:

«لقد رفعوا إليّ في الجنة»

وفى خبر عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وآله نعى إلى الناس - أو إلينا - جعفرًا وابن رواحةً وزيداً وعيناه تذرفان. ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الراية بعده عبدالله بن رواحة فاستشهد.

قال: ثم دخل الجنة معترضاً، فشقّ ذلك على الأنصار فقالوا: يا رسول الله، ما اعتراضه؟

قال: لما أصابته الجراح نكل فعاتب نفسه فشجع فاستشهد فدخل الجنة، فشرى عن قومه.

وفى خبر آخر عن ابن إسحاق أنه قال: ولما أصيب القوم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما بلغنى: أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً.

قال: ثم صمت رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: ثم أخذها عبدالله بن رواحة، فقاتل بها حتى قُتل شهيداً. ثم قال: لقد رفعوا إليّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً

[أى ميلاً وعوجاً]

[عن سريري صاحبيه، فقليل: عمّ هذا؟ فقليل لى: مضياً وتردد عبدالله بعض التردد، ثم مضى. وفى خبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله صعد المنبر، وأمر فنودي:

الصلاة جامعة! فاجتمع الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: باب خير، باب خير، باب خير! أخبركم عن جيشكم هذا الغازى، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد شهيداً واستغفر

ص: ١٨٣

له، ثم أخذ اللواء جعفر، فشدّ على القوم حتى قتل شهيداً، فشهد له بالشهادة واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة، فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً، فاستغفر له...

وفى روايته قال النبي صلى الله عليه وآله: «مثلوا لى فى الجنة فى خيمة من درّة كلّ واحد منهم على سرير، فرأيت زيدا وابن رواحة فى أعناقهما صدوراً، وأما جعفر فهو مستقيم ليس فيه صدور، قال: فسألت أو قال: قيل لى: إنهما حين يخشيهما الموت كأنهما أعرضا أو كأنهما صدّا بوجوهما، وأما جعفر فإنه لم يفعل».

وفى خبر عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وآله نعى إلى الناس - أو إلينا - جعفراً وابن رواحة وزيداً وعيناه تذرفان. ولما قتل جعفر بمؤتة أخذ الراية بعده عبدالله بن رواحة فاستشهد

قال ابن عيينة: فذلك حين يقول ابن رواحة:

أقسمت يا نفس لتنزلن بطاعه منك أو لتكرهنه

فطالما قد كنت مطمئنة جعفر ما أطيب ريح الجنة (١)

ووقف حسان بن ثابت يوم مؤتة يبكى ويرثى جعفراً ولما انثنى من رثائه راح يرثى ويبكي زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة؛ ومما قاله فى عبدالله بن رواحة:

ثم جودى للخزرجى يدمع سيّداً كان ثم غير نزور

قد أتانا من قتلهم ما كفانا فبحزن نبئت غير سرور

وله أيضاً:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبدالله حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تخطر

فيما هناك مرثية بحقهم ألقاها كعب بن مالك يوم وصول خبر استشهادهم رضوان الله عليهم.

نام العيون ودمع عينك يهمل سحاً كما وكف الطباب المخل (١)

فى ليلة وردت على همومها طوراً أحنّ وتارة أتململ

واعتادنى حزن فبت كأننى بينات نعش والسماك موكل

وكأنما بين الجوانح والحشى ممّا تأوبنى شهاب مُدخل

وجدا على نفر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا

صلّى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بمؤتة بلاله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهم فنقّ عليهن الحديد المرفل (٢)

ثم يواصل رثاءه لجعفر بن أبى طالب رحمه الله تعالى.

وقال شاعر آخر ممّن كان حاضراً غزوة مؤتة:

كفى حزناً أنى رجعت وجعفر وزيد وعبدالله فى رمس أقبر

قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم وخلفت للبلوى مع المتغير

ثلاثة رهط قدّموا فتقدّموا إلى ورد مكروه من الموت أحمر

فسلام عليك يابن رواحة قرير العين بين الأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه (٣).

-
- ١- الطبابة وهى سير بين خرزتين فى المزادة، فإذا كان غير محكم ولف منه الماء وقيل الضباب، والمخضل: السائل الندى.
 - ٢- الفنق: الفحول من الإبل، الواحد: فنيق. المرفل: الذى تنجر أطرانه على الأرض، يريد أن دروعهم سابقة.
 - ٣- أنظر ترجمه حياة هذا الصحابى الجليل فيما تيسر لى من مصادر، السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبرى، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور، والتاج الجامع للأصول للشيخ منصور على ناصيف، وصحابة النبى صلى الله عليه وآله للدكتور الجميل...

من معالم التراث رسالتان و قصيدة

إشارة

تقديم: محمد رضا الأنصاري

يتوجه المسلمون إلى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام - زادهما الله شرفاً وعزاً - صباحاً ومساءً، لا بجباههم ووجوههم فحسب، وإنما يتوجهون بقلوبهم، خاشعين لله سبحانه، ومتذكرين نعمه السابقة، وآلاءه الوافرة عليهم، بأن من عليهم وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، فالكعبة قبله العاشقين الوالهيّن لذات الله سبحانه، ومن ديدن العشاق التغزل بصفات المعشوق، والتذكير بمحاسن جمال المحبوب، فكم من العرفاء تغزل بالكعبة المشرفة، فمدح أحجارها وأستارها وميزابها وأركانها وحجرها ومياه زمزمها، بل وتعدى بعضهم من ذلك، فتغزل بالطائفات وبثيابهنّ البيضاء، وكذلك المدينة المنورة، منزل الحبيب - عليه وعلى آله الطيبين الأطهار أفضل الصلوات والتحيات - ودار هجرته، ومهبط الوحي ومثوى جثمانه الطاهر.

ولعل المدينة أقرب إلى قلوب العاشقين الوالهيّن من مكة، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله باب الله، والتذكر بفضائله وفضائل آل بيته الكرام، يعدّ من أقرب القربات إلى الله تعالى، وقد ورد في الحديث الشريف التأكيد على تعطير المجالس بذكر محمد وآل بيته الكرام، هذا فضلاً عن أنّ المدينة فيها من الذكريات ما يثير في نفس المؤمن الفرح والحزن، والسّرور والسّجن، فحينما يستعرض المرء سيرة الرسول صلى الله عليه وآله منذ

ص: ١٨٦

حَلَّ بهذه الرقعة من الأرض، واستقرَّ بها وبني فيها داره، وجاهد - منطلقاً منها - الكفار والمشركين، وثبت أركان الإيمان في جزيرة العرب، مع نفرٍ قليل من صحابته الكرام، وعلى رأسهم ابن عمّه وصهره، وأول مَنْ آمن به عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ينتابه الفخر والسرور والفرح لهذا الجِدِّ والعزم المذَى لولا هما لكان العالم لازال غارقاً في جهالات الجاهلية الجاهلاء، إذ بنوره وبهديه اهتدينا، وبأحكام شرعه الشريف على الصراط المستقيم سرنا.

لكن حينما يلاحظ ما حلَّ بشريعته وبوصيته وبقرابته من أهل بيته، من غضب حقوقهم، وإبعادهم عن المناصب التي نصَّبهم الله فيها، ومن نكرانهم لأجر الرسالة الوارد في قوله تعالى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»

، وإمعانهم في الضرب والقتل والتشريد، وما إلى ذلك من المصائب التي أوردوها على آل الرسول صلى الله عليه وآله، يغمره الحزن والأسى. ومن هذا المنطلق شاع في فترة (ولعلها القرنين الثامن والتاسع للهجرة) هذا النمط من الرسائل، التي يتخيّل كاتبها إنسيّه هاتين المدينتين، فيأتي بالحجج والأدلة عن لسان كلّ واحدة منهما، فترى المدينتان المقدستان تتفاخران بما منحهما الله سبحانه وتعالى من المحاسن والمفاخر، وتتبارزان بما أودع فيهما من المآثر والمناقب، فكلّ مدينة ترى نفسها هي السّابقة في كسب المعالي من اختها، وأولى بالمدح من ضرّتها، وأجدر بأن تكون ممدوحة من نظيرتها، وفي سبيل بلوغ ذلك تبرز كلّ واحدة منهما ما في خزانتها من الآيات الكريمة، والمأثورات النبويّة الشريفة الواردة في حقّها، هذا فضلاً عن دلالات السيرة والتاريخ، ولا تكتفي بهذه الأدلة، بل تتمسك بشتى الوسائل لإقناع خصمها، وأخذ الإقرار منها على نفسها.

وتشتدّ المنازلة، ويحتدم الصراع، فترى الأدلة المبرزة تسقط وتدحض حينما تبرز الأخرى أدلتها، لكن سرعان ما تقيم الأخرى دليلاً آخر على صدق دعواها، وهكذا دواليك، حتى أنّ القارئ ليظنّ أنّ الصراع والنزال لا ينتهيان، إلّا حين

ص: ١٨٧

زوال الدنيا وقيام الآخرة! لكن في لحظة من اللحظات، وبقدرة القادر المتعال، يخرج الحَكَم العدل، فيهدؤ روعهما ويسكن فورتهمما، ويعطى لكل منهما السبق والفضل والقدم، دون أن ينقص من الاخرى شيئاً، وترضى كل واحدة منهما بما قسم الله لها وقدّر، فيعود اللئام والسلام، وتتوابع المدينتان، وتعود كل واحدة منهما إلى موضعها بسلام وأمان، لتبقيا قبله للطائفين والزائرين أعواماً وأعواماً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من الأنام.

وتعدّ مجموعتنا من هذا النمط من الرسائل، وهذه المجموعة المودعة في خزانه (كتابخانه مجلس شورای اسلامی) برقم ٤٥٥٩ (فهرست کتابهای خطی کتابخانه مجلس شورای اسلامی ج ١٢ / ص ٢٤٦) من ورق ١٥٠ ب إلى ١٥٦ ب، تحتوى على رسالتين وقصيدة، واليك مواصفاتها:

-١-

الرسالة الأولى: وهي المسماة ب (المرور بين العلمين إلى مفاخرة الحرمين).

-٢-

الرسالة الثانية: وهي أيضاً في المفاخرة بين الحرمين الشريفين، أنشأها سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني، ولم يسمّها المصنف باسم خاص بها.

-٣-

قصيدة طويلة من ٣٤ بيتاً، أنشدها ابن الخطيب الإربلي تعليقاً على الرسالة الأولى سنة ٧٦٦ هجرية.

أما الرسالة الأولى، فإنّ كاتبها هو عليّ بن يوسف بن الحسن الزرندی الأنصاري المدني، وقد ترجمه ابن حجر في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»

٣: ٢١٦، بقوله: «عليّ بن عزّ الدين يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن عبد الله الأنصاري الزرندی، ثم المدني الحنفي، نور الدين أبو الحسن ابن أبي المظفر بن الزرندی. ولد سنة عشر أو قبلها وقيده بعضهم سنة ثمان (أي ثمان وسبع مائة)، وسمع من إسماعيل التفليسي، ومن ابن شاهد الجيش، وكان قد حفظ ربع الوجيز في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، ثم تحوّل حنفياً وتفقه على مذهب الحنفية، ونظر في الآداب، وشارك في الفضائل، وطلب الحديث، وسمع

ص: ١٨٨

بدمشق والقاهرة وبغداد، ودخل خوارزم وغيرها، وشارك في الفضائل، وولى قضاء المدينة والتدريس بها والحشبة في سنة ٧٦٦ هـ، وهو أول قضاء الحنفية بالمدينة...

قال ابن حبيب: وله مقامه بديعة في المفاخرة بين مكة والمدينة. ومات بالمدينة في سابع أو ثامن ذي الحجة سنة ٧٧٢ هـ.

أما كاتب الرسالة الثانية، فهو سراج الدين البلقيني، من أعلام القرن الثامن، حيث جاء وصفه في بداية الرسالة بأنه:

«شيخ الاسلام، علم العلماء، لسان المتكلمين، سيد النظر»

، ولم أعر على ترجمته في المصادر المتيسرة، سوى ما ذكره ابن حجر في

«الدور الكامنة في أعيان المائة الثامنة»

٤: ٢٢٣، في سياق ترجمته لابنه، حيث قال:

«محمد بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني، بدر الدين بن شيخنا سراج الدين...»، حيث يستفاد منها أن سراج الدين كان

من مشايخ ابن حجر العسقلاني، وجاء في سياق الترجمة أن عمر بن رسلان ولى قضاء الشام سنة ٧٦٩ هـ، وقضاء العسكر قبل سنة ٧٨٩ هـ، وأن ولده محمد بن عمر توفي قبله بأربعة عشرة سنة، أما الوالد فقد مات سنة ٨٠٥ هـ.

أما ناظم القصيدة، وهو المكتى في بداية القصيدة بابن الخطيب الإربلي، حيث نظم القصيدة سنة ٧٧٦ للهجرة، فلم أجد له ذكراً في

المراجع المتيسرة، وقد وصفه كاتب النسخة بقوله: «الإمام العلامة الهمام، مقتدى أكابر الأنام، علامة أئمة العلماء، ناظم جواهر البلاغة في

بساط أساليبها، وناثر أزاهر البراعة على بساط تراكيبها، مظهر أسرار المعاني من صفاء معادنها، ومبدر أقمار البيان في سماء محاسنها،

بدر الملة والدنيا والدين، شمس الإسلام ونجم المسلمين».

وبين يدي القارئ نقدم هذه المجموعة ضمن الترتيب التالي:

ص: ۱۸۹

تصوير ۴۴۴۱

ص: ۱۹۰

تصوير ۲

ص: ١٩١

١- المرور بين العلمين إلى مفارقة الحرمين

من تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى، علي بن يوسف بن الحسن الزرندى الأنصارى المدينى، المحدث بالحرم الشريف النبوى، عامله الله بلطفه.

بسم الله الرحمن الرحيم، و به نستعين

من طريف المحاضرة، و طريف المذاكرة، ما حكى من مناظرة الحرمين، و مفاضلة المحلين المعظمين.

ذكر أنّهما اجتمعا فى ميدان الفخر و من دونهما حجاز، و ليس معهما لغيرهما فى هذا المقام على الحقيقة مجاز، فبرز حرم المدينة الشريفة، و تسنم شرفاً من الشرف عال، واستفتح المقال،

و قال:

الحمد لله الذى فضّلنى على سائر البلاد، و جمع لى بين طريف الفضل والتلاد، [\(١\)](#) و شرفنى بحلول خير العباد، و أشرف كل حاضر و باد، وألبسنى

ص: ١٩٢

ملابس الفخر الفاخرة، و أعلى مقامى فى الدُّنيا والآخرة، و جعل تُربى شفاءً من السيِّقام، و غبارى دواءً من الجُدام، فلى الشَّرْف على كلِّ إقليم، و الفضلُ فى الحديث و القديم، و باسمى يُفوّه كلُّ خطيب، و عَزَفُ (١) تُربى أطيّب من كلِّ طيب:

لا تحسب المسك الذكى كُتربها هيهات أين المسك من رباها

فالمقام بى من المكاره جنة، إذ كانت فى روضة من رياض الجنة، (٢) و حسبى

فخرًا المنبر التى علّت مراقبه، و حاز جميع الشَّرْف بِراقبه (٣)؛ فالى مسجدى تُشدُّ

الرَّحال من كلِّ قرية وفلاة، و الصّلاة فيه - كما قد علّم - بألف صلاة؛ فلى السَّناء (٤)

الباذخ، و العلاء الذى هو بأرض المجد راسخ، فلا- عَزُو إن سبقت فى هذا المضمار، و ركضت فى ميدان الفخار، «فأحقّ الخيل بالركض المعار».

فلما سمع الحرم المكى هذه العبارة، و فهم دلالة نصّها و الإشارة، قال:

كأنك: «إياك أعنى و اسمعى يا جارة»!

أيها المدينة المسكينة! عليك السكينة! أبى تعرّضين، أم لى تعرّضين، أم علىّ تستظهرين، أو مع وجودى تفتخرين؟! تالله ما سأل إليك إلّا ما فاض منى، و لا وصلك إلّا ما فُضّل عنى.

أما علمت أن بينتى أعظم البينات؟ أما سمعت قوله تعالى: [فيه آيات بينات (٥)؟]

الك مثل الكعبة ذات السّطور، و البيت المقابل بالبيت المعمور، الذى هو عين الوجود، و مطلع السّعود؟!

١- العزف: الرّيح، طيبه كانت أو خبيثه.

٢- اشارة إلى الحديث النبوى المتواتر: «بين قبرى و منبرى روضة من رياض الجنة».

٣- الذى يصعد على المنبر و يركبه، و يقصد به رسول الله صلى الله عليه و آله.

٤- السّناء: بالمد، الرفعة.

٥- آل عمران: ٩٧.

ص: ١٩٣

أفى صفاتك كالصَّفا، أم فى نعيمك كالتَّنعيم؟! (١)

أم هل قام لك مكان مقام إبراهيم، و هل حدا حادى مياهك بمثل المصافى و زمزم؟! أو تحققت علم كيمياء السَّعادة، و ظفرت بالحجر المكرم؛ الذى هو كالمقلَّة السوداء فى البيت، أو كمشكاة فيها من الجَنَّة زيت؟! فاربعى (٢) على نفسك، و إياك أن تترفعى على أبناء جنسك؛ فإن كانت الصلاة فى مسجدك بألف، فهى بمسجدى بمائة ألف، و حول بيتى من الملائكة الطائفين و المصلين كم من صف.

و إن فخرت بحلول الشفيع (٣)، ففى كان مسقط رأسه الرفيع:

بلاد بها نيطت على تمانى و أول أرض مس جلدى تُرابها

فأقلّى من هذا الفخر، فربما دُمَّ الفخور، و المتشيع (٤) بمالم يؤت كلابس ثوبى

زور.

فلما سمعت المدينة هذه المقالة، اشتعلت (٥) اشتعال الدَّباله، و برزت بين

أنصارها و أعوانها كالبدر وسط الهاله، و قالت:

يا لله العجب من دفع الحق و قد وجب! قول و لا معنى، أسمع جعجعة و لا أرى طحنا، ما هذا الفعل الذى أتيت؟! لقد وقعت فيما أبيت،

وارتكت ما عنه نهيت:

لا تنه عن خلقي و تأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

١- الموضع المعروف بمكة عند حدَّ الحرم، والذى فيه مسجد العمرة المشهور بالتنعيم.

٢- الانطواء على النفس.

٣- إشارة إلى هجرة النبى عليه السلام إلى المدينة و سكناه فيها.

٤- فى الأصل: المقشع.

٥- فى الأصل: و لا اشتعال.

ص: ١٩٤

ويك ارفعى ذيل إعجابك، و خففى فقد آذتك بعض أثوابك، هيهات أين النجم من البدر، و القطر من البحر، «و لكن اليوم خمّر و غداً أمر» (١).

فإن كان فيك مقام الخليل؛ فعندى المقام الجليل، و إن كانت كعبتك بشيئه الحسن؛ فحالى كله جميل، و إن فخرت بالبيت المقابل للبيت المعمور، فكل بيت من بيوتى بنور الحبيب معمور، و إن أتيت بالصفا أتيت بالنبي المصطفى، و إن جئت بالتنعيم جئت بروضة من جنات النعيم، و إن نظرت إلى من عين البيت وزمزم بالمقلة السوداء، قابلتك بالقية الخضراء، و بهرتك من بيت مال فخارى بالبيضاء و الصفراء، و نظرت إليك من عيونى بالعين الزرقاء، و إن كان بيتك عين الوجود، و ظفرت بالحجر المكرم - و مثله لا يضاهى و لا يباهى - فعندى:

إنسان عين الكون سر كماله ياسين اكسير المحامد طاها

وأما ما ذكرت من تضعيف صلاتك و تكثير صلاتك؛ فالتضعيف يحتاج إلى طبيب حاذق، فإنه ضعيف و لم يسلم سنده و لا مته بأسنه السنة النقاد من الطعن و التجريح.

و أمّا حديث فضل مسجدي؛ فشائع سائغ للشاربين منه المحض الصريح، فإن كان حولك من الملائكة صفوف؛ ففي من صفوف الملائكة ألوف، أو ما بلغك أنه ينزل فى كل يوم و ليلة بعد صلاة الفجر و العصر، على الصريح الشريف، سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر الدهر.

و أمّا ما ذكرت من أن فيك كان مولد النبى المعظم، و بك كان مسقط رأسه الرفيع المكرم؛ فصدقت، و لكن ولدته و ربيته و أخرجته، و آويته و خذلتية، و نصرته و عققته، و بررته، و كان بطنى و حجرى فناءه، و كنت له أمّاً شفيقه، و به - و لله الحمد - رفيقه، و ذلك كما قيل: بجدى لا بكدى، و بتوفيق الله كان سعدى.

ص: ١٩٥

فدعى المكابرة، و أنصفى عند البحث و المناظرة، و إياك أن تأتى هذه الخطة؛ فتتقى معى فى ورطة.

* فحين قرع سمع مكه هذا الكلام، و قرعت بما القى إليها من الملام، قامت و قعدت، و أبرقت و أرعدت، و سمرت عن وجهها فضل نقابها، و كشفت ما كانت سدلّت من حجابها، و دخلت إلى ميادين المفاخرة من بابها، و نطقت بملء فيها، و أظهرت السرائر التى كانت تخفيها، و قالت:

واعجباً كيف جسرت على الآساد فى آجامها الأرانب.

* لقد دلّ من بالث عليه الثعالب*

و لقد زاحمت الحملان القرح (١) فى المرعى، واستنت الفصل حتى القرعى، يا

صفراء و يا بيضاء غزى غزى، و يحك تجوع الحرة و لا تأكل بشديها؛ فبالله إلأما نهنت من كلامك، و تنهت من منامك، فما هلك امرء عرف قدره، و لم يتعدّ طوره.

ألسّت أم القرى؟! أليس أنه أقام بى ثلاثاً و خمسين سنه سيّد الورى؟! و إنما قام بك عشراً أو دون العشر، و إن لم يكن ذلك العشر فهو قريب من العشر، ألسّت أول بيت وُضع للناس؟! أليس أنّ الخليل و الذبيح رفعاً منى البناء، و وضعاً الأساس؟! و هات خبرينى أفى كلّ يوم و ليلة ينزل عليك مائة و عشرون رحمة، أم فى كلّ ساعة تتوارد عليك نعمة إثر نعمة؟ أم فيك الأماكن التى الدّعاء فيها متحقّق الإجابة؟ أم بك مثل ذلك الحرم الرّحب الذى حفّته السّعادة، و ملأت البركة رحابه؟ أم لك كالميزاب الذى تصبّ النّعمة منه صباً، و يغدو المشتاق إليه مغرماً و يروح صباً؟! أفى أوديتك كوادى إبراهيم الذى يجرى بالخير العميم، و يأتى بالبرّ الجسيم؟! ألك كالأبطح و البطحاء؟ أم فى سائمه أنعام جبالك كتور و حراء؟ أم فى ثنايا ثغورك ككدى و كداء؟

ص: ١٩٦

كلّا واللّه، لا قائمه لكّ معى فى بيت الفخار، ولا قاعده و لا بارقه لكّ فى سماء العلاء و لا راعده، فاقعدى فى بيت حباثك، و قوّى و عزّزى مَنْ هو أكبر منك و أقوى، و إياك ثمّ إياك فلا تحتقرى و لا تُنقّبى عمّا يعود عليك ضرره، و لا تنفّرى و أبصرى مَنْ شأوك، و قصّرى بعض خطوك، و قد دللتك طريق إخوان الصّفا، و قد نصحتك فيما قلته و كفى.

* فقامت المدينه عند ذلك على قدميها، و نظرت بعين حمراء إليها، و كشفت للحزب عن ساقها، و أمسكت ملابس فخار صرّتها مِنْ أطواقها، و قالت:

أنا ابنُ جلا و طلاع الثنايا متى أضعُ العمامه تعرفنى

تالله لقد وَضَح الصُّبح لذى عينين، و لا يُطلَب أثرٌ بعد عين، و يحك ما هذا الافتخار مع الافتقار، والاستصغار لكبرى المقدار؟! و إنّ كنتِ تقولين: إني أصغرُ منك سنّاً فافهمى المعنى، فأشرفُ أعضاء الإنسان العين، و الإنسان أشرفُ الحدقه، و أنّ الذبابة لتدمى مقله الأسد، و فى الشراره ضعفٌ و هى محرقه، كيف و مقدارى كبير، و شرفى خطير، فاحذرى فمتى لاقى زهيرٌ شبابى تبرّم سنك هرمه، و لم تبق لكّ بعد الهزيمه غير قرع سنك.

ويك! أمّا يكفيك أنّك لا تعين و لا تسمعين، ثمّ توّبخين و تقرعين، فلا بالمواعظ تتعطين، و لا مِنْ عَطَّ (١) الملام تمتعطين، فإن كنتِ امّ القرى فمن صنعتى،

أننى القرية التى تأكلُ القرى، فجميعُ البلاد جوفى، و كلّ الصّيد فى جوف الفراء.

أما تعلمين أنّ كلّ البلاد افتتحت بالسيف، و افتتحت بالقرآن؟!

أو ما بلغك أنّ منى ظهر الدين، وانتشر الإيمان؟! فهل امتزّت بهذه المزيه، أم حصلت لكّ هذه الخصوصيه؟! و علىّ الحقيقه:

فأنا الذى فتحتك، و منعتُ عنك الضير، و بالخير منحتك، فما عرفت لى هذا

ص: ١٩٧

القدر، ولا رفعت منى بذلك من القدر، لا يشكر الله من لا يشكر الناس، ولكن:

من يفعل الخير يُعَدِّم مجازيه (١) لا يذهب العرف بين الله والناس

و أما قولك: بأنك خصصت من الإقامة بالأكثر، و خصصت بالدون؛ فذهلت عن المعنى، و أن يوماً عند ربك كآلف سنه مما تعدون، بل أقول لك:

اعكسى نصيبى، فنصيبك من ذلك كعشر معشار نصيبى، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم حتى بمثواه، ولكنه آوى إلى الله فأواه الله، ومتى يطالع بدرى من ثنيات الوداع، لم يطلع لك معى نجم، أو تبسّمت ثنيا تغور آكامى، بكث جفون تلالك و كدالك، و لم يبق لجسمها حجم، أو استمعت شياطين حرابتك السمع من سماء سموى، قابلتها ملائكة السكينة من سكانى بالرجم.

فإن فخرت بوادى إبراهيم، ففى كل واد من أوديتى قلب المحب يهيم.

و إن كان حراء عندك جسمه و قلبه؛ فأحد جيل يحبنا و نحبه.

و أين العقيق من البطحاء، و الدر من الحصباء؟! بل أين الهباء من البهاء؟! و مع ذلك فلى فضل سوى ما ذكرت، و شرف غير ما إليه أشرت، و هو ما يبدو بأرجائى من الأنوار، و يظهر من معروفى جلى التجليات، و سرى الأسرار، و يكفيك من عظم خطرى، و سعادة جدى، أن البركة موجودة متحققة فى صاعى و مدى، فهل لك هذه المنقبة، أم هل وصلت إلى هذه المرتبة؟! *

فلما سمعت مكه هذا القول، قالت:

اللهم إني أبرأ إليك من القوة و الحول، و أستمّد منك الفضل و الطول، لقد آلت هذه الفريضة إلى العول، ثم التفتت إلى صاحبها التفات الأسد الخادر، و أتت من مفاخرها بالأول و الآخر، و قالت:

الآن حمى الوطيس، و زال التدليس والتليس، أذكرتنى الطعن و كنت

ص: ١٩٨

ناسياً، و يحك أئسددين إلى سهاماً أنا لك رشتها، و تُرسّلين إلى من افتخارك صباباً أنا الذي احترشتها، أظننت أنك مثلي، أو أن كلامك يدخل أذني، أو يقبله عقلي؟

أما عرفت من لفظي فضلي، أما تحققت أن ابنا لبونك لا يستطيعون صولة بزلي، فهل لعقدك نحر كنحري؟! أم قد غرقت سفيتك في لّج بحري؟! أما تخشين أن تحترقي إذا دنوت من تلك الجمرات؟ أما في قلبك من محسر حسرات؟

بلى والله، و تذهب عنك أنصارك، و يفترق الجمع حتى قابلتك من مفردى بجمع؛ فلو شاهدت من عرفه لعرفت من قدرك، و ظفرت ما عظمت من أمرك، أتراك إذا خطرت بوادي الأراك، يخطر ببالك أم ما ثم سواك؟! و إن ذكر نعمان هيل منعم مالىء واديك، بل إذا اعيد حديث حنين سىكن حنين نياق ناديك، فكم مخالف لهواه ولى مخالف، و كم من واقف بابى و عاكف، و كم من طائف بى و معتمر، فمرحبا بطواف بفنائى،... أما علمت أن من صرف شراب المحبة مشروبي؟ أما عرفت أنه لا يزال معى محبوبى؟ أما كل من أتانى و قلبه سليم، يروح و هو من الوجد بى سليم، فأقسم من نجوم مياهى بالزاهر، و من جياها فى مصاف مصافها بالسابق الماهر، لئن لم تكففى عنى غرب سوانيك (١)، و تُثنى عنان ثنائك على

ص: ١٩٩

مغانيك، لأَجْرَدَنَ إِلَيْكَ مِنْ مفاخرى جيشاً ما لك به يدان، ولأَفْنِيَنَّ أنصاركَ بكلّ هاشمى خؤولته بنى عبدالمُيدان، فقفى عند حدّكَ، فكم تُرهين بخرزِكَ و مَيْدَكَ، وتكيلين بصاعكَ و مَيْدَكَ، ولا تكونى كالباحث عن حتفه بظلفه، فمقتل المرء بين فكّيه، و رُبّما قُتل الإنسان بسيفه، وإيّاكَ و بأسى العتيد، و بطشى الشّديد، وإن كان لسان فخرِكَ ذهباً أو فضّة، فلسانى حديد، و حذارِ حذارٍ مِنْ سفارِ النّفار، ونصال نصال النّظار و النّقار، فقديماً قيل:

توقّ مُعاداة الرجال، فإنّها مَكْدَرَةٌ لِلصّفو مِنْ كلِّ مشرب، ولا تستر حوبا، وإن كنت واثقاً بشدّة بأس، أو بقوة منكب، ولا يشربُ السُّمّ الذّعاف أخو حَجى مُدلاً بدرياقٍ لديه مجرّب ويكفيك من شرفى أنّ الجمهور يحكم لى عليك بالعلبة و الظهور.

* فلَمّا سمعت المدينة كلامها، ضَرَبَتْ طبولها، و نَشَرَتْ أعلامها، وبرزت بروز الأسد من غابه، والسّيف من قرابه، وقالت: ويحك!! ألتصغرين قَمْدرى، وتحتقرين أمرى، و أنا جذيّلها المحكك، وعُذيقها المرجّب، و سنانها المدرّب، وفارسها المجرّب، فواعجبا! تستخفّين ثمّ تستخفين، و تستكفين و لا- تكفين، أما بلغك أنّ البادىء أظلم، و أنّ دفع الشرّ بالشرّ أحزم، أما سمعت قول الأوّل:

دَعِ الشرّ و انزل بالنّجاة بمعزلٍ إذا أنت لم يصبغك فى الشرّ صابغ و لكن إذا ما الشرّ أرحى قناعه عليك فجرد دفع ما أنت دافع و قول الآخر:

إذا أنت لم تُصِف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقلُ

ص: ٢٠٠

يركب حدّ السيف من أن يضيّمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

و عجبْتُ منك كيف تفتخرين بواديك و بواديك، و ينادى مناديك بناديك، و هنا أقول:

ليس بعشك فأدرجى، و لا بمقامك فأخرجى، و حين وصلت إلى هذا المعترك، و حصلت في الجبال، و وقعت في الشّرك، و أمكنت الرّامي من الرّمية، و أرخيته من هذه القضية؛ فمتى ذكر لسموك نسيى العليل، صار قلبه بحرّه مريضاً أو كالمرضى، أو عارض فضائي الواسع ما بين مأزميك، وقع معه في الطويل و العريض، أو عاينت شجراتك من نخيل تلك الثمرات، تقول قلوبها غمرات ثم تبخلين، و لكن لا تبخلي تلك الغمرات، أو شاهد واديك خلال أسحار وادي العتيق ظلال تلك السّمرات، يتلهّف أسفاً على ما فاتته من ذلك، و يتلهّب بالزّفرات، فلا جرّم كان في قلبه لذلك جمرات، و مهما بدت لك غابتي فررت من زئير آساده، أو لاحث لك العوالى من جناني ردت سيوف فخرك إلى أعمادها.

أما سموك تذوّب منه كلّ كبّد حرّى، و كلّما خلا وقت فيك مرّ سريعاً، و أعقب مفارقه صبراً، فأنت من جبالك مع أرضى الواسعة في ضيق، فلتسافر عين شّعابك الضيقة في فسيح أرضى و ليمرّ بى، فأنا على الطريق، و ما برحت تطيف من الأكباد برياضى البهجة حرارها، فتطفئ بنسائى الأرجة نارها، و يخبو أوارها.

واعلمى أنك متى قابلتني بنحرك، كففتك بكفّ حجتى، ولم أدفع مقاتلك بصدري، أو تبدلت في حنينك قابلتك من الجمال بصدري، و إن جلوت عروس كعبتك، أتيت من الملىّ بالبهاء و الكمال بالبرهان الجلىّ، أو افتخرت بطوافك و عمرك، افتخذت من مقام الجمال و الجلال بعلّى، و إن أجريت ذكر زمزمك و مصافيك، أو مراعى شّعابك و واديك؛ فاسمعى ثم أنظرى، فليس الخبر كالعيان، ماءً و لا كصدا، (١) و مرعى و لا كالسعدان، (٢) و إن يكن عندك المشروب فعندى الساقى، أو سليم المحبّة فلدى الصاعد، فى درج المعالى و الراقى، و أراك تفخرين

١- شدة العطش.

٢- سعدان نبت تأبى الدواب أكله.

ص: ٢٠١

بوادي الأراك، و تحن جياذك بين يديك و وراءك، فبالله إلّما تركت ما عراك من مراك؛ كما أنّ ساكني سيّد العباد و لا فخر، و أقسم من غاباتي بالأسود، و من أكباد لأياتي بالحرار السود، و من أزهار رياضى بوشى البرود، و من أغصان نخيلي و أشجارى بكلّ قدّ المود، و من رياح بساتين بالعاليّة، و من سواقي جنان بكلّ ساقية جارية، و جارية ساقية، لئن لم تتركى بعض نفارك، و تلبسى ثوب وقارك، لأبعثن إلى مياهك من عيون نقّاد عيوني، من يظهر زيف جيادها، و لأجردن إليها من معالى جيشاً، يقلّع خيام فخر جبالها بأوتادها!

وأما ما احتجبت به من كلام الجمهور، وأنّ ذلك عندهم هو القول المشهور، فجوابك:

فرق ما بين الدرهم و الدينار فى الصّرف، و الناس ألف منهم كواحد و واحد كالألف، و أن إذا حققت المآخذ و المدارك، تيقنت كمالى فوق كمالك، و إذا أنعمت النظر حقّ الإنعام، فمالك كمالك، و حسبك من دحوض حجتك و الانقطاع، أن ما ضمّ أعضاء صلى الله عليه و آله، أفضل الأرض بالإجماع، وهاك خذى من الفضائل ما ليس مثبتاً فى بطاقتك، و من كوى المفاخر ما يكون فوق طاقتك، أليس أنّ الطاعون لا يقرب مقامى و لا يدخل، كما لا يدخل الدجال باباً من أبوابى؟! فهل لك فى هذه المسألة قول أو عمل؟

كلّما واللّه، بل لا ناقة لك فى شرح هذه الخصوصيّة و لا جمل، و ما برح سيّكاني يؤدّون من واصل من كلّ واصل و وارد عليهم، و كذلك أيضاً يحبّون من هاجر إليهم و لا يستبدّون بشيء عن جارهم و لا يستأثرون،

[وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ] (١)

. فاسبلى عليك أستار حجبك، و أقلّى من تيهك و عجبك، و ارجعى من قريب إلى ربك.

ص: ٢٠٢

فلما انتهى المقال بهما إلى هذا المقام، و بليت كل واحد منهما بالداء العقام، أقبلت مكّة عليها، وقالت:
 دعينا من المرآء و الجدال، و كثرة القيل و القال، فإلى كم هذا النزاع و المصاع، و كيل الكلام بالمدّ و الصّاع؟! ...
 هذا آخر ما أردناه، و تمام الأمر الذى قصدناه و أردناه، و نسأل العظيم أن يوفّقنا فى السّداد فى القول و العمل، و يُعيّزنا من الضّلال و
 الزّيف و الزّلل، و يعصّمنا فى الحركات و السّكنات من الخطأ و الخطاء و الخطل، آمين، والحمد لله ربّ العالمين و صلّى الله على محمّد
 و آله الطاهرين.
 نُقلت من نسخه سقيمة، إن قدر الله سوف تقابل و يُصحّح بصحيحه مستقيمة.

ص: ٢٠٣

٢-رسالة في المفاخرة بين مكة والمدينة

هذا صورة خط الشيخ العلامة، شيخ الإسلام، علم العلماء، لسان المتكلمين، سيد النظر، سراج الدين البلقيني، أدام الله النفع بعلمومه. الحمد لله، و سلام على عباده الذين اصطفى. وقفت على عرفات ذات العلمين، و أفضت منها؛ فاستشعرت بإفاضتها مشاعر الحرمين. فقالت النفس التائقة للتفضيل بالإجمال والتفصيل: هل إلى المفاخرة بينهما من سبيل؟

فقلت لها:

أيتها النفس المسكينة! الزمى الوقار والسكينة، أتدخلين بلا أدب بين مكة المشرفة، والطيبة الأمانة، هذا مقام يتأدب عنده الأدباء، و رحاب متسع بمقال النجباء، الذين عظمت عليهم المنّة بالتباع الكتاب والسنة، في طرح ما لا يليق بالبطحاء والعقيق، لم أر من قر بين علميه، و فآخر من حرميه بالمنثور والمنظوم، و أشار فيه إلى السر المكتوم بالمنطوق والمفهوم، سوى من برع في الآداب، و نزع إلى طريقه أولى الألباب، و رحل فكان له في الحديث، و سوق المعرفة بالأدب حسن البضاعة، و قضى في ذلك دون جماعة الحرمين، و لا بدع أن يكون على أقصى الجماعة، فمروره بين العلمين ارتفع به علمه، و مفاخرته بين الحرمين انتصب على تمييز ذلك كله، فيما أبحر إليه جزم العدى، و لقد جرى هذا الفارس بميدان عظيم المدى، و نحا نحو أبيات العرب العاربة، فتفتن في عيون حدائقها، و قضى مآربه، فعلى أفعال التفضيل انعطف واحد في بيانه، نسقاً بما ائتلف و اختلف، فحزنا صنيعة، و نغم بيان من ذا بديعه، أغرب و أعرب، فأرقص و أطرب، و لئن خبر في المحاوره، و خبر نحوه المحابرة، و أوماً إلى ما دفع عنه

ص: ٢٠٤

المحاصرة، فليس المقصود إلا الإبداع والتضمير، وظهور الإمكان بالتمكين، فمخاطبة المدينة بالمسكينة، ليس واقعاً على جهة الاحتقار، كما هو المتعارف في الافتخار، لكن فيه إشارة إلى التواضع المطلوب، وما أحلاه في المحبوب، وقد قيل: هو من جملة أسمائها، والتواضع رفيع الشرف على أرجائها، وقول مكة للمدينة: «يعني ما وصلك إلّا ما فضل عني»، يريد ما ظهر فضله عن نسبه إلى مكاني، وخير لما تدين به إلى ذلك دعائي، ألا ترى إلى قولها: «وإن فخرت بحلول الشفيع، ففي كان مسقط رأسه الرفيع»، ولا غيب فيما أردت مما لا يعني به المخاطب خصوصاً، بل هو الحكاية بقاعدة أو حديث أسند منصوصاً، أو ذاك مستعمل وهو على الألسنة يدور، فلا حرج في إيراده، ربّما ذم الفخور، والمتشيع بما لم يؤت كلابس ثوبي زور، وما يذكر من التفاخر بعد ذلك لعله بين أهل البلدين، وبذلك تزول شبهة الدين.

«فأخرجته وآوئته، وخذلته ونصرته، وعقته وبرته»، يدل على ذلك، ويتضح به المسالك.

وأحسن سبيل يوضح على ذلك الدليل، ما جاء في التنزيل، في كلام ربنا الجليل، فاسمعه وكف عن المؤاخذه التي لذلك أحوجتك، إذ قال الله تعالى:

[وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ (١)]

ولذلك أعاد

الضمير لأهلها، الذين أضل أعمالهم، بقوله:

[أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَصِرَ لَهُمْ].

ومما يحقق هذا المقصود ويوضحه ويظهره ويصححه، قول مكة لما التفتت إلى صاحبها التفات الأسد الخادر، وأتت من مفاخرها بالأول والآخر:

«لأجردن من مفاخرتي إليك جيشاً مالِك به يدان، ولألقين أنصارك بكل هاشمي خولته بني عبدالمدان».

ليس بغريب بين أهل الحجاز، استعمال الاستعارة والكناية والمجاز، ولا تطريز نسج هذا المنوال، بيسير ما انطوى عليه من ضرب الأمثال، فنقول لمن يعم

ص: ٢٠٥

الدليل على المقصود، و لم يأت بالشاهد على المشهود: «قولٌ و لا معنى، اسمعُ جَعَجَعَةً و لا أرى طحناً». و نقول:

مَنْ وُضِعَ فِي غير مرتبته، و أنزل عن عظيم منزلته، و ربي عليه مَنْ هو دونه في المنزلهُ أو ساواه، و بمجرد دعواه ناواه: «واعجباً كيف جَزَتْ على الآساد في آجامها الأرانب؟! بالله لقد ذلَّ من بالث عليه الثعالب، و لقد زاحمت الحملان القُرَح في المرعى، و استنَّت الفِصال حتَّى القرعى».

كما يتمثل المُعْظَمُ مُزِيلاً للأمر الملتبس: «لقد هزلتُ حتَّى بدى من هزالها كلاها، و حتَّى استامها كلُّ مفلس، و لكن إليك عنى أيها الناظر بعين الحسد، أنت لا تزال في كَمَد، هل رأيت أو سمعت بمحدثٍ أديبٍ بتعريف هذا الجمع انفراد؟ و هل استشعر شاعرٌ فورده من موارد الصفا و العذيب ما ورد؟ فأقسم بمن خلق الإنسان في كبد، لقد قال عَلِيٌّ على لسان هذا البلد، و هذا البلد ما يسمعه من أحد، كأن لم يكن بين العذيب إلى الصفا أديبٌ، و لم يشعر بمكّه شاعرٌ، فيا أيها الادباء، الزموا

ص: ٢٠٦

أدباً، وأنظروا حَبْرًا، قصد في بحر قصيدته النون،

[وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (١)]،

واسمع من سواقي عيون الحقائق طَرَبًا، و أقلع هذا الزماني في بحر العرفان،

[وَأَتَّبَعَ سَبِيلًا]

، وسار للحرمين و رسى فيهما، و ألقى بالمقاليد، و أخذ بكلتي يديه الحديث بالمتون و الأسانيد، و استقرت سفينته على الجودي،
 معدن الجود المشهود، مهاجر صاحب المقام المحمود، فأدرك عين الحياة، و منزل النجاة، و جعلنا الله و إياه ممن اتبع أمر مولاه، و
 خالف نفسه الأماره بالسوء، و هداه، فَحَصَلَت الهداية بالبداية و النهاية. و سلام على المرسلين، و الحمد لله رب العالمين.

اللهم صل و سلم على سيدنا محمد، و آله التابعين، حَسْبُنَا اللهُ و نعم الوكيل.

قال ذلك:

و كتبه الفقير إلى عفو ربه، عمر بن رسلان البلقيني.

نُقلت من نسخه سقيمة مصحفه الكتابه.

ص: ٢٠٧

٣- قصيدة ابن الخطيب الإربلي

هذه قصيدة نظمها مولانا، الإمام العلامة الهمام، مقتدى أكابر الأنام، علامة أئمة العلام، ناظم جواهر البلاغة في بساط أساليبيها، و ناثر أزاهر البراعة على بساط تراكيبيها، مظهر أسرار المعاني من صفاء معادنها، ومبدر أقمار البيان في سماء محاسنها، بدر الملة والدنيا والدّين، شمس الإسلام، و نجم المسلمين،

ابن الخطيب الإربلي

، أنار الله تعالى في سراج العلى بدور علوه، و أدار على قطب السّناء أفلاك مجده و سموه، و ذلك لما وقف على المفاخرة بين مكة والمدينة، التي أنشأها ذو الفضائل الغزيرة، و الفواضل المبينة، مولانا الإمام المعظم، القدوة الهمام المكرم، شيخ الفضلاء الأئمة، سيد علماء الأئمة، باهر البلغاء بدائع بيانه، و مخبر النبلاء بصنائع بنانه، المرتقى معارج العلى و قببه، و السالك مناهج الاعتلاء وسببه، نور الملة والدّين، بهاء الإسلام، و ضياء المسلمين،

أبو الحسن الزرندی

، المحدث بالحرم الشريف النبوي، على مشرفه أفضل الصلاة والسلام، أعلى الله جده، و حرس مجده، و ذلك في شهر صفر المبارك، في سنة ستّ و سبعين و سبعمائة، و كلّ قافيتين منها متجانسان خطأ، وبعضها لفظاً أيضاً، و عدد أبياتها ٣٤ و هي هذه:

أيا بحر علم فاض من أشرف المدن و سار على أبهى المناهج و السّنن

حوى من علوم المسلمين أجلها لإحكام أحكام الفرائض و السّنن

شهرت لإحياء الفضائل جاهداً و فارقت في إحيائها لذّة الوسن

فجوزيت بالحسن و كلّ امرئ يرى جزاء لما قد أمّ من فعله و سن

ص: ۲۰۸

لقد أظهرت أفكارك الغرَّ مبدعاً مقلد أعناق الأفاضل باليمن
و أبدعت في وضع المفاخرة التي كتبت بفضل كل عن حمله اليمن
و جئت بمعنى لم يحط فكرة به و لم يتبدل بين الأنام و لم يهن
تري كل قلب حير قلبه سماعه بفهم معانيه البديعة مرتهن
فيا حبذا قلب وعى حسن لفظه و مبدع معناه بباطنه سكن
فكم نكتة حلت... (۱). يحقق فقرت و حبات القلوب لها سكن
نزلت بما أبرزته فلك العلى و أنت بإحراز المزايأ به قمن
و فى وصفه تحوى المحامد كلها و إن لم تكن أنت الملى بها فمن؟
و لما علوت الناس فضلاً و أظهرت علومك ما بين الأفاضل من حسن
تسميت بالفضل الذى تستحقه علياً، و قد كُتبت فيهم أبا الحسن
و لُقب نور الدين، إذ أنجم الهدى تلوح على علياك من أرفع الفن

ص: ٢٠٩

و أظهرتَ فَضْلًا في المفاخره التي كُتِبَتْ كأثمار دوانٍ على الفننِ
 بوجهٍ غريبٍ لم تطفِ فكرهً به و لا حَقَّقَتْ معناه في سالف الزَّمنِ
 كشفتَ الغطا عنه فأصبح واضحاً و لولاك نال الفهم في قصده الزَّمنِ
 فلو أن قسّاً رام إيضاح ماله جمعتَ مِنَ الأمثال فيها لما فَطِنُ
 و مَنْ يترجى أن يقوم بمعجزٍ مُنِحَتْ به، قد كَلَّ عن فهمه الفِطْنِ
 و إنَّ امرءاً يسعى لإظهار فضله و نفع الوري فيما حواه لمؤتمن
 و ليس لمن يسعى بإخلاص نيةً لنفع الوري، إلّا رضى الله مِنْ ثمن
 و مَنْ راقب الإخلاص في كلِّ طاعهٍ يقومُ بها فيما تبدّأ و ما بَطُنُ
 ينالُ مِنَ الرَّحمن فوق رجائه و يبلغُ مِنَ الطّافه فوق ما بَطُنُ
 و لا غرو أن يرقى لأرفع رُتبهٍ مِنَ الأجر و الإعجاز في القول و اللّسن
 لأنك جازٌ للنبي الذي له فضائل لا يُحصى تفاصيلها اللّسن
 رسولٌ حباه الله مِنْ سِرِّ غيبه بمستودعاتٍ في سرائره خَزَن

ص: ٢١٠

وَمَنْ نَالَ قُرْباً مِنْ شَرِيفِ جَنَابِهِ فَلَيْسَ يَخَافُ الدَّهْرَ بَوْساً وَلَا حَزْنَ
وَيَسْرَى إِلَيْهِ مِنْ كَمَالِ جَوَارِهِ ضِيَاءٌ يُحَاكِي مَشْرِقَ الشَّمْسِ فِي الْعَنَنِ
وَمَنْ يَقْبِضُ الدُّنْيَا بِقُرْبِ جَنَابِهِ حَقِيقٌ بِأَنْ يَعْرِىَ إِلَى الصَّبْرِ وَالْعَبَنِ
فَقُرْبِكَ مَنْ مَغْنَاهُ حِصْنٌ وَجُنَّةٌ تُرَدُّ بِهِ الْأَحْدَاثُ مَنْ أَمْنَعَ الْجُنَنِ
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ قُرْبِ حَضْرَتِهِ هُدًى فَذَاكَ كَمِيتٌ قَدْ تَضَمَّنَهُ الْجَنَنُ
فَبُشْرَاكَ نَوْرَ الدِّينِ أَنْكَ مَا جَدُّ عَلَى قُرْبِ قَبْرِ الْمُصْطَفَى نَفْسَهُ سَجَنُ
حَقِيقٌ بِأَنْ تَحْظِيَ بِكُلِّ فَضِيلَةٍ تُرَامُ، وَتَعْطَى كُلَّ مَا رَمَتْ سَحَنُ

مكة في وجدان شعراء ما قبل الإسلام

إشارة

د. الطيب على الشريف

المبحث الأول: الموقع والتسمية:

مكة: اسم يطلق على بقعة ضيقة من أرض الحجاز، شبه جزيرة العرب (١)

عُرف أمرؤها، وذاع صيتها، منذ قدم إليها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وبنى بها البيت العتيق بأمر من الله جل جلاله (٢)، وتعد مكة أشهر مدن العالم كله.

يرتفع موقعها على سطح البحر بنحو (٣٣٠) متراً، وهي على عرض (٣١) درجة، و (٢٨) دقيقة، وطول (٤٠) درجة، و (٩) دقائق، وتمتد من الغرب إلى الشرق بمسافة نحو ثلاثة كيلومترات، طولاً، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً، في واد ضيق ممتد من الشمال إلى الجنوب، منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان

١- الحجاز: هي المنطقة الواقعة شمال غرب شبه جزيرة العرب، الممتدة على شاطئ البحر الأحمر، وسميت حجازاً: لأنها تحجز بين تهامة ونجد، أما شبه جزيرة العرب: فهي منطقة متصلة بقارة آسيا من الشمال ويحدها من الشمال: مصر والشام والفرات، ومن الجنوب: البحر الهندي، ومن المغرب: البحر الأحمر، ومن الشمال الشرقي خليج فارس، وأهم أجزائها: تهامة، الحجاز، نجد، العروص، اليمن، ينظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط. لا. ت. ٢: ١٣٧ و ٢١٨ وما بعدها، ومحمد الطاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط: ١، ١٣٨٥ هـ ١: ٣٦.

٢- كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة، وبنائه البيت، بعد طوفان نوح عليه السلام بحوالى ٤٠٠ سنة، وقيل غير ذلك، ينظر: التاريخ القويم: ٣: ٢٠ وما بعدها.

ص: ٢١٢

بعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب، أى على أبواب مكة الثلاثة: (أعلى الوادى وأسفله وكداء)، ولذا فإن القادم عليها لا يشاهد أبنيتها إلا وهو على أبوابها (١)، وكل سفوح هذه الجبال عامرة بالسكان، والبيوت مدرجة عليها إلى بطن الوادى، كما تشاهد على الحرم فى الوقت الحاضر.

ولمكة أسماء كثيرة وردت فى القرآن الكريم، وكتب التاريخ، بلغت فى مجموعها أكثر من ثلاثين اسماً، اقتضتها ضرورة الأوصاف، والأحوال المختلفة للموقع، وقد ورد ذكرها بالتفصيل فى بعض المصادر (٢)، ولكن المشهور منها ما جاء به القرآن الكريم، إذ سماها: مكة، وبكة، وأم القرى، والبلد الأمين (٣)، ووردت تعليقات كثيرة فى سبب هذه التسميات، منها على سبيل المثال:

- ١- ينظر: السابق: ٢: ٧ وما بعدها، ومحمد فريد وجدى، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط. ٣، ١٩٧١ م، ٩: ٣٢٧ وما بعدها.
- ٢- ينظر: التاريخ القويم: ١: ٢٨، ومعجم البلدان: ٥: ١٨١ وما بعدها.
- ٣- وردت باسم مكة فى قوله تعالى: «وهو الذى كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة»، الفتح: ٢٤، ووردت باسم بكة فى قوله تعالى: «إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»، آل عمران: ٩٦، ووردت باسم أم القرى فى قوله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها»، الشورى: ٧، ووردت باسم البلد الأمين فى قوله تعالى: «وطور سينين وهذا البلد الأمين»، التين: ٣.

ص: ٢١٣

أنها سميت مكة: لأنها تُمَكُّ الجبارين، والماردين، المعتدين عليها، أي: تدكُّهم، وتحطمهم، وقيل: سميت بذلك لازدحام الناس فيها، وقريب من هذا: تعليل اسم بكَّة، فهو من البَكِّ، أي: التهشيم، والتمزيق، والقهر، والإجهاذ، وما جرى مجراها، أما أم القرى: فهي تحمل معاني: القيادة، والزعامة، والقداسة، وما شابهها من معاني التعظيم والإكبار، ذلك لأنها أعلى مرتبة من جميع القرى، وفي مقدمتها رفعةً وشرفاً، ولا يخفى معنى البلد الأمين، ويكفي تفسيراً له: أن من دخله آمنَ مادام بداخله ولو كان مجرمًا (١).

المبحث الثاني: مكانة مكة وشرفها:

لمكة مكانة روحية عالية لدى جميع العرب، والمسلمين، وغيرهم من الأمم، والملل الأخرى، مثل: الروم، والفرس، واليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، والجبارين، والمردة، والعصاة، والمجرمين، والصعاليك، ويلجأون إليها عند الحاجة والخوف، ويفدون عليها حجاجاً من كل بقاع الأرض، وفي القرآن الكريم، والآثار التاريخية دلائل لا تحصى على هذه المنزلة العظيمة، والشرف العالي لمكة المكرمة، ومن الأمثلة على ذلك:

ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى:

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا» (٢)

، وأم القرى هي مكة المكرمة، ولا يخفى ما في ذلك من

الشرف وعلو المنزلة، وقوله أيضاً:

«وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» (٣)

، دليل على

فضلها على سائر البلاد، إذ بدأ بها في الذكر في الحالتين معاً: الرحمة، والإنذار.

ومما جاء في المصادر التاريخية من أسباب تسميته زمزم: أن الأعاجم من يهود ومجوس وصابئة، وغيرهم، كانوا يحجون البيت ويزمزمون على بئر الماء، وأن

١- ينظر: تفسير الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط. ١، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م، ٦: ١٠، ومحمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الشام للتراث، بيروت، لبنان، لا. ط. لا. ت: ٢٠-١١٣.

٢- القصص: ٥٩.

٣- الأنعام: ٩٢.

ص: ٢١٤

سابور الملك لما حج زمزم فيها، والزمزم: كلام الأعاجم وقراءتهم في صلاتهم، ودعائهم على طعامهم، وتذكر المصادر أيضاً: أن الفرس تعتقد أنها من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تمسكاً بشعائر جدهم، وهدية، وحفاظاً على أنسابهم، وكان آخر من حج منهم الملك: ساسان بن بابك، وكان إذا أتى البيت طاف به، وزمزم على هذه البئر، وفي ذلك يقول شاعرهم:

زَمَزَمَتِ الْفَرَسُ عَلَى زَمَزَمٍ وَذَلِكَ فِي سَالِفِهَا الْأَقْدَمِ (١)

لمكة مكانة روحية عالية لدى جميع العرب، والمسلمين، وغيرهم من الأمم، والملل الأخرى، مثل: الروم، والفرس، واليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة، والجبارين، والمردة، والعصاة، والمجرمين، والصعاليك، ويلجأون إليها عند الحاجة والخوف، ويفدون عليها حجاجاً من كل بقاع الأرض، وفي القرآن الكريم، والآثار التاريخية دلائل لا تحصى على هذه المنزلة العظيمة، والشرف العالي لمكة المكرمة

وافتخر بذلك أحد شعراء الفرس، فقال:

ومازلنا نحج البيت قَدْماً ونُلْقَى بِالْأَبَاطِحِ آمِنِينَ

وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق بأصيندنا

وطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تُزَوِي الشاربينا (٢)

ومهما قيل في هذا الشعر وصحته، فإنه يحمل في طياته معاني التعظيم والإكبار لمكة والبيت الحرام، وكافة المقدسات التابعة لهما.

١- ينظر: معجم البلدان: ٣: ١٤٨.

٢- المصدر السابق.

ص: ٢١٥

ومن هذا القبيل: ما جاء في الشعر الجاهلي من مثل قول: سُبَيْعَةُ بنت الأَحْبَبِّ، من قيس عيلان، توصى ابنها بتعظيم مكة، وعدم البغى فيها، لأن عاقبته وخيمه، وذلك من أبيات طويلة كلها تعبير عن تلك المكانة العالية لمكة في قلوب العرب، منها قولها:

أَبْنَى لَا يَظْلِمُ بِمَكَّةَ لَا الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ
وَاحْفَظْ مُحَارِمَهَا بَنَى وَلَا يَغْرُنْكَ الْغُرُورُ
أَبْنَى مَنْ يَظْلِمُ بِمَكَّةَ يَلْقَ أَطْرَافَ الشُّرُورِ (١)

وقول الشاعر ابن الأشلت:

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبُّكُمْ وَتَمَسَّحُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ (٢)

وورد في الآثار التاريخية: أنه وُجد مكتوب على حجر في ربوع مكة: «أنا الله ذو بكة الحرام، وضعتُها يوم وضعتُ الشمس والقمر، وخففتها بسبعة أملاك حُفَاء، لا تزول حتى تزول أخشابها، مبارك لأهلها في اللحم والماء»، وُجد في بعض الزبور: «أنا الله ذو بكة جعلتها بين هذين الجبلين، فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاث طريق: أعلى الوادي، وأسفله، وكداء، وباركت لأهلها في اللحم والماء» (٣).

ومنها: أنه يوجد بمكة البيت الحرام، ومن دخله كان آمناً، ومن أحدث في غيره من البلدان حدثاً، ثم لجأ إليه، فهو آمن إذا دخله، فإذا خرج منه أقيمت عليه الحدود، ومن فضلها وشرفها: أن أهلها على مدى الدهور والأزمان آمنون،

١- ينظر: عبد الملك بن هشام الحميري، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة الباب الحلبي، القاهرة، ط. ٢، ١٩٥٥ م، ٢٥-٢٦.

٢- السابق: ١: ٥٩، والأخاشب: جبال مكة، ومنها التعبير بأخشاب مكة، أي جبالها.

٣- معجم البلدان ٥: ١٨٣.

ص: ٢١٦

يغزون الناس ولا يُغزون، ويسبون من البلدان الأخرى ولا يُسبون، وقد ثبت أنه لم تُسب قرشية قط، كما ثبت أن مكة لم تَدن لدين الملوك، ولم يُؤد أهلها الجزية، ولم يملكها ملك قط من خارجها، بل إن الملوك، والجبابرة، يحجون إليها، ويعظمونها، كملوك: حمير، وغسان، ولخم، إذ يخضعون، ويذلون عند قدمهم لمكة، فيدينون لقريش، ويرون تعظيمهم، والاقتداء بآثارهم فرضاً واجباً، وشرفاً كبيراً.

وقد أشاد الشعراء القدامى بهذه المكانة العظيمة، وذلك الشرف الرفيع، كقول أحدهم:

أبوا دين الملوك فهم لَفَّاح إذا هَيَّجُوا إلى أجابوا

وقول آخر:

ولقد غزاها تُجَّع فَكَسَا بَيْتَهَا الحبير

وأذلَّ ربي ملكه فيها فَأَوْفَى بالندور (١)

وبلغ من تعظيم العرب لمكة قبل الإسلام: أن الرجل منهم كان يحج البيت ويعتمر، ويطوف، فإذا أراد الانصراف عنها إلى بلده، أخذ حجراً من حجارة الحرم، فنحته على صورة صنم من أصنام البيت، فيحتفى به في طريقه، ثم ينصبه في أحسن بقعة في بيته، ويجعله قبلة له ولأسرته، يطوفون حوله، ويتمسحون به، ويصلون له، تشبيهاً له بأصنام الكعبة، وبمرور الزمن اعتادوا ذلك وفشا فيهم، بل صاروا يأخذون معهم حجارة البيت دون نحت، يعبدونها ويقدمونها، ثم فشَّت فيهم الأصنام، وتعددت وتنوعت منذ أن أحضر عمرو بن لُحى الصنم (هُبَل) من العمالق بأرض الشام (٢).

وقد كثر تناول الشعراء لظاهرة الأصنام هذه بين مباح وقادح.

١- السيرة: ١: ٢٦: والْبَيْتَةُ: الكعبة، وقيل مكة، والحبير: نوع من البرود اليمنية الموشاة.

٢- ينظر السابق: ١: ٧٧، والتاريخ القويم: ٢: ٢١.

ص: ٢١٧

حيث هجا شاعر من بنى مَلْكان للصنم (سعد)، ورجمه بالحجارة، وكان أن أوقف إبله عليه يتبرك به، فنفرت منه في البرارى، فخرج في طلبها حتى جمعها، فلما تجمعت له بعد تعب، لعن ذلك الصنم، وقال في ذمه:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعد
 وهل سعد إلا صخرةٌ يتنوّفه من الأرض لا تدعو لغى ولا رُشد (١)

ومن تعظيم العرب لمكة: أنهم كانوا يتسابقون لكسوتها، ويتفاخرون بذلك، وتذكر المصادر أن تبع الأصغر (٢) أول من كسا البيت، وأطعم الناس في الجاهلية، على الراجح (٣)، وهو القائل مفتخرًا:

وكسوا البيت الذى حرّم الله ملاءً مُعَصِّداً وبرودا (٤)

وأقمنا به من الشهر شهراً وجعلنا لبابه إقليدا (٥) وخرجنا منه نؤمّ سهيلاً
 قد رفعنا لواءنا معقودا (٦)

وتناول شاعر من العرب اسمه: أبو حبيب، على أبى جهل، وتناول قريشاً بالهجاء، فردّ عليه الزُّبرقان بن بدر بقوله:

أتدري من هجوت أبا حبيب سليل خضارمه سكنوا البطاحا (٧)

١- السيرة ١: ٨٣.

٢- تبع الأصغر: هو تبع بن حسان بن تبع بن كليكب بن تبع بن الأقرب، ينظر، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، تحقيق: د. ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط. ٢، لا. ت.: ٦٣٤، وقيل: إن أول من كسا البيت: إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقيل: عدنان بن أدد، ينظر: التاريخ القويم: ٤: ١٨٦.

٣- ينظر: السيرة: ١: ٢٤-٢٥.

٤- الملاء: ثياب مُجَبَّرة من عصب، ومُعَصِّد: مشدود محكم، والبرود، ثياب يمنية، ينظر التاريخ القويم: ٤: ١٨٦.

٥- إقليد: مفتاح، أى جعلنا للكعبة مفتاحاً، عن السابق.

٦- ينظر: معجم البلدان ٤: ٤٦٦-٢٦٧، والتاريخ القويم ٤: ١٨٦، والمعارف: ٦٣٥، وسهيل: نجم معروف في السماء.

٧- الخُضارم: السَّيِّد، الجواد، المشهور، والجمع: خُضارم، ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، إشراف: أحمد حسن الزيات وآخرين، بدون معلومات نشر، مادة: خَضَرَم.

ص: ٢١٨

أَزَادَ الركب تذكر أم هشاما وبيت الله والبلد اللقاحا (١)

فالزبرقان يُبدى تعجبه من جرأه الشاعر على هجاء قريش، على الرغم من هذه المكانة العالية التي ينعمون بها، ووجود أمثال هؤلاء الكرماء الشجعان بينهم.

المبحث الثالث: صفه مكة القديمة:

تقع مكة «في واد تحيط به الجبال، وتمتد سيولها فيه، وإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات... وجوهاً حار جاف، تختلف حرارته بين (١٨) درجة في شهور الشتاء، و (٣٠) درجة في شهور الصيف» (٢)، ومكة القديمة عموماً: قليلة الماء، قليلة الأشجار المثمرة، وعمرانها في

عهد جُرهم وفُطُورَة (٣) لم يزد على مضارب من الشعر، كانت تتلاصق أحياناً،

وتتباعد أحياناً أخرى في سفوح الوادي، وفي عهد قريش صارت تختفي مضارب الشعر، وتحل محلها البيوت المرصوفة بالحجارة، أو المبنية بالطين والحجارة، حول المسجد، وعلى جوانب الوادي، وأول من بنى بيتاً بالحجارة بمكة: سعد بن عمرو الجهمي، وقد قال فيه شاعرهم:

وأول من بَوَّأ بمكة بيته وسَوَّرَ فيها مسكناً بأثافي (٤)

وكانت بيوتهم في أول أمرها بدون أبواب، وأول من بَوَّأ بيته في مكة:

حاطب بن أبي بلتعة، وكانت الأبواب مقصورة على بعض الغرف التي بها أشياءهم الثمينه، أما المدخل والردهات فهي مفتوحة على استراحات كانوا يلحقونها ببيوتهم نُزِّلَ الحجاج والمعتمرين، وعلى هذا النحو نشط العمران في عهد

١- معجم البلدان: ٥: ١٨٤.

٢- ينظر: التاريخ القويم: ١: ٣٣.

٣- جُرهم وفُطُورَة: قبيلتان، أبناء عمومته، يرجعون في نسبهم إلى أرفخشذ بن سام بن نوح، سكنوا اليمن، ثم رحلوا إلى مكة واستقروا بها، ينظر: المعارف: ٢٧.

٤- التاريخ القويم: ٢: ٤٠.

ص: ٢١٩

القرشيين، فقد ورد أن قُصيّ بن كلاب خط للكعبة ساحة تكفى للطواف، وازدحام الحجاج، وأباح البناء خارج ذلك من الجهات الأربع، فتكاثر العمار حول الكعبة، وكانوا قبل ذلك يتحاشون السكن بقربها، والمبيت بجانبها (١). ومن أشهر المتنزهات المكية في العصر الجاهلي: متنزه اللّيط أسفل مكة، يأوى إليه المكيون من كل الأحياء القريبة والبعيدة، وكانت به حديقة جميلة يجلسون حولها في العشى، يلبسون أنواع الثياب الملونة، الزاهية، يعبق أريجهم على مسافات يعطر الجو، ويجدون في ذلك المتنزه راحتهم، وسعادتهم، ومتنفسهم، يقول شاعرهم الحارث بن خالد:

من ذا يسأل عنا أين منزلنا فالأقحوانه منا منزل قمين
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره طعن الوشاء ولا يثبو بنا الزمن (٢)

ومن متنزهاتهم أيضاً: شعب خُم، وهو في أسفل الوادي، وكانت به عدة بساتين تتصل بالّيط، كما كانت بساتين الحمام له متنزهاً، وهي بأعلى الوادي،

١- المصدر السابق.

٢- المصدر السابق: ٢: ٤٣، والأقحوانه: بستان جميل بالّيط.

ص: ٢٢٠

وفيهما زروع ونخيل، بالإضافة إلى بساتين أخرى كثيرة على شواطئ الوادي، تمتد إلى منى، مثل: بساتين وادي طوى، والحجون، وسواها.

وكانت مكة ذات مركز تجارى استراتيجى هام جداً، بحكم موقعها الرابط بين دول الشمال و دول الجنوب، فكانت أسواقها مزدحمة طول العام بالتجار، صاعدين إلى الشام شمالاً، أو هابطين إلى اليمن جنوباً، وكان القرشيون أسياداً فى هذه الأسواق التجارية، فمهرروا فى التجارة، وأتقنوا فنونها، فاكسبوا خبرة واسعة بمعاملة الناس، وكيفية إرضائهم، فتضخمت رؤوس أموالهم، وبلغت قوافلهم التجارية بالألف بعير أو يزيد، فى رحلتى: الشتاء والصيف، اللتين سنهما هاشم، وقد قال عبدالله بن الزبير يمدحه:

سُنْتُ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا سَفَرُ الشَّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ «(١)»

وفى الجانب الحضارى عموماً، سمى القرآن الكريم مكة: أم القرى، وفى ذلك دون شك ما يشير إلى تميزها عما حولها من البلدان فى جزيرة العرب كلها، وفى القرآن أيضاً ما يفيد هذا التميز، إذ تحدث عن كثير من المظاهر الحضارية، مثل:

المشكاة، المصباح، الزجاج، المعارج إلى العليات، وأنواع الطيب: الكافور، والمسك، والزنجبيل، وألوان الثياب المترفة: كالنمارق والزرابى، والسرر، والفرش المنضدة بالاستبرق والسندس، وأنواع الأواني الفضية: كالقوارير، والأكواب، والكؤوس، وألوان الحلى: كالمرجان، والذهب، واللؤلؤ، وتحدث عن تعاملهم مع الفخار، والحديد، والنحاس، والقدور، والجفان، والصحاف، كما أشار إلى ثقافتهم عموماً: فذكر القراطيس، والكتب، والسجلات، والصحف، والأقلام، والمداد، وكانوا يعرفون الموازين والمكاييل، وأنواعها ومصطلحاتها، وقد لبسوا الثياب المرفهة، والقمصان، والسرراويل، والنعال، وتختّموا بالذهب والفضة،

١- المصدر السابق: ٢: ٤٤، وينظر: د. جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ومكتبة النهضة، بغداد، ط. ٣، ١٩٨٠ م، ٥: ٢٩١.

ص: ٢٢١

وفَصَّصُوا خَوَاتِمَهُمْ بِحَبَّاتِ اللَّؤْلُؤِ، وَلَبَسَتِ النِّسَاءُ الْقُرَشِيَّاتُ الْخُمُرَ، وَالْجَلَابِيبُ، وَالْخَلَاحِلُ، وَالْأَسَاوِرُ وَاسْتَعْمَلْنَ الطِّيبَ، وَكَانَ لِمَتْرِفِهِمْ مَجَالِسٌ لِلسَّمْرِ، وَالْقَصَصِ، وَالْفِكَاهَةِ، وَالتَّلَذُّذِ بِالْفَوَاكِهَةِ، وَالْخُمُورِ، وَسَمَاعِ الْغِنَاءِ، وَسِوَاهَا مِنْ عِلَائِمِ التَّحَضُّرِ وَالتَّمَدُّنِ (١).

ويفهم من ذلك كله: أن المكين كانوا يعرفون جميع هذه المعاني الحضارية معرفة من اختلط بها، واندمج فيها، لأنه لا يخطر ببال عاقل أن يكون القرآن قد خاطبهم بما لا يفهمون، بل إن في خطابه لهم بهذا الشكل ما ينطق بأنهم في تلك الفترة قد أخذوا بأسباب الحضارة بالمفهوم السائد في وقتهم، وليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة، فالمكيون كانوا يضربون في مناكب الأرض تجاراً:

بين الشام واليمن، والعراق، ومصر، والحبشة، وفارس، والهند، وغيرها من بلاد الله، يشاهدون المعالم الحضارية آنذاك في كثير من أرقى حضارات العالم، فتناقلوا أخبارها، وحاولوا تقليدها، فظهر أثر هذا التقليد في ملابسهم، وبيوتهم، وبدا واضحاً في معاملاتهم ومختلف جوانب حياتهم، ومما يروى في ذلك، على سبيل المثال فقط: أن عبدالله بن جدعان زار العراق، فدخل بعض قصور الفرس، فأكل عندهم، وكان مما أكله (الفالودج)، وهي نوع من الحلوى لم تكن معروفة عند العرب، تصنع من العسل والسمن، والبُر، ولب التمر، فتعجب منها ومن طيبها، فسأل عنها فوصفت له، فابتاع غلاماً يصنعها، وأخذه معه إلى مكة، وصار يصنع هذه الأكلة، ويؤكلها للناس في حومة البيت، حتى اشتهر أمرها، وممن أكلها الشاعر أمية بن الصلت، فقال مادحاً لها ولصاحبها:

له داع بمكة مُسْتَعِلٌّ وَآخَرٌ فَوْقَ دَارَتِهِ يَنَادِي

إِلَى رُدْحٍ مِنَ الشَّيْزَى مِلَاءً لُبَّابِ الْبُرِّ يَفْلُبُكَ بِالشَّهَادِ (٢)

١- ينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٤.

٢- ينظر: معجم البلدان: ٥: ١٨٥، والمفصل في تاريخ العرب: ٧-٥٨٢، والرُّدْحُ، جمع رَدَاح: الجفنة العظيمة، والشَّيْزَى: خشب أسود تصنع منه الجفان والأمشاط، ينظر: المعجم الوسيط: مادتي: رَدَاحٌ وشَيَّزَ.

المبحث الرابع: حرمة مكة:

لمكة حرمة عظيمة، وبركة ظاهرة، فهي لا تُقر طاغياً جباراً على فساد، وظلمه، ولا باغياً على بغيه، وقد ثبت تاريخياً أنه لا مكان فيها لمن ظلم عباد الله، أو بَغَى عليهم، فمن فعل ذلك أخرجته من ربوعها، وطردته من جوارها، وفي ظلم جُزْهم، وبغيها بمكة، خير مثال على ذلك: فقد كان هؤلاء ولأه البيت، وسكان مكة، وأربابها، فاستحلوا الحرام، وأكلوا مال الكعبة، وظلموا من دخلها، فكانت تجاورهم قبيلة خزاعة، حلواً حول مكة، فظلموهم، واعتدوا عليهم بالقتال، فاقتتلوا، فجعل الحارث بن عمرو الجرهمي يُنشد، طالباً من ربه النصر على الخزاعيين، مشجعاً بني قومه على الصمود، حاثاً لهم على القتال:

لا هُمَّ إن جرهماً عبادُك الناس طُوفَ وهُم تِلادُك (١)

ولكن النصر كان حليف خزاعة، فاستولت على مكة، وطردت الجرهميين عنها، وفي ذلك قال شاعرهم عمرو بن الحارث الأصغر الجرهمي، مصوراً آثار الهزيمة على نفوس بني قومه، ومدى الذل والهوان والندامة التي لحقتهم، نتيجة ظلمهم لعباد الله، وترويعهم لسكان البلد الأمين:

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامر
ولم يترَبَّع واسطاً فجنوبه إلى السَّرِّ من وادي الأراكه حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثر

١- ينظر معجم البلدان: ٥: ١٨٦، والمعارف: ٦٤٠، والطُوف: الطريف الحادث، والتلاد: القديم، ينظر: المعجم الوسيط، مادتي طُوفَ وتَلَدَ.

ص: ٢٢٣

وأبدلنا ربى بها دار غربه بها الجوع بادٍ والعدو المحاصر
 وكنا ولأه البيت من بعد نابت نطوف بباب البيت والخير ظاهر (١)
 فأخرجنا منها المليك بقدره كذلك ما بالناس تجرى المقادر
 فصرنا أحاديثاً وكنا بغيطة كذلك عضتنا السنين الغواير (٢)
 وبدلنا كعب بها منزل ذلة به الذئب يعوى والعدو المكاثر
 فسحّت دموع العين تجرى لبلدة بها حرم أمن وفيها المشاعر (٣)
 ومن الأمثلة الحية، التي لا تزال شاخصة للأبصار إلى يومنا هذا، على سوء مآل من يريد مكة بشراً، ما صورته القرآن الكريم من قصة
 أبرهه الأشرم، وإقدامه على هدم الكعبة، في سورة
 [الفيل]

[(٤)

، ذلك أن أبرهه، قائد الأحباش باليمن، كان
 جباراً عنيداً، وقد بلغه أن العرب صاروا ينصرفون بتجارتهن عن اليمن إلى مكة، لمكانتها العظيمة عندهم، لوجود الكعبة فيها، فامتلات
 نفسه غيظاً أن يترك الناس

- ١- نابت: أكبر ولد إسماعيل، ولى أمر البيت بعد وفاة والده، ثم ولى بعد وفاة نابت خاله مضاض بن عمرو الجهمي، واستمرت ولاية
 الجهميين للبيت الحرام دهرًا طويلاً، حتى أخرجتهم منه خزاعة، ينظر: معجم البلدان: ٥: ١٨٥.
- ٢- صوابها: أحاديث، لأنها ممنوعة من الصرف لصيغة منتهى الجموع.
- ٣- معجم البلدان ٥: ١٨٦.
- ٤- هي قوله تعالى: «ألم تركيب فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم
 بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول»، الفيل: ١- ٥.

ص: ٢٢٤

اليمن بخيراتهما، ويتجهون إلى ذلك المكان القفر، مع ما أوغر صدره من كلام المحيطين به، وإغرائهم له ببساطة هدم الكعبة، وتوجيه الناس إلى اليمن، فسار إليها في جيش عظيم، تتقدمه الفيلة، وما أن اقترب منها حتى أهلكه الله، وجيشه وفيلته، بالطير الأبايل، قبل الوصول إليها، بمكان اسمه: (المغمّس) قرب مكة، على طريق الطائف (١).

ومما سجل به الشعراء الجاهليون هذه الحادثة، قول عبدالمطلب بن هاشم مستنصراً ربه على الأحباش، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدوّ البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قواكا (٢)

ثم قال، حامداً ربه، بعد أن أهلك أبرهه وجيشه:

أن منعت الجيوش والأفئالا وقد رعوأ بمكة الأجبالا

وقد خشنا منهم القتالا وكل أمر منهم مغضالا

يا رب لا أرجو لهم سواكا (٣)

وقول شاعر يدعى أبا أمية:

إن آيات ربنا بينات ما يمارى بهن إلا كفور

غلبت الفيل بالمغمّس حتى ظل يجفو كأنه مسحور

حوله من شباب كنده فتان ملاويت في الحروب صفور

١- في حادثة الفيل كلام كثير، وتفصيلات منوعة، أوردتها مصادر عديدة، ينظر: على سبيل المثال فقط: تفسير القرطبي: ٢٠: ١٨٧ وما بعدها، وتفسير الفخر الرازي: ١٦: ٩٦ وما بعدها، والمفصل في تاريخ العرب: ٣: ٥٠٧ وما بعدها، وغيرها.

٢- ينظر: المفصل في تاريخ العرب: ٣: ٥١٦، وتفسير القرطبي: ٢٠: ١٩١.

٣- تفسير القرطبي: ٢٠: ١٩٦.

ص: ٢٢٥

واضِعَ خَلْفَهُ الْجِرَارَ كَمَا قَطَّرَ صَخْرَ مِنْ جَانِبٍ مَحْرُورٍ (١)

وقول شاهد عيان سلّم من الحادثه، وهو رجل من كنده اسمه: نُفَيْل بن حبيب، يَصَوِّرُ هَؤُلَ الْوَاقِعَةَ، كما شاهدتها، لامرأة يخاطبها:

فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ وَلَمْ تَرَيْهِ لَدَى جَنْبِ الْمُعَمَّسِ مَا لَقِينَا

خَشِيتُ اللَّهَ قَدْ بَثَّ طَيْرًا وَظَلَّ سَحَابُهُ مَرَّتَ عَلَيْنَا

وَبَاتَتْ كُلُّهَا تَدْعُو بِحَقِّ كَأَنَّ لَهَا عَلَى الْحُبْشَانِ دَيْنًا (٢)

وقريب من قصه أبرهه، ما أورده القبطى فى أعلامه من قصه أسعد الحميرى (تبع)، وجبروته، واتساع ملكه، وكثرة وزرائه، وانتهائه إلى مكة فى جولة له فى أرجاء مملكته، معتقداً أن أهلها سيدينون له بالطاعة كما دان غيرهم، إلا أنهم لم يعترفوا به ملكاً عليهم، ولم يعظموه، فأغضبه ذلك شديداً، وشكا إلى كبير وزرائه ما فعله به أهل مكة، فهوّن عليه: بأنهم عرب لا- يعرفون شيئاً، وأن لهم بيتاً يقدسونه يسمى: (الكعبة)، وهم معجبون به، فأغاظه ماسمع، فعسكر بجيشه ببطحاء مكة عازماً على هدم البيت، ناوياً لمكة وأهلها شراً، فأخذ صداد شديد، وتفجر منه ماء نتن، كان سبباً فى تفرق الناس عنه، ولما اشتد به الحال، خلا به أحد العلماء، وأفهمه: أن سبب ما هو من ضيق وشدة، ما نواه للبيت وأهله من سوء، فبادر الملك بالرجوع عن نيته، فشفى من ساعته، فكسا البيت، وأكرم العلماء (٣).

١- التاريخ القويم: ٢: ٣٦، وشباب ملاويت: أقوياء، متمرسون بالحرب، كما فى المعجم الوسيط، مادة: لَآت، ووردت الآيات فى معجم البلدان: ٥: ١٦١، مع اختلاف فى نصها، ونسبتها لقائلها، فقد وردت بالنص التالى، منسوبة لأمية بن أبى الصلت:

إِنْ آيَاتِ رَبَّنَا ظَاهِرَاتٍ مَا يَمَارِى بِهِنِ إِلَّا الْكَفُورُ

حُبِسَ الْفِيلُ بِالْمُعَمَّسِ حَتَّى هَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ

كُلِّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الْإِلَهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بَورُ

٢- تفسير القرطبي ٢٠: ١٩٩- ٢٠٠.

٣- ينظر: التاريخ القويم: ٤: ١٨٧، والتابعة الذين أرادوا هدم الكعبة أكثر من واحد، ينظر المصدر السابق: ٤: ١٨٨ وما بعدها.

المبحث الخامس: الاحتماء بمكة:

عُرِفَتْ بلاد مكة بحرمتها، وشرفها، وقدسيتها، وليس أدل على ذلك: من تشریف الله لها، بوصفها بالبلد الأمين، والقسم بها، في قوله تعالى:

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (١)

، والراحة النفسية، والأمان، يشعر بهما كل من دخل مكة، منذ أن خلق الله الخلق وإلى الأبد، ومن هنا صارت ملاذ الخائف، والمظلوم، وذى الحاجة، ومن شابههم، حيث لجأوا إليها محتمين بها، معترفين بفضلها.

فممن احتموا بمكة والكعبة: رجل من بنى عبد الله بن دارم، كان زوجاً لابنة زرارَةَ بن عُدُس، اسمه سويد، وكان طلبه المنذر بن ماء السماء، لأنه قتل ابنه مالكا، ومالك هذا غلام حدث كان المنذر قد أودعه عند زرارَةَ، ثم إن الغلام خرج يوماً يتصيد فلم يُصِبْ شيئاً، فمَرَّ بِبَابِل لسويد، فأمر بناقه فَنَحَرَتْ له، فاشتوى، وكان سويد نائماً، فلما استيقظ شَدَّ على الغلام فقتله، وخرج هارباً، فاحتوى بمكة، وحالف بنى نوفل بن عبد مناف، وأقام عندهم، وقد طلبه المنذر لثأر ابنه، فقبل له:

إنه احتوى بمكة، فصرف النظر عن اللحاق به، وثأر من بنيهِ، وكانوا سبعة ووفَّى ثأره بقتل مائه رجل من قوم سويد (٢).

١- التين: ٣.

٢- ينظر: الخزانة: ٤: ٥٢٤ وما بعدها.

ص: ٢٢٧

وكانت طيء تطلب عثرات زرارء وقومه لشارات بينهم، فاستغل شاعرهم عمرو بن ثعلبة الطائي هذه الحادثة وأغرى المنذر بززارء، فقال:

من مُبْلَغٍ عَمراً بَأَنَّ المرءَ لم يُخْلَقْ صُبَّارَةً (١)

وحوادث الأيام لا يبقى لها إلا الحجارة

أَنَّ ابنَ عُجْزَةٍ أُمُّهُ بالفسح أسفل من أَوَّارَةٍ (٢)

تسفى الرياح خلال كَشٍّ - حيه وقد سلبوا إزاره

فاقتل زرارء لا أرى فى القوم أوفى من زرارء (٣)

وهذا النابغة الذبياني يعتقد أن الطير تعود بمكة، لأنها تجد فيها الأمان، فأقسم للنعمان برب العائدات بالبيت وبمكة، أنه لم يرتكب فى حقه شيئاً مما سمعه من الوشاء، وأن ذلك كله كذب وافتراء، يقول معتذراً للنعمان:

والمؤمنُ العائدات الطيرَ تمسحُها ركبَانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسند

ما قلتُ من سيِّءٍ مما أُتيتَ به إذن فلا رفعتُ صوتى إلى يدي

إلا مقالة أقوام شَقِيَتْ بها كانت مقالتهم قرعاً على الكبد (٤)

وكان لحرب بن أمية حليف من حضرموت قدم على مكة، فأراد أن ينزل خارجها، فلما سمع به حرب دعاه إلى دخول مكة، ليأمن على نفسه، وماله، من أعدائه، ومن اللصوص، واسم الحضرمى: أبو مطر، فقال حرب يخاطبه:

أبا مطر هلم إلى الصلاح فيكفيك الندامى من قريش

١- الصِّبَّارَةُ: لعله من الصَّبَّار، ثمر شديد الحموضة، أو من الصَّبْرَةِ، وهى الكومة من الحجارة ونحوها، أى لم يخلق بدون فائدة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: صَبَرَ.

٢- العُجْزَةُ: آخر الرجل، يقال: هو ابن عُجْزَةٍ، ينظر السابق، مادة: عَجَزَ.

٣- الخزائن: ٦: ٥٢٤ وما بعدها.

٤- ينظر: ديوان النابغة الذبياني، تقديم وشرح: فارس صويتى، مكتبة كرم، دمشق، دار الكتاب العربى، بيروت، لا. ط.، لا. ت.: ٦٨ وما بعدها.

ص: ٢٢٨

وتنزل بلدة عزّت قديماً وتأمين أن يزورك رب جيش

فتأمين وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هُديت بخير عيش (١)

وفى فترة من فترات الجاهلية، كثرت الزعامات فى قريش، فحصل بينهم تغالبٌ وتجادبٌ، لم يكفهم عنه سلطان، وبلغ الأمر أن حدث من بعضهم تعدّ على حقوق الآخرين، كان مدعاة لهم إلى التحالف على رد المظالم، وإنصاف المظلوم، ومن ذلك مثلاً: أن رجلاً من اليمن قدم مكة معتمراً، ومعه بضاعة عرضها، فاشتراها منه رجل من بنى سهم، فغمطه حقه، فقام اليمنى على الحجر، وأنشد بأعلى صوته:

يال قصى لمظلوم بضاعته بطن مكة، نائى الدار والنفر

وأشعث مُحرم لم تُقَصَّ حرمة بين المقام وبين الحجر والحجر

أقائم من بنى سهم بدمتهم أو ذاهب فى ضلال مال معتمر (٢)

فلما سمعته قريش ردّت عليه ماله.

وأنّ قيس بن شيبه السلمي باع متاعاً له بمكة لأبى بن خلف، فأنكره حقه، فاستجار برجل من بنى جُمح، فلم يُجره، فاستصرخ القرشيين قائلاً:

يال قصى كيف هذا فى الحرّم وحرمة البيت وأحلاف الكرم

أظلم لا يمنع عنى من ظلم (٣)

وهو الآخر وَجَد من قريش إنصافاً.

١- معجم البلدان: ٥: ١٨٤.

٢- المفصل فى تاريخ العرب: ٢: ٥٠٢.

٣- المصدر السابق.

ص: ٢٢٩

وعلى هذا النحو تبدو مكة، قبل الإسلام، بلداً آمناً، يأوى إليه المظلومون، والخائفون، ومن في حكمهم، لاعتقادهم في أمنها، وبركتها، وقد خلد الشعراء القدامى هذه المشاعر النبيلة نحو مكة، وأمنها، واستقرارها.

المبحث السادس: الحَلْفُ ومَقْدَسَاتُهَا:

كثُر حَلْفُ العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، واللّه، والبيت الحرام، وبيت الله، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة في وجدان العرب، ويمكن الوقوف على أمثلة مما ورد في الشعر الجاهلي بالخصوص، من ذلك:

قول عِدَى بن زيد العبادي، معاتباً النعمان بن المنذر على حبسه، وأخذ رأى الوشاء فيه، مقسماً برب الكعبة أنه وشائه الأعداء:

سعى الأعداء لا يَأْلُون شراً عليك ورب مكة والصليب (١)

وقول الشاعر قيس بن الخطيم في تصوير بياض لون حبيبته، إذ شبهها بالدرة المجلوة، مقسماً باللّه أنه يهواها:

كانها درة أحاط بها ال - غواص يجلو عن وجهها الصُدف

واللّه ذى المسجد الحرام وما جُلِّلَ من يَمَنِّه لها حُنف

إني لأهواكِ غير ذى كذب قد شَفَّ مني الأحشاء والشغف (٢)

وفى قصيدته له أخرى في حرب شَبَّت بين قومه وأبناء عمومته من الأوس،

١- السابق: ٦: ٦٦٥.

٢- ديوان قيس بن الخطيم برواية ابن السكيت، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار العروبة، القاهرة، ط. ١، ١٩٦٢ م: ٦٠ وما بعدها، وعبدالله بن قريب، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط. ٣، لا. ت.: ١٩٧، واليَمَنَةُ: ضرب من بُرود اليمن، والخُنْف جمع خَنيف: الكتان الأبيض الغليظ، وشَفَّ: رق، والشغف: درجة متقدمة من الحب، ينظر: المصدر السابق، والمعجم الوسيط: مواد: يَمَنَ وَخَنَفَ وَشَفَّ وَشَعَفَ.

ص: ٢٣٠

يُظهر تعظيمه للبيت، فيقول:

أقسمت لولا الذى زعمتُ وما خَبَرْتُ قوماً عن مجدهم كذباً

وقد أضعت الذى حفظتُ من ال - وَدَّ لَقَدَّمْتُ مِدْحَهُ عَجَباً

الحمد لله ذى البَيْتَةِ إِذْ أَمَسْتُ دُحَىً قَدْ أُتِخِنْتَ غَلَباً (١)

كثُرَ حِلْفُ العرب الجاهليين بالأماكن المقدسة، ولا سيما مكة والبيت الحرام، بصيغ مختلفة مثل: ورب مكة، والله، والبيت الحرام، وبيت الله، وما شابهها، وليس لذلك معنى إلا تلك المكانة الروحية الكبيرة لمكة في وجدان العرب ويقسم النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر، بالله رب الكعبة أنه لم يرتكب في حقه سوءاً وإثماً، وإنما هي الوشاية من المنخل الإشكري، فيقول:

فلا لعمر الذى قد زرتُه حَجَجاً وما هُرِيقَ على الأنصاب من جسد

ما إن أتيتُ بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعتُ صوتي إلى يدي (٢)

ومما نُسب للنابغة أيضاً: قوله في تبرئه نفسه أمام النعمان، مقسماً بالأماكن المقدسة:

حلفتُ بمن تُساق له الهدايا على التأديب يعصمها الدَّرين

رب الرافعات بكل شُهبٍ بَشَعْتُ القوم موعدها الحَجون (٣)

ولمكانة هذه المقدسات عندهم، كان للحلف أهمية كبيرة في نفوسهم.

١- ديوان قيس بن الخطيم: ١١٤-١١٥.

٢- ديوان النابغة: ٦٨، وينظر: الخزانة ٥: ٧٣.

٣- ديوان النابغة: ١٥٠.

ص: ٢٣١

وفى المعنى ذاته: توجد للشاعر عامر بن الطفيل قصيدة يخاطب فيها زيد الخيل، ويمدح نفسه، مقسماً برب المقدسات أنه قليل أمثاله فى بنى عامر، يقول:

إننى والذى يحج له الناس قليل فى عامر أمثالى (١)

ومن هذا القبيل: البيت التالى، لشاعر جاهلى:

فأقسم بالذى حجت قریش وموقف ذى الحجيح إلى إلال (٢)

وعلى النحو السابق: تذكر المصادر للشاعر عوف بن الأحوص أبياتاً فى تعظيم البيت، والحلف بالمقدسات أن يظل وفيّاً، وذلك من قصيدة طويلة له فى طلب النصفه والتحكيم بين قومه: بنى جعفر، وأبناء عمومته: بنى أبى بكر، وكان نفر من بنى جعفر قد اعتدوا على رجل من بنى أبى بكر، وأهانوه، فطلب هؤلاء التحكيم والنصفه من قوم الشاعر، فرفضوا، غير أن رفضهم لم يُرض الشاعر، فقال- يحثهم على محاولة استرضاء بنى عمومته، تفادياً للحرب، وإبقاء على الود القديم بينهم:-

هُدِّمْتُ الْحِيَاضُ فَلَمْ يَغَادِرْ لِحَوْضٍ مِنْ نَصَائِبِهِ إِزَاءَ
لِخَوْلَةٍ إِذْ هُمْ مَغْنَى وَأَهْلَى وَأَهْلَكَ سَاكِنُونَ مَعاً رِثَاءَ
فَلَأَيَّ مَا تَبَيَّنَ رِسُومُ دَارٍ وَمَا أَبْقَى مِنَ الْحَطَبِ الصَّلَاءِ
وَإِنِّى وَالَّذِى حَجَّتْ قَرِيشٌ مُحَارَمَهُ، وَمَا جَمَعَتْ حِرَاءَ
وَشَهْرَ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْهَدَايَا إِذَا حُبِسَتْ مُضَرَّجَهَا الدَّمَاءُ
أَذْمَكَ مَا تَرَفَّقَ مَاءُ عَيْنِي عَلَى إِذَا مِنَ اللَّهِ الْعَفَاءُ
أُمِّرَ بِحَكْمِكُمْ مَا دَمْتُ حَيًّا وَأَلْزَمَهُ وَرَنَ بَلْغِ الْفَنَاءِ

١- ديوان عامر بن الطفيل برواية الأنبارى عن ثعلب، دار صادر، ودار بيروت، لا. ط. ١٩٦٣ م: ١٠٢.

٢- المفصل فى تاريخ العرب: ٦: ٤٣٠.

ص: ٢٣٢

فلا تتعوجوا في الحكم عمداً كما يتعوج العود السراء

فإنك والحكومة يابن كلبٍ على وأن تكفني سواء (١)

ويقسم زهير بن أبي سُلمى بالبيت، ويعظمه، على أن الحارث بن عوف، وهرم بن سنان من أحسن العرب مكانةً، وأكثرهم كرماً، في كل الأحوال: في الشدة والرخاء، واليسر والعسر، لإنهاءهما الحرب الضروس بين عبس وذبيان، التي دامت زمناً طويلاً، وأفنت الكثير من الرجال، والأموال، بسبب سعيهما في الصلح، عن طريق دفع ديات القتلى من أموالهما، وذلك في معلقته المشهورة: (أمن أم أوفى)، التي منها قوله:

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السَّيدان وُجدتُما على كل حال من سحيل ومُبَرَم

تداركُتُما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٢)

والشعر القديم في هذا المنحى كثير، ولعل فيما أوردناه من الأمثلة توضيح كافٍ على مدى تعلق العرب جميعاً بمكة المكرمة والبيت الحرام، وغيرها من المقدسات، قبل الإسلام.

المبحث السابع: مكانة قريش عند العرب:

تُعد قريش قلب العرب، وصفوتهم، وقبلتهم منذ القدم، وهي تُدعى في أول أمرها: النضر بن كنانة، وكانت أحياء متفرقة في بني كنانة، فجمعهم قُصى بن

١- ينظر: المفضل بن محمد الضى، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر، عبدالسلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٣ م:

١٧٣-١٧٤.

٢- أحمد بن يحيى ثعلب، شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ط. ١، ١٩٦٤ م: ١٤-١٥.

ص: ٢٣٣

كلاب، (الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وآله)، من كل ناحية فُسِّمُوا قريشاً لذلك (١)، وُسِّمى قصى: مُجْمَعاً، لأنه جمعهم، وجعلهم قبيلة واحدة، وفي هذا المعنى قال شاعرهم:

إننى والذي يحج له الناس قليل فى عامر أمثالى (٢)

ولمكانة قصى من البيت الحرام، ومنزلة القرشيين من قصى، صار لهم مع مرور الزمن شأن عظيم بين العرب، حتى إنهم كانوا يسمونهم: آل الله، وجيران الله، وسكان الله، وما شابه ذلك، وفي المعنى يقول عبدالمطلب بن هاشم:

نحن آل الله فى ذمته لم نزل فيها على عهد قدم

إن للبيت لرباً مانعاً من يُرد فيه يائث يُخترَم

لم نزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم (٣)

١- سُمُّوا قريشاً من التَّفْرِيش، أى: التجميع بعد التفرق، أو بسبب كونهم تجاراً يجمعون بين الأشياء المتفرقة، وليس لهم أب ينسبون إليه يسمى قريشاً، وفي سبب التسمية هذه آراء متعددة، ينظر: تفسير الرازى: ١٦: ١٠٧-١٠٦، وتفسير القرطبي ٢٠: ٢٠٣، والتاريخ القويم: ٢: ٤٦ و ٣: ١٤٥، والسير: ١: ٩٣ وما بعدها.

٢- التاريخ القويم: ٣: ١٤٥.

٣- المصدر السابق، وينظر: المفصل فى تاريخ العرب: ٤: ٢٤.

ص: ٢٣٤

وقول أبي طالب يرثي أبا أمية بن المغيرة، زوج أخته عاتكة بنت عبدالمطلب، وكان خرج في تجارة إلى الشام، فمات في الطريق، ومما قاله في رثائه:

تَنَادَوْا بِأَنْ لَا سَيِّدَ الْحَيِّ فِيهِمْ وَقَدْ فُجِعَ الْحَيَانُ: كَعَبٍ وَعَامِرٍ
فَكَانَ إِذَا يَأْتَى مِنَ الشَّامِ قَافِلًا بِمَقْدَمِهِ تَسْعَى إِلَيْنَا الْبِشَائِرُ
فَيَصْبِحُ أَهْلُ اللَّهِ بِيضًا كَأَنَّمَا كَسْتَهُمْ حَبِيرًا رَبَّدَهُ وَمَعَا فِرَ (١)

وهكذا تبدو مكانة قريش بين العرب الجاهليين، كما صورها شعراؤهم قبل الإسلام، وقد حفظوا لهم هذا الشرف منذ القدم، فكانوا يقصدونهم من أقاصى شبه الجزيرة العربية لإقامة مناسك الحج والعمرة، وللبيع والشراء، وعقد معاهدات الصلح، والحرب، والتحالف، وللمشورة والتحكيم، وما شابه ذلك، وهذه المكانة العظيمة للقرشيين لم تأت مصادفة، أو لمجرد مجاورتهم للبيت، وسكنهم في مكة، وكونهم من أصل شريف، فقط، بل أيضاً لأنهم كانوا أصحاب فصاحة وبلاغة لا تضاهي، كما شهروا برجاحة العقل، وسعة الأفق، وعمق التجربة، وقد نضجت فيهم الحياة العقلية بصفته عامة، نضجاً لمس العرب دون شك في سعة تفكيرهم، وسداد معاملاتهم، وحسن آرائهم، من خلال احتكاكهم بهم في المعاملات التجارية، داخل مكة وخارجها، كما عرفوهم من خلال خططهم الحربية، وأسواقهم العامرة بصنوف القول، إلى جانب صنوف التجارة، وحكمتهم العميقة الموشحة لأشعارهم، وأمثالهم، وهى دون شك تنم عن عقل راجح، وتفكير قويم، من مثل: الجهل شرُّ الأصحاب، حبسك من شرِّ سماعه، من خان هان، عند الصباح يحمد القوم السرى، وغدرك من دلّك على الإساءة، وما شابه ذلك (٢).

١- الخزائن: ٨: ١٤٧.

٢- ينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٦.

ص: ٢٣٥

وبما أن الشعر من الأمور المهمة لدى العرب الجاهليين، فإنهم كانوا يحتكمون فيه لهذه القبيل، فكان الشعراء يقدمون على مكة في موسم الحج لأداء المناسك، وعرض أشعارهم على القرشيين فما قبلوه، واستحسنوه، قبل، وسار بين العرب قاطبة، وما رفضوه رُفض، ومن ذلك أنه قدم عليهم علقمة الفحل، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذا سِمْط الدهر، ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طرُوب بُعيد الشبابِ عصرَ مَشيب

فقالوا: هاتان سِمْطَا الدهر (١).

وكان الشاعر يقول الشعر في قبيلته، أو في غيرها من الأماكن خارج مكة، فلا يُعبأ به، ولا يأخذه عنه أحد، حتى يأتي مكة في الموسم، فيعرضه على أندية قريش، فإن استحسنوه، اهتموا به، وعُلق على الكعبة، واستنشدته الناس، وسارت به الركبان، وكان فخراً لصاحبه، وإن لم يستحسنوه: طُرح ورُدَّ عليه، وأول من عُلق شعره في الكعبة: امرؤ القيس، وبعده عُلقت الشعراء، والشعر الذي يُعلق على الكعبة يسمى: المعلقات، ومن الاحتفاء به أن كانت القصائد الجيدة تُكتب بماء الذهب على القَبَاطِيّ، وتعلق على ركن من أركان الكعبة، وتسمى:

المُذَهَّبَات (٢)، ولا غرو، فالشعر الذي يصل إلى هذه المنزلة لا بد أن يكون مرّ

بمراحل من التنقيح، والتنقية، والاختيار، ما أوصله إلى قمة النضج: فصاحة، وبلاغة، وحكمة، وعمقاً في التفكير، ولا شك أن القرشيين في مستوى هذه المرحلة الناضجة من حسن الاختيار، إذ لا تزال مختاراتهم ماثراً إعجاب، وقدرة، إلى

١- السِّمْط: الخيط مادام منظوماً فيه الخرز القلادة، ينظر: المعجم الوسيط، مادة: سَمَط، والمقصود: الشيء الثمين، الرفيع المكانة.

٢- ينظر: الأعلام الشتمري، شرح ديوان علقمة الفحل، لطفی الصقال ودريّة الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، سوريا، ط. ١، ١٩٦٩

م: ٩، والمذهبات: كتبت بماء الذهب وعُلقت على الكعبة، ينظر: الخزانة: ١: ١٢٦.

ص: ٢٣٦

يومنا هذا.

ولأن مكة قبله العرب، والقرشيين ساداتهم، كان العرب يهرعون إلى مكة والقرشيين كلما حُزب بهم أمر، أو ضاقت بهم سبل، أو ألجأتهم حاجة كائنة ما كانت، فقد هرع إليهم قيس بن زهير العبسي طارداً إبلاً لابن عمه: الربيع بن زياد العبسي، في شحنة بينهما، سبق بها زياد، إذ خدع قيساً في درع له ساومه فيه، وهو على ظهر فرسه، ثم أخذ الدرع لينظر فيه، فهرب به ولم يرده، فاغتاظ زهير، واستاق إبلاً للربيع واحتفى بالقرشيين، وباع الإبل مقايضة بأدراع وأسياف من عبدالله بن جدعان، وقيل: من حرب بن أمية وهشام بن المغيرة، ثم جاور بن قشير، وفي ذلك يقول:

ألم يأتيك والأنباء تَمِي بما لاقت لبون بني زياد (١)

ومَحَبَّسُها على القرشي تُسْرَى بأدراع وأسياف حداد أُطَوَّف ما أُطَوَّف ثم آوى

إلى جارٍ كجار أبي دؤاد (٢)

كفاني ما أخاف أبو هلال ربيعة، فانتَهت عني الأعادي (٣)

كأني إذا أنخْتُ إلى ابن قرط أنخْتُ إلى يَلْمَلَم أو نَصَاد (٤)

ومن اتجاه العرب لقريش: أنه وقعت حرب ضروس بين الأوس والخزرج، انتصر فيها الخزرج، ثم إنهم استنصروا اليهود تحسباً لرد الثأر، فلما رأت الأوس

١- في هذا البيت شاهد نحوي في يأتيك بإثبات الياء مع الجازم، ينظر: الخزانة: ٨: ٣٦١ وما بعدها.

٢- هو أبو دؤاد الإيادي، عاش في الجاهلية، جاور الحارث بن همام بن مرة الشيباني، وكان لأبي دؤاد هذا ابن خرج يلعب مع الصبيان في غدير ماء، فغمسوه فيه، فقتلوه، وكان عددهم تسعة، أو عشرة، فحكم الحارث بإغراقهم جميعاً، أو تدفع دية عن كل واحد منهم، فَوَدَى ابن أبي دؤاد بتسع ديات أو عشر، ينظر: الخزانة: ٨: ٣٧٠ - ٣٧١.

٣- ربيعة: هو ربيعة بن قرط بن سلمة بن قشير، ويسمى: ربيعة الخير، ويكنى: أبا هلال، وقيل غيره، ينظر: المصدر السابق ٨: ٣٧٠.

٤- الخزانة: ٨: ٣٦٥ وما بعدها، وَيَلْمَلَم: جبل على بعد ليلتين من مكة، وقيل: وادٍ، وَنَصَاد: جبل بالعالية، ينظر: معجم البلدان: ٥: ٤٤١ و ٢٩٠.

ص: ٢٣٧

ذلك التحالف خافت سوء العاقبة، فسارعت تطلب النصرة من قريش، وفي ذلك يقول شاعرهم قيس بن الخطيم:

تقول صنيعتي لما استقلت أترك ما جمعت صريم سحر (١)

فقلت لها ذريني إن مالي يروح إذا غلبتُهم ويسرى وتحمل حربهم عنا قريش

كأن بنانهم فريك بُسر (٢) وندرك في الخزارج كل وتر

بذم الكاهنين وذم عمرو (٣)

والقصيدة طويلة.

وفي العصر الجاهلي، كان يلجأ إلى القرشيين الفاتكون، وقاطعو الطرق، والخارجون عن قبائلهم باحثين عن الأمان والاستقرار، فهذا الحارث بن ظالم، يفتك بخالد بن جعفر بن كلاب، وكان جاراً للنعمان بن المنذر، وفي رعايته، ويخاف الحارث أن تطاله يد النعمان، فيحتمى بقريش، ويمدحهم، فيجد فيهم الأمان والأمان، فينتسب إليهم، ويعاشر فيهم، ويقلع عن النهب، والسلب، والقتل، وهو القائل في المعنى:

وإني يوم غمرة غير فخر تركت النهب والأشر الرغابا (٤)

فلست بشاتم أبداً قريشاً مصيباً رُغم ذلك من أصابا

فما قومي بثعلبه بن سعد ولا بفزارة الشُعري رقابا

وقومي إن سألت بني لؤي بمكة علموا الناس الضرابا

١- صيريم سحر: ميت، منته، لا فائدة منه، فالسحر والسحر والسحارة: كل ما تعلق بالخلق من قلب ورثه، ينظر: المعجم الوسيط، مادة:

سَحَر، والصَّريم: المنصرم، وإذا انصرمت الأحشاء مات صاحبها.

٢- كأن بنانهم تفريك بُسر: كناية عن الشجاعة، وطول التجربة الحربية.

٣- ديوان قيس بن الخطيم: ١٢٠-١٢١، والكاهنان: قريظة والنضير، يقال: إنهم بنو الكاهن بن هارون النبي عليه السلام، وعمرو: لعله

يقصد بني عمرو بن عوف الأوسى، ينظر المصدر السابق: ٢٠ و ١٢١.

٤- غمرة: قيل: جبل، وقيل: موضع ماء بمكة، ينظر: معجم البلدان: ٤: ٢١٢، ويوم غمرة: هو اليوم الذي ترك فيه السلب والنهب.

ص: ٢٣٨

فما غطفان لي بأب ولكن لؤي والدي قولاً صواباً
 فلما أن رأيتُ بنى لؤي عرفتُ الوُد والنسب القربا (١)
 ويسمع بأبيات الحارث هذه، الحَصِيثُ بن الحُمَام المُرِّي، أحد سادات بنى مُرَّة، وشاعرهم، فلم يعجبه، فينتقد الحارث نقداً لاذعاً، فيه
 مسٌّ بقريش، وذلك في قوله:
 أَلَا لَسْتُمْ مِنَّا وَلَسْنَا إِلَيْكُمْ بِرِثْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
 أَقْمْنَا عَلَى عِزِّ الْحِجَازِ وَأَنْتُمْ بِمُعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ (٢)
 ويقصد بِمُعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ: بطحاء مكة، أى سهولها حيث يعتلج القوم، ويتصارعون، وهو يعنى قريشاً، غير أنه لم يلبث أن ندمَ
 شديداً على ما بدر منه، فأكذب نفسه صراحه، وعاد فمدح قريشاً، وانتفى إليهم، فقال:
 نَدِمْتُ عَلَى قَوْلٍ مَضَى كُنْتُ قُلْتُهُ تَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ
 فَلَيْتَ لِسَانِي كَانَ نَصْفَيْنِ مِنْهُمَا بَكِيمٌ وَنَصْفٌ عِنْدَ مِجْزَى الْكَوَاكِبِ
 أَتُبُونَا كِنَانِيَّ بِمَكَّةَ قَبْرُهُ بِمُعْتَلَجِ الْبَطْحَاءِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
 لَنَا الرُّبْعُ مِنْ بَيْتِ الْحَرَامِ وَرِاثَةٌ وَرَبْعُ الْبَطَاحِ عِنْدَ دَارِ ابْنِ حَاطِبٍ (٣)
 وما حمل الحُصَيْن على ما فعل، مع ما له من العزة والسيادة في قومه، إلا تلك المكانة العالية لقريش في نفسه.
 ومن تبجيل العرب لقريش: الاعتراف لهم بالسبق، والفضل، على الأهل والقراة، كما فعل عوف بن الأحوص في وصفه للحرب التي
 انتصرت فيها قريش على بنى قومه، فهو يعترف لقريش بالقوة، وحسن النظام، والغلبة، في قوله:

١- المفضليات: ٣١٤.

٢- مكرر- السيرة: ١: ١٠٠.

٣- المصدر السابق.

ص: ٢٣٩

لَمَّا دَنَوْنَا لِلْقَبَابِ وَأَهْلَهَا أُتِيحَ لَنَا ذَنْبٌ مَعَ اللَّيْلِ فَاجِرٍ
 أُتِيحَتْ لَنَا بَكَرٌ وَتَحْتَ لَوَائِهَا كِتَابٌ يَرْضَاهَا الْعَزِيزُ الْمَفَاخِرُ
 وَجَاءَتْ قَرِيشٌ حَافِلِينَ بِجَمْعِهِمْ وَكَانَ لَهُمْ فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ نَاصِرٌ
 وَكَانَتْ قَرِيشٌ لَوْ ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ شَفَاءٌ لَمَا فِي الصَّدْرِ وَالْبَغْضِ ظَاهِرٌ
 حَبِثَ دُونَهُمْ بَكَرٌ فَلَمْ نَسْتَطِعْهُمْ كَأَنَّهُمْ بِالمَشْرِفَةِ سَامِرٌ
 وَمَا بَرَحَتْ بَكَرٌ تَثُوبٌ وَتَدْعَى وَيَلْحَقُ مِنْهُمْ أُولُونَ وَآخِرٌ
 لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ وَإِنْ - جَلَّتْ غَمَامَةٌ يَوْمَ شَرِّهِ مَتَظَاهِرٌ
 وَمَا زَالَ ذَاكَ الدَّأْبُ حَتَّى تَخَاذَلَتْ هَوَازَنُ فَارْفَضَتْ سَلِيمٌ وَعَامِرٌ
 وَكَانَتْ قَرِيشٌ يَفْلُقُ الصَّخْرَ حُدَّهَا إِذَا أُوهِنَ النَّاسَ الْجَدُودُ الْعَوَاثِرُ (١)

كما يظهر من الأبيات: فإن الشاعر لا يخفى إعجابه بقريش، ومقدرتها الحربية، فهي وإن كانت هزيمتها، وحلفائها تُرضى غرور
 المُفاخر، وتشفى ما في الصدور من الغيظ والحق، لو انتصرت عليهم هوازن، إلا أن تصميم قريش على النصر ظاهر، يؤكد ما جمعته
 من حشود حافلة، وعزم قوى يفلق الصخر، فغلب حظها على حظوظ سليم وعامر، فانتصرت عليهم، فتخاذلوا، وكبا بهم جدُّهم.
 وتحمل أبيات الأعشى التالية، معاني الفخر بقريش، والاعتراف لهم بعلو المنزلة، وسمو المكانة، يقول من قصيدة طويلة في هجاء عُمَيْرِ
 بن عبد الله بن عِيدان:

فَمَا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَحُونِ وَلَا الصَّفا وَلَا لَكَ حَقُّ الشَّرْبِ مِنْ مَاءِ زَمْرَمٍ
 وَلَا جَعَلَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ فِي الْعُلَا بِأَجْيَادَ غَرِيبِي الصَّفا وَالْمَحْرَمِ (٢)
 وهكذا تبدو مكانة القرشيين عند العرب القدامى كما صورها الشعراء في شعر كثير ممنوع.

١- المفضليات: ٣٦٥-٣٦٦.

٢- ديوان الأعشى ميمون بن قيس، دار صادر، بيروت، لبنان، لا. ط. ١٩٩٤ م: ١٨٣، وينظر: معجم البلدان: ١: ١٠٤.

المبحث الثامن: قريش قُدوة العرب:

مما زاد في فضل مكة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسكين بكثير من شعائر دين إبراهيم عليه السلام، آخذين بأسباب التحضر والتمدن في وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفأة الأجلاف، ولا كمن لا يوقره دين، ولا يزينه أدب، ولا يهذبه خلق، فكانوا يحجون البيت، ويقيمون المناسك، ويردّون المظالم، ويختنون أولادهم، ويكفّنون موتاهم، ويغتسلون من الجنابة، وحرّموا نكاح المحارم، وزوجوا بناتهم بالصدّاق والشهود، وتطليقهم كان ثلاثاً، قال ابن عباس، جواباً عن سؤال طلاق العرب: «كان الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضاً، فإن طلقها ثلاثاً فلا سبيل له إليها» (١)، ومما ورد للأعشى في ذلك:

أيا جارتى بينى فإنك طالق كذاك أمور الناس غاد وطارقة

وبينى فقد فارقت غير ذميمة ومؤموفة منا كما أنت وامقة

وبينى فإن البين خير من العصا وأن لا تُرى لى فوق رأسك بارقة (٢)

ومما ميزهم أيضاً: أنفقتهم، وشعورهم بالسيادة، والتفرد، فكانوا يتزوجون في أى القبائل شاءوا ولا شرط عليهم، ولا يزوجون أحداً إلا بشرط أن يكون

١- ينظر المصدر السابق ٥: ١٨٤.

٢- المصدر السابق، وينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٤.

ص: ٢٤١

متحمساً (١) على دينهم، ولا يتنازلون عن هذا الشرط أبداً، لأنه - في رأيهم -
يوجب المحافظة على الدين، والشرف، قال شاعرهم مسافر بن أبي عمرو مفتخراً:

ورثنا المجد من أبا ثنا فنما بنا صُعدا

ألم نسقِ الحجيج ونن - حر الدَّلَافَةُ الرفدا

ونُلْفَى عند تصريف ال - منايا شُدِّداً رفدا

فإن نهل فلم نُملِكْ ومن ذا خالد أبدا

وزمزم في أرومتنا ونفقاً عين من حسدا (٢)

مما زاد في فضل مكة، وفضل أهلها، مباينتهم للعرب بشكل واضح: أنهم كانوا متآلفين، متمسكين بكثير من شعائر دين إبراهيم عليه السلام، آخذين بأسباب التحضر والتمدن في وقتهم، ولم يكونوا كالأعراب الجفاة الأجلاف وإلى جانب ذلك: تفرَّدت قريش بكثرة الألقاب الدالة على فضلهم وجودهم، وتميزهم عن العرب، مثل: أهل الله، أزواد الركب، المطيبين، الأحلاف، الهاشميين، وما شابهها من صفات الكرم، والشجاعة، والمروءة، ومن غير شك

١- الحُمُس والتَّحُمُس: التشدد في الدين، والأَحْمَس: الشجاع، ومن يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يريد، وقد استطاع القرشيون أن يفرضوا على العرب سنناً ابتدعوها مغالاة في الدين، فسنوا الوقوف بالمزدلفة والإفاضة منها، بدلاً من عرفات، وفرضوا على الحجاج أن يتخلوا عن كل ما يأتون به معهم عند دخول الحرم، وأن يستبدلوا بثياب الحِل ثياب الحرم: شِرْيَ أو عارية أو هبة، فإن لم يجدوا ذلك طافوا بالبيت عرايا: الرجال في النهار، والنساء في الليل، وبلغ من تشددهم في الدين: أن الرجل إذا أحرم بالحج أو بالعمرة لا يدخل داراً، ولا خيمة، ولا بستاناً، وقد تعيَّن له حاجة في بيته فلا يدخله، وإنما ينادي أهله ليخرجوا له ما أرادوا، كما منعوا على أنفسهم بعد الإحرام: السمن، واللبن، والزبد، ولبس الوبر، والاستظللال بالشعر، وغزله، ونسجه، ولبسه، وما شابه ذلك من المبالغة في التشديد، ينظر: التاريخ القويم: ٢: ٤٣ وما بعدها، والمفصل في تاريخ العرب: ٦- ٣٦٢.

٢- السيرة: ١: ١٥١.

ص: ٢٤٢

فإنه توجد مبررات لكل هذه التسميات (١) كتلقبهم بالهاشميين، لأن جدهم عمرو هشم الخبز، وصنع موائد الثريد للفقراء في أيام القحط والجوع، فسمى: هاشماً، وفيه قال الشاعر مادحاً: عمرو العلي هَشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسنِتُون عجاف (٢) ومما سجلته العرب في شعرهم لقريش: ابتداعهم للمكرمات، والفضائل، والأعمال الخيرة، التي تنم عن عقل كبير، وفكر مستنير، فعلى سبيل المثال: أول من صنع الحرية (٣) سُوَيْيد بن هَزْمَى، وقد قال فيه شاعرهم مخاطباً بني مخزوم: وَعَلَّمْتُمْ أَكْلَ الْحَرِيرِ وَأَنْتُمْ أَغْلَى عِدَاءِ الدَّهْرِ جَدُّ صِلَاب (٤) فهو يمدح القرشيين بطيب مآكلهم، ورفاهية عيشهم، ويعير بني مخزوم بخشونة مآكلهم، وشظفهم.

١- كانت العرب تُسمى قريشاً: أهل الله، لمجاورتهم الحرم، وتأكدت هذه التسمية، وانتشرت بين العرب، بعد حادثه الفيل، حيث قالوا: إن الله دافع عنهم، فهم أهله، تفسير الرازي ١٦: ١٠٤، وتفسير القرطبي ٢٠: ٢٠٠ وما بعدها، أما أزواد الركب فهم في الجاهلية ثلاثة نفر، أولهم: مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، والثاني: زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والثالث: أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وسمى كل واحد منهم زاد الركب: لأنه إذا سافر مع قافلته كفاهم مؤونة الطريق فلا يتزود معه أحد بشيء، ولم يُسم بذلك غيرهم، الخزائن: ٨: ١٤٧، أما المُطِيبون: فهم بنو عبد مناف و من تابعهم من قريش، وإنما سُموا بذلك: لأنهم في تصالحهم مع بني عبد الدار على ولاية شؤون البيت، أخرجوا جفنة مملوءة طيباً، وغمسوا أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، تأكيداً للصلح، وأما الأحلاف: فهم بنو عبد الدار ومن تابعهم، وسموا بالأحلاف: لأنهم في الصلح المشار إليه أعلاه أخرجوا جفنة مملوءة دماً، فغمسوا فيها أيديهم، ومسحوا بها الكعبة، إمضاء للعهد الذي أبرموه مع بني عبد مناف، والمطيبيون والأحلاف أبناء عمومته، فكلهم يرجعون بنسبهم إلى قصي بن كلاب، ينظر: السيرة: ١: ١٣٠ وما بعدها، ومعجم البلدان: ٥: ١٨٧.

٢- معجم البلدان: ٥: ١٨٥.

٣- الحرية: لحم يقطع صغيراً قريشاً، ويطبخ في ماء كثير، وعند نضجه يُذَر عليه الدقيق، فإذا لم يكن لحم فهي عصيدة، ينظر المصدر السابق.

٤- المصدر السابق.

ص: ٢٤٣

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت الله في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه، وظل الحال على ذلك حتى ربَّع حميد بن زهير بيتاً له بمكة، فأثار دهشة القرشيين، واستغرابهم، وخوفهم عليه من سوء العاقبة، إلى درجة أن رُجَّازهم كانوا يرتجزون، والبيت يُبنى:

اليوم يُبنى لَحْمِيد بيته إِمَّا حَيَاتُهُ وَإِمَّا مَوْتُهُ

فلما تَمَّ البناء، ولم تنزل بِحْمِيد عقوبة، تبعته قريش، فربَّعت منازلها (١).

وكانت قريش لا تُربِّع أسطح منازلها، ولا تعلِّيها، ابتعاداً عن التشبه بالكعبة المربعة بالشكل، كراهية مضاهاة بيت الله في شيء، احتراماً له وتقديساً، وخوفاً من عاقبة التطاول عليه

وأول من سنَّ بين العرب، قبل الإسلام، دية المقتول مائة من الإبل كان من قريش، وهو عبدالمطلب بن هاشم، فأخذت به قريش والعرب جميعاً، وأقره الإسلام، وأول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية، الوليد بن المغيرة، فخلع الناس، وصارت سنة إلى اليوم في دخول المساجد، والأماكن المقدسة، وهو نفسه أول من قضى بقطع السارق، وبالقسامة (٢)، في الجاهلية، فأخذ بها العرب، وأقرها الإسلام (٣).

ومما تفرد به القرشيون: دار الندوة، التي شهَّر أمرها بين العرب جميعاً،

١- المفصل في تاريخ العرب: ٤: ٥١، وينظر: ديوان قيس بن الخطيم: ١٩٧.

٢- القسامة: أن يوجد قتيل بين حيين لا يعرف قاتله، فُتَحْمَل ديته على الحيين بالتساوي، أو أن يُقسَم خمسون من أولياء الدم على مَتَّهم بعينه لإثبات حقهم، فإن رفضوا أقسم المتهم لتبرئة نفسه، ينظر: المفصل في تاريخ العرب: ٥: ٥٢٤.

٣- ينظر: المعارف: ٥٥١ وما بعدها.

ص: ٢٤٤

وهي منتدَى بناءه قصى بن كلاب لقريش، تنطلق منه لكل شؤون حياتها، فلا يُعقد لواء، ولا تتم مشورة، ولا تزوّج امرأة، ولا يختن صبي، إلّا فيها، وسموها دار الندوة (١): لأنهم كانوا يتنادون فيها للخير والشر معاً، وهي مفخرة لهم، كما أنها تُعد - بلا ريب - مظهرًا حضاريًا آنذاك، لا يوجد شبيه له في العرب.

ومن تكاتف القرشيين، وتماسكهم، وتعاونهم: قبولهم للزّفادّة، وهي خراج في أموالهم فرضه عليهم جدهم قصى، لتوفير الطعام والشراب للحجاج أيام الموسم، ومع دار الندوة والرفادة هذه، صارت لقريش السقاية، والحجابه، واللواء (٢)، فجمعوا المجد من كل أطرافه، وقد قال شاعرهم، الزبير بن

عبدالمطلب، مفتخرًا:

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزّة حتى يموتوا
ثيابهم سَمال أو طَمَار بها ودكّ كما دَسَم الحَميت

١- ينظر: التاريخ القويم: ٢: ٧٧ وما بعدها.

٢- اللّواء: الإجازة بالناس من عرفة، والدعاء بهم، ولعله سمي بذلك: لأن الذي يتقدم الناس ويدعو بهم يحمل لواء في يده، أو علامة دالة عليه، وكان أمره في قبيلة من جرهم اسمها: صُوقَة، وهم الذين يقول فيهم زهير بن أبي سلمى:

ولا يَريُمون في التعريف موقعهم حتى يُقال أجزوا آل صفوانا

ديوان زهير: ٦٠

ثم غلبت خزاعة على جرهم فأخذته منهم، ثم انتزعت من خزاعة قبيلة بنى عدوان بن عمرو، فصار إلى رجل منهم يُدعى: أبو سيّارة، وهو الذي يقول فيه الراجز:

خَلُّوا السبيل عن أبي سيّارة وعن مواليه بنى فزارة

حتى يُجيز سالماً حماره مستقبل الكعبة يدعو جاره

المصدر السابق

وكانت صورة الإجازة: أن يتقدم أبو سيّارة الناس على حماره، ثم يخطب فيهم قائلاً: «اللهم أصلح بين نساءنا، وعاد بين رعاتنا، واجعل المال في سُمحائنا، وأوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، وأقروا ضيفكم، أشرق ثبير كيما نُغير»، ثم ينفذ، ويتبعه الناس، وبقي اللّواء في يد أبي سيّارة حتى اغتصبه منه قصى، فصار له ولأولاده من بعده.. ينظر: ديوان زهير: ٦٠، ومعجم البلدان: ٥: ١٨٥.

ص: ٢٤٥

ولكنَّا خُلِقْنَا إِذَا خُلِقْنَا لَنَا الْحَبَرَاتِ وَالْمِسْكَ الْفَتِيَّتِ (١)

وقال مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبدالمطلب، مشيداً بقريش:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلُ رَحْلَهُ أَلَا نَزَلَتْ بِآلِ عَبْدِ مَنْفٍ

هَبْلَتِكَ أُمُّكَ لَوْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ ضَمْنُوكَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ إِقْرَافِ

الْآخِذُونَ الْعَهْدَ مِنْ آفَاقِهَا وَالرَّاحِلُونَ لِرَحْلَةِ الْإِيلَافِ

وَالْمَطْعُمُونَ إِذَا الرِّيحُ تَنَافَحَتْ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُشْتَبِتُونَ عِجَافِ

وَالْمُفْضِلُونَ إِذَا الْمُحَوَّلُ تَرَادَفَتْ وَالْقَائِلُونَ هَلَمَّ لِلْأُضْيَافِ

وَالْخَالِطُونَ غَنِيَهُمْ بِفَقِيرِهِمْ حَتَّى يَكُونَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي (٢)

ومن مآثر المكيين: كثرة آبار السقي التي احتفروها بمكة، وتنافسهم في ذلك، وقد خلد الشعراء هذه المآثر في شعر كثير، نقف عند نماذج منه على النحو التالي:

ورد في المصادر: أن أول سقاية بمكة، كانت بئرًا اسمها: (العجول)، احتفروها قصي بن كلاب، في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وكان

العرب إذا استقوا منها ارتجزوا مادحين قصياً بقولهم:

تَرَوَى عَلَى الْعَجُولِ ثُمَّ نَنْطَلِقُ إِنْ قُصِيًّا قَدْ وَفَى وَقَدْ صَدَقَ

بِالشُّبْعِ لِلْحَاجِّ وَرِيٍّ مُنْطَبِقِ (٣)

وفي المعنى نفسه: قال شاعرهم حذيفة بن غانم، مفتخراً بمآثر القرشيين:

وَسَاقِي الْحَجِيجِ ثُمَّ لِلْخَيْرِ هَاشِمٍ وَعَبْدِ مَنْفٍ ذَلِكَ السِّيدُ الْفَهْرِيُّ

طَوَى زَمْزَمًا عِنْدَ الْمَقَامِ فَأَصْبَحَتْ سَقَايَتُهُ فَخْرًا عَلَى كُلِّ ذِي فَخْرٍ (٤)

١- المفصل في تاريخ العرب: ٩: ٧١٠.

٢- المصدر السابق ٦: ٣٦٩.

٣- السيرة: ١: ١٤٧، وينظر: معجم البلدان: ٤: ٨٨.

٤- السيرة: ١: ١٥١، وينظر: معجم البلدان: ٣: ١٤٩.

ص: ٢٤٦

ومما جاء في بئر اسمها: (الْعَمْر)، وهي لبني سهم، قول شاعرهم:

نحن حفرنا الْعَمْرَ للجميع تَنْجُ ماء أَيْمًا تَجِيح (١)

وقالت سُبَيْعَةُ بنت عبد شمس مفتخرة ببئر احتفرها أهلها، اسمها: (الطَّوِيُّ):

إن الطَّوِيُّ إذا ذكرت ماءها صَوَّبُ السحاب عذوبة وصفاء (٢)

وللشاعرة خالدة بنت هاشم بن عبد مناف شعر في بئر اسمها: (سَجْلَةٌ)، احتفرها أبوها هاشم، ثم وهبها ابنه أسد لَعْدِي بن نوفل، ولم يكن لأسد عقب، منه قولها:

نحن وهبنا لَعْدِي سَجْلَةً تُرَوِي الحجاج زُغْلَةً فزُغْلَةً (٣)

وغيرها كثير.

وعلى هذا النحو عبّر شعراء ما قبل الإسلام عن تلك المكانة العظيمة لمكة ولمقدساتها، ولأهلها، في قلوب العرب جميعاً، وإن ما أوردناه في هذا العجالة لا يعدو أن يكون أمثلة مختارة من شعر كثير قيل في الموضوع، وهو في جملته واضح الدلالة على أن مكة المكرمة كانت قبل الإسلام محوراً أدبياً مهماً، يلتقى عنده الشعراء، والأدباء عموماً، في أوقات الشدة والرخاء، واليسر والعسر، على حد سواء، كما يبدو هذا الشعر أيضاً معبراً عما يكنه العرب لمكة والأماكن المقدسة، وساكنتها، من تقدير واحترام يصل إلى درجة التقديس

١- السيرة: ١: ١٤٨، وينظر: معجم البلدان: ٤: ٢١١.

٢- المصدر السابق، وينظر: معجم البلدان: ٤: ٥١.

٣- المصدر السابق، وينظر: معجم البلدان: ٤: ١٩٣.

ص: ٢٤٧

والعبادة.

الخاتمة:

وختام هذا البحث: استخلاص لأهم النتائج التي توصل إليها في نقاط مختصرة، على النحو التالي:

- ١- إجماع العرب قبل الإسلام على احترام مكة، وكافة المقدسات بها.
- ٢- لمكة هيبة عظيمة في قلوب الجبابرة والعصاة والمردة ومن في حكمهم.
- ٣- كثرة الحلف بالله والبيت والكعبة وما شابهها من المقدسات.
- ٤- الاحتماء بمكة عند الشدائد، وفي حالات الخوف، وما شابه ذلك.
- ٥- لا مكان في مكة لباغ أو سوء النية نحو مكة ومقدساتها.
- ٦- لقريش مكانة رفيعة عند العرب بصفه عامة.
- ٧- تميز القرشيون بكثير من الذكاء والحكمة والعقل والمروءة والكرم، مما جعلهم في مكان الصدارة من العرب جميعاً، يلجأون إليهم كلما حزب بهم أمر، أو حدث بينهم شقاق، أو طلبوا الشهرة، وما شابه ذلك من أمور.
- ٨- مكة سوق تجارية مشهورة، والمكيون أسياد هذا السوق.
- ٩- كثرة آبار السقي بمكة القديمة، وتنافس المكيين في إقامتها، وإشاعتها للجميع، وتفاخرهم بذلك.
- ١٠- مكة محور مهم للشعر والأدب عموماً منذ القدم.

أثر مكة والحج في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية

(١) مكانة مكة المكرمة في قلوب مسلمي شبه القارة الهندية

د. سمير عبدالحميد إبراهيم

مكة المكرمة، المدينة المقدسة، مكرمة بالبيت، مقدسة بالبيت، الذي هو أول بيت وضع للناس، البيت الحرام، بيت الإنسانية من لدن آدم إلى قيام الساعة، لقد كرم الله مكة فجعلها مكاناً لهذا البيت.. »

إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة»

.. مكة المكرمة نالت العزة والفخر، ونالت مكانتها وثروتها بدعاء خليل الله، فضلت بلداً آمناً، وظل رب الخلق يرزق أهله من الثمرات، فأهله هم أهل الله، وهم مطعمون من جوع وآمنون من خوف.. فمنذ أذن الخليل بالحج، انطلقت دعوته عبر الزمن من لحظة وقف على جبل أبي قبيس إلى أن تقوم الساعة.. وما من لحظة في ليل أو نهار إلا وهناك متجه إلى هذا البيت، أو من يستعد للقدوم إليه، أو من يتوجه إليه راكعاً وساجداً.

كم من صفحات كتبت عن فضائل هذا البلد! وكم من عالم كتب عن فضائل هذا البلد! ناهيك عما كتب عن البيت الحرام وعن كل ما حوله:

عن مقام إبراهيم، وعن الحطيم، وعن الميزاب، وعن زمزم، وعن غيرها.

اهتم علماء الهند بتشجيع

ص: ٢٤٩

المسلمين على أداء فريضة الحج، وأكثر من هذا قاموا بتشجيعهم على الهجرة إلى مكة المكرمة طلباً للعلم، بل طلباً للموت والدفن في ترابها، وهكذا كتبوا المؤلفات الكثيرة عن فضل السكنى بمكة، وحب الرسول إياها (١).

وهكذا اهتم العلماء والأدباء في شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين في شعب أبي طالب المعروف اليوم بشعب علي، والذي تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذي تحول إلى مدرسة البنات

لقد شجع العلماء في الهند المسلمين الهنود على الذهاب إلى مكة المكرمة، البلدة التي هي خير بلدة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله ورسوله، والتي يكتب لمن يصلي فيها ركعة واحدة مائة ألف صلاة، والتي يكتب لمن صام رمضان فيها مائة ألف شهر رمضان، والتي يكتب لمن تصدق فيها بدرهم واحد مائة ألف ما يكتب لمن تصدق في غيرها، والتي فيها شراب الأبرار وطعام طعم..

وهكذا اهتم العلماء والأدباء في شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين في شعب أبي طالب المعروف اليوم بشعب علي، والذي تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذي تحول إلى مدرسة البنات، وهناك غار حراء، وقمة جبل حراء، ومسجد الجن، ومسجد الشجرة، وغار ثور، ومسجد العقبة، ومسجد الفتح، ومسجد التنعيم، ومسجد ذي طوى في جرول، ومسجد النور، ومسجد الراية وغيرها (٢).

١- ذكر عطاء بن كثير حديثاً رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة» الأرزقي ٢: ٢٢ وعن الزهري قال: إن النبي صلى الله عليه وآله قال لمكة: «إني لأعلم أنك حرم الله وأمنه وأحب البلدان إلى الله تعالى» الفاكهي ٢: ٢٦١ وفضل الموت بمكة وفضل مقبرتها قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قبر بمكة جاء آمناً يوم القيامة، ومن قبر بالمدينة كنت عليه شهيداً وله شافعاً» الفاكهي ٣: ٦٨.

٢- أنظر: عاتق بن غيث البلادي، فضائل مكة وحرمة البيت الحرام: ٢٣٢، دار مكة للنشر والتوزيع ط أولى ١٤١٠ هـ، ١٩٨٩ م.

ص: ٢٥٠

(٢) أثر مكة المكرمة على سلاطين شبه القارة وعلمائها:

غياث الدين أعظم شاه البنغالي:

كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند- حكاماً ومحكومين- تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها، فها هو غياث الدين أعظم شاه، وهو من أعظم سلاطين ألياس شاه في البنغال وأشهرهم (١) يرسل الهبات والهدايا إلى

مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأهم من هذه الهبات والهدايا إرساله بمال لعمارة مدرستين: مدرسة بمكة ومدرسة بالمدينة وشراء عقار يوقف عليهما، وقد ذكر ذلك كثير من المؤرخين، وعلى رأسهم قطب الدين النهروالي (الذي سنذكره فيما بعد) في كتابه تاريخ مكة الذي سماه: الإعلام بأعلام بيت الحرام، لكنه اشتهر باسم تاريخ قطبي أو تاريخ مكة (٢).

ومما ورد في تاريخ مكة: أن السلطان غياث الدين أعظم شاه قام بتأسيس مدرسة في مكة المكرمة وأقام رباطاً للمسافرين، كما جعل هناك وقفاً لأعمال الخير والرعاية (٣).

وقد ذكر على آزاد بلكرامى أيضاً- نقلاً عن تاريخ مكة- في كتابه (خزانة عامرة) المدرسة التي أقامها السلطان غياث الدين ولخص العبارة الأصلية هكذا:

«أقام المدرسة واشترى الأملاك غير المنقولة في وادي مُر مع أحد الأنهار والممتلكات وجعلها وقفاً على المدرسة».

أما قاضى القضاة تقي الدين الفاسي (متوفى ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) في كتابه شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، فقد ذكر السلطان غياث الدين أيضاً (٤).

وعلى كل حال، «كان ابتداء عمارة المدرسة بمكة المكرمة في شهر

١- حكم مدة ٢٢ سنة ٧٩٢ هـ - ٨١٣ هـ / ١٣٩٠ م - ١٤١٠ م وكان له إسهامات عظيمة في نشر الإسلام وتعاليمه، وتطبيق الشريعة الإسلامية وخاصة في المحاكم والقضاء- حاشية أنظر مهر على تاريخ المسلمين في البنغال المجلد الأول أ ص ١٤٢، جامعة الإمام ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٥ م.

٢- وقد قام ابن أخيه عبدالكريم بن مجد الدين متوفى ١٠١٤ هـ، ١٦٠٥ م باختصار تاريخ قطبي. وللكتاب أكثر من طبعة واحدة في مصر، وأخرى في سنة ١٣٧٠ هـ، ١٩٥٠ م وهناك طبعة ألمانية في لايبزغ قديمة ترجع إلى عام ١٨٥٧ م باهتمام المستشرق فردينند أو ستن فيلد- أنظر مقال للدكتور محمد إسحاق محاضر بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة دهاكه.

٣- مهر على، المصدر السابق: ١٩٨-٢٠٠.

٤- مقال الدكتور إسحاق ص ١٢٧-١٢٨.

ص: ٢٥١

رمضان سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ولم تنقض هذه السنة حتى فرغ من عمارة سفليها وغالب علوها، وكملت عمارتها في النصف الأول من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وفي جمادى الآخرة منها ابتدأ فيها التدريس في المذاهب الأربعة، وكان وقفها في الحرم من هذه كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند - حكماً ومحكومين - تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها السنة، وكان شراء الوقف وموضع المدرسة باثني عشر ألف مثقال ذهباً، وكان المتولى لشراء هذا الوقف والمدرسة خادماً السلطان المذكور برقوق الحبشى، وهو الذى تولى تفرقة صدقة السلطان بمكة في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ووقف المذكور على مصالح مكة داراً مقابلة لها اشتراها بخمس مائة مثقال وعمّرها في سنة أربع عشرة...» (١).

وتذكر المصادر التاريخية (غلام على آزاد بلكرامى في خزانة عامره) أن السلطان أرسل مع ياقوت المذكور ثلاثين ألف مثقال ذهباً لإصلاح مجرى مياه «عرفة»، وتسلم شريف مكة حسين بن عجّالان المبلغ، لكنه استخدمه في إصلاح نهر آخر (نهر بازان) وخزانين للمياه في مكة.

السلطان محمود شاه الكجراتي:

يعد السلطان محمود شاه، الذى تولى الحكم سنة ٨٦٣ هـ - ١٢٥٨ م وحكم خمسة وخمسين عاماً، من أشهر حكام الأسرة الحاكمة في الكجرات (٢)، كان مسلماً ورعاً، أقام صناعات كثيرة وازدهرت البلاد في عهده، قدم عليه أبو القاسم بن أحمد المكي المعروف بابن فهد ومعه فتح الباري بخط أبيه وعمه، وقدمه إليه فأكرمه (٣)، وكان بينه وبين السلطان قانصوه الغورى علاقات سياسية وعسكرية، وقد تولى من بعده ابنه مظفر الحليم الكجراتي، وكان من حفظة القرآن ومن المحدثين الفقهاء

١- أنظر النص في مهر على مصدر سابق ص ١٤٣-١٤٤.

٢- تقع الكجرات شمال ولاية بومباي، وجنوبها يطل على بحر البحر، وأشهر مدنها أحمد آباد العاصمة التى أسسها أحمد شاه توفى ٨٤٥ هـ - ١٢٤٢ م، كانت لها صلات تجارية وثقافية في الماضى مع البلاد العربية.

٣- أنظر د. عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند: ٢٠٧، ط دار النشر للجامعات، بيروت.

ص: ٢٥٢

وماهراً فى فن الخط بجميع أنواعه فكتب مصحفين بيده، وأرسلهما إلى الحرمين الشريفين (١)، وقد كتبهما بالخط الثلث بماء الذهب، وخص بهما إمام الحنفية، وجعل لهما وقفاً يصرف لمن يقوم على حفظهما، ومن يدعو له عند ختمهما، ولللقاء الذى يسقى القراء وللغراش كذلك، وكان محافظاً على الوضوء والصلاة فى جماعته (٢). ومن برّه لأهل الحرمين، أنه كان يرسل لهم العطايا والأقمشة، كما أنشأ فى مكّة رباطاً ومدرسةً وسيلاً للماء، وجعل لهما وقفاً يرسل إلى مكّة ينفق على المدرّسين والطلبة ومن يقيم فى الرباط (٣).

السلطان شير شاه السورى:

ومن حكام الهند أيضاً شير شاه السورى الذى جلس على عرش آكرا (بكاف فارسية) فى رجب ٩٤٧ هـ - ١٥٤٠ م (٤)، وقد قام شير شاه السورى بتخصيص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام مجاناً، وكان بيت المال يتحمل تكاليف سفر أولئك الحجاج (٥)، كما كان حريصاً على تأمين طريق الحج فقد قال: «لو ساعدنى الزمان أبعث برسائلى إلى عظيم الروم (يقصد السلطان العثمانى) وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد، فندفع بمساعدة ملك الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج، ونحدث شارعاً آمناً إلى مكّة المباركة»، لكن الأجل لم يمهلهم فمات قبل أن يحقق أمله (٦).

الامبراطور جلال الدين أكبر:

وهكذا يفهم أن الأوربيين كانوا يعرقلون سفر الحجاج الهنود إلى مكّة المكرمة، مما دفع الحكام المسلمين إلى التصدى لهم، ومن أمثلة هذه الحوادث ما قام به الامبراطور جلال الدين أكبر حين زحف على منطقة الكجرات سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م، ووصل إلى مدينة «سورت» (٧)،

حيث أسس البرتغاليون بها مركزاً لتجارته وحاميةً من الجند تحميهم، وقد تصالح هؤلاء معه و عقدوا

١- المصدر نفسه: ٢٠٨.

٢- هكذا ذكر الآصفى فى تاريخه، أنظر نزّهة الخواطر ٤: ٣٥٦.

٣- النمر، مصدر سابق: ٢١١.

٤- تمكن من حكم البلاد وهو كبير السن لكنه مع هذا قام بتطوير البلاد وتحديثها وشق الطريق وحفر القنوات، وأقام أربطةً ومساجد على الطرق، وغرس الأشجار المثمرة للمسافرين، ولا يزال بعضها قائماً حتى اليوم.

٥- عبد الحى: نزّهة الخواطر ٤: ١٥٥.

٦- النمر: ٢٥٢.

٧- جاء فى دائرة المعارف الإسلامية بالأردية أنّ سورت تعرف باسم باب مكّة، اسم مدينة أطلق على عاصمة المديرية وتقع عند مصب نهر بلتى عند الطرف الجنوبى للنهر على مسافة عشرة أميال من المصب، ذكرها الجغرافى الشهر بطليموس مات ١٥٠ م، ويعتقد أن

المدينة الحالية أسست في بداية القرن ١٦ م، دائرة المعارف ١١: ٤٤٨.

ص: ٢٥٣

معاهدة تعهدوا فيها بتيسير الحج إلى مكة، وعدم التعرض في البحر للحجاج المسلمين، وكانت مدينة «سورت» ميناء يبحر منه الحجاج، ولا يزال فيها للآن شارع يسمى «باب مكة» (١).

أما الامبراطور بهادر شاه ظفر- وكان أديباً وشاعراً- فهو آخر ملوك الدولة المغولية (البابرية) في شبه القارة، فقد نفاه الإنجليز من الهند إلى بورما بعد أن أحضروا إليه رؤوس أولاده داخل أطباق على صينية الطعام، فقد ظل يناجي ربه، ويث ألمه إلى رسول الله شعراً:

«يا رسول الله! ما كانت أمنيته إلا أن يكون بيتي هناك بجوارك..

لكنه أصبح في رنكون، وبقيت أمنيته مدفونة في صدري..

يا رسول الله!

كانت أمنيته أن أمرغ عيني في تراب أعتابك..

ولكن ها أنا أتمرغ في تراب رنكون..

وبدلاً من أن أشرب من ماء زمزم ..

بقيت هنا أشرب الدموع الدائمة ..

فهل تنجيني يا رسول الله!

ولم يبق في حياته سوى أيام معدودات».

وإذا ما تركنا الحكام إلى العلماء والدعاة، لاحظنا أن مكة المكرمة، كانت تبعث بعلمائها إلى شبه القارة، وكانت شبه القارة تعيدهم إليها تارة، أو ترد بإرسال علمائها إلى مكة تارة أخرى، ونسوق هنا مثالين أو أكثر:

أسرة مولانا أبي الكلام آزاد بين مكة والهند:

أبو الكلام آزاد هو محي الدين أحمد، وآزاد هو تخلصه أو اسمه الأدبي، أسرته من الهند والحجاز، فجدّه هو مولانا محمد هادي من أسرة كلها علم وورع وتقوى، ووالده آزاد هي ابنة أخت الشيخ محمد بن طاهر مفتي المدينة المنورة، وكان والده مولانا خير الدين قد قدم إلى مكة المكرمة وعاش فيها، ثم تزوج من ابنة هذه الأسرة التي تنتمي إلى

١- النمر، د. عبد المنعم تاريخ الإسلام في الهند، بيروت، المؤسسة الجامعية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٢٦٨.

ص: ٢٥٤

المدينة المنورة.

ويذكر أنه حين توفي جد مولانا آزاد لأبيه، وترك ابنه «خير الدين» والد آزاد صغيراً، كفله جده لأمه ورباه تربية دينية، لكن الجد لم يطق المقام في دهلي وهو يرى أشلاء الدولة الإسلامية تتمزق، والإنجليز يتحكمون في كل شيء فاستقر رأيه على الهجرة بأسرته إلى مكة المكرمة، ليقضى فيها بقية حياته بجوار البيت الحرام.. وحين وصل إلى بهوبال في وسط الهند متجهاً إلى بومباي ليستقل الباخرة إلى جدة، استوقفته أميرة بهوبال «سكندر جهان بيغم» (١).

استوقفته وأبقته نحو سنتين، لكنه توفي في بومباي، فواصل حفيده- ابن بنته والد آزاد- الرحلة إلى مكة المكرمة مع الأسرة، وكان في الخامسة والعشرين، وفي مكة بنى له داراً وتزوج- كما يذكر آزاد في مذكراته- من ابنة أحد علماء المدينة المعروفين وهو الشيخ محمد طاهر الوطري (٢)،

وفي سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م ولد أبو الكلام آزاد الذي سماه أبواه محي الدين في محلة «قدوه» المتصلة بباب السلام بالحرم المكي، وكان أصغر أخوته وأخواته الخمس.

وهكذا ولد آزاد من أم حجازية وأب هندي تعزّب، فقد مكث والده في مكة نحو ثلاثين عاماً (٣)، وكان عالماً جليلاً ورجلاً تقياً ورعاً، له أثره وشهرته في مكة المكرمة وفي الهند وغيرها، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردنية (٤) أنه كان له

مريدون في بومباي وكلكتا ورنكون، وأنه كان يسافر كثيراً إلى الهند.

١- وهي إحدى أربع أميرات تولين الحكم في هذه الإمارة، وتولت الحكم بعدها شاهجهان بيغم التي تزوجت من العالم المعروف صديق حسن خان، وقد كتبت سكندر بيغم عن رحلتها للحج كتاباً بالأردية، ترجم إلى الإنجليزية، وكتب عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر أستاذ بقسم الاجتماع الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ورقة قدمها في ندوة حج العام الماضي بعنوان «كتابات ورحلات النساء للحج دراسة في رحلة حج نواب اسكندر بيجم بهوبال ١٢٢٠ هـ / ١٨٦٤ م».

٢- أنظر كتاب، الصفحات الأولى.

٣- الدكتور عبدالمنعم النمر أبو الكلام آزاد: ٦٣.

٤- دائرة المعارف الإسلامية بالأردية، المجلد الأول: ٩٩.

ص: ٢٥٥

اشتهر مولانا خير الدين بجهوده في جمع الأموال التي أسهمت في ترميم نهر زبيدة سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م (١). فصل إبراهيم باشا في رحلته «مرآة الحرمين» الحديث عن نهر زبيدة، كما كتب عنه مولانا عبد المعبود في كتابه تاريخ مكة المكرمة (بالأردية)، ويذكر أبو الكلام آزاد «أن أباه حين كان في مكة لم تكن المياه تأتي أبداً في نهر زبيدة، ولو حدث وجرت فهي قليلة جداً، وكان عسكر شريف مكة يجلسون عليه يبيعون الماء بأسعار غالية، وفي تلك السنة انقطعت المياه تماماً في الحج وهلك آلاف الناس، وقد رأى والدي هذا المنظر بنفسه وقرر أن يصلح من شأن هذا الأمر من أجل موسم الحج القادم، وكان قد لفت نظر سلطان تركيا لهذا الأمر لكنه لم يجد منه أذنًا صاغيةً، ولهذا بدأ يخاطب الناس في الهند، فطلب من صديقين له هما شهنشدر التجار حاجي عبد الواحد وحاجي زكريا العون، فقدما آلاف الروبيات، وقدم نواب الهند ورؤسائها أيضاً المعونات، ومن حسن الحظ أن نواب كلب على خان ونواب عبدالغني كانا ذاهبين للحج في تلك السنة، فذهب الوالد إليهم فتبرعا بأموال كثيرة.. كان هذا سنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٣ م، وقام الوالد بطبع نشرات بالعربية والأردية أرسلها إلى مصر والهند.. ولم تمض عدة أشهر حتى قدم المهندسون الهنود (عدهم ٨)، كما انتبعت الحكومة التركية وأرسلت مهندسين مصريين..».

وهكذا بدأ العمل في تطهير نهر زبيدة بعد أن شكل مولانا خير الدين لجنة من سبعة أشخاص تعمل تحت إشراف شريف مكة، وتم إصلاح جزء كبير من النهر لدرجة أن مشكلة المياه انتهت سنة ١٩٠٥ م، وقد منحت الحكومة التركية مولانا خير الدين وساماً (الدمغة المجیدی من الدرجة الأولى).

وبينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية الأردنية أن أبا الكلام آزاد سافر وعمره عشر سنوات مع والديه

١- أنظر تفصيل ذلك في مقال الطاف على قريشي بعنوان نهر زبيدة، فكر ونظر، أكتوبر- ديسمبر ١٩٨٢ م، محرم ربيع الأول ١٤٠٦ هـ، إدارة تحقيق إسلامي إسلام آباد، وأنظر أيضاً ما جاء في كتاب الدكتور النمر أبو الكلام آزاد: ١٤٢ وما بعدها، وهذا ملخص ما ورد في المصدرين السابقين.

ص: ٢٥٦

إلى كلكتا، التي ذهب إليها أبوه بناءً على رغبة مريديه وأحبابه، حيث توفي هناك عام ١٩٠٧ م، وكان أبو الكلام آزاد وقتها يتكلم الأردية «المكسرة»، فقد توفيت والدته بعد وصوله كلكتا بسنة واحدة... يذكر الدكتور النمر أنه عاد إلى الهند بعد سنتين من ولادته، مستشهداً بما جاء في كتاب «الهند تكسب حريتها» لآزاد، وأشار الدكتور النمر نفسه إلى أن بعض المراجع الهندية الرسمية، تشير إلى أنه غادر مكة مع والده عام ١٨٩٨ م (١).

كما ينقل الدكتور النمر عن آزاد قوله: «وكان الداعي إلى عودته (أى والده) أنه سقط مرة في «جدة» فانكسرت ساقه ولم يجد من يرجعها إلى استقامتها، فأشار عليه أصدقاؤه بأن أطباء كلكتا يستطيعون علاجه..

فسافر للعلاج وكان عازماً على الرجوع إلى مكة بعد الانتهاء منه، لكن أتباعه ومريديه ألحوا عليه بالبقاء، ولم يدعوه يرجع إلى مكة.. وتوفيت والدتي بعد قدومنا كلكتا بسنة (أى عام ١٨٩١ م) ودفنت في ترابها» (٢).

صبي مكة يطوّر لغة صحافة الهند:

درس أبو الكلام آزاد على يد أبيه مختصرات في كل علم، وبدأ قول الشعر وهو في الحادية عشر من عمره، ثم بدأ في نشر مقالات نثرية، وفي سنة ١٩٠٣ م أصدر مجلة شهرية بعنوان «لسان الصدق»، وقد ألقى أول خطاب وعمره اثنا عشر عاماً، وقد ألقى خطاباً في جمعية حماية الإسلام ببلهور سنة ١٩٠٤ م نال استحسان الجميع، وتعجب مولانا شبلى نعماني وأديب الأردية حالي، حين التقيا بهذا الفتى الذي هو مدير تحرير لسان الصدق... لقد شكلت نشأته في مكة المكرمة شخصيته العظيمة.

أصدر بعد ذلك مجلة الهلال الأسبوعية، فصارت مجلة فريدة في عموم الهند، ويذكر مولانا عبد الماجد الدرايبادي أن الهلال «طلعت في سماء كلكتا سنة ١٩١٢ م في الغالب حين استقر آزاد في كلكتا، لقد بدل آزاد

١- أنظر د. النمر، أبو الكلام آزاد: ٦٣.

٢- المصدر نفسه: ٦٣.

ص: ٢٥٧

دنيا الصحافة، قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً، فاختلقت صحافته عن صحافة معاصريه، بإصدار هذه الصحيفة الأسبوعية التي سماها الهلال، وبالإضافة إلى الأسلوب، فقد جعلها صحيفة حيّة، مطبوعة على ورق جميل، ومحلاة بالصور الرائعة، وفي صفحة الغلاف الملونة كتب اسم المحرّر وهكذا: أحمد المكنى بأبي الكلام الدهلوي «ويذكر مولانا عبد الماجد أنهم ظلوا يبحثون في المعاجم والقواميس عن النطق الصحيح لكلمة المكنى وعن معناها أيضاً» (١).

كانت نشأة آزاد في مكة المكرمة وتعلقه بلغة أمه اللغة العربية ذا أثر واضح على أسلوبه منذ البداية، وهكذا بدأ يدخل في لغة الصحافة التراكيب والتعابير العربية، ويجبر غيره على فهمها ومحاولة استخدامها، مما أثري اللغة الأردية بتراكيب جديدة، فبدلاً من ادتر (اللفظ الإنجليزي) استخدم مدير مسؤول، كما استخدم محرر خصوصي، ورئيس قلم تحرير، واستخدم كلمة مجلة بدلاً من جريدة، واستخدم التركيب «بريد افرنك» بدلاً من «ولايتي داك» وهو التركيب الأردى المفهوم، واستخدم التركيب «محير العقول» بدلاً من التركيب الفارسي «حيرت انكيز»..

ويذكر مولانا عبد الماجد أن أبا الكلام كان يطلع على القراء كل أسبوع بتعابير جديدة ومصطلحات لم يسمعوها عنها، وبتشبيهات وتراكيب جديدة، والعجيب أنها كانت تظهر على صفحات جريدته، فتصبح على الفور عملة رائجة بين جميع الأدباء.. لقد اعترف الجميع بعد ظهور الهلال بأن أبا الكلام آزاد هو الآن مولانا أبو الكلام آزاد، فقد صار كل بيت يلهث وراء الحصول على نسخة من الهلال (٢).

شارك مولانا آزاد في حركة تحرير الهند وفي حركة الخلافة وكان رئيساً لها، وألقى خطبة عن «مسألة الخلافة وجزيرة العرب»، وتعرض للسجن، ودافع عن نفسه في بيان عرف باسم: القول الفيصل، نشر في

١- آئينة أبو الكلام آزاد، مجموعة مقالات رتبها عتيق صديقي، انجمن ترقى اردو هند فرع دهلى، ط أولى نوفمبر ١٩٧٦ م، مقال مولانا عبد الماجد بعنوان مولانا آزاد، جند يادين، أى بعض الذكريات عن مولانا آزاد: ٥٠، وما بعدها.

٢- المصدر السابق: ٥١.

ص: ٢٥٨

مطبعة المنار عام ١٣٤١ هجرية باسم ثورة الهند السياسية، وأصدر - ولعدة أشهر (إبريل ١٩٢٣ م - يونيو ١٩٢٤ م) - باللغة العربية «الجامعة» مجلة نصف شهرية، ومن مؤلفاته المرأة المسلمة، ومسألة خلافت وجزيرة العرب، وجامع الشواهد عن دخول غير المسلمين المساجد، وترجمان القرآن ٣ مجلدات، وغبار خاطر، ومكاتيب، والهند تكسب حريتها وغيرها (١).

عبد الله السندى فى مكة:

يصعب حصر علماء شبه القارة الذين جذبتهم مكة المكرمة إلى أرضها، لهذا نكتفى بالإشارة إلى بعض من ذاعت شهرتهم، وهناك كثيرون لا يسمح المجال لذكرهم أيضاً، ولا يقلل هذا من قدرهم، فعبد الله السندى ولد فى أسرة سيخية فى قرية جياتوالى بالجيم المثلثة مديرية سيالكوت فى إقليم البنجاب (باكستان) فى محرم عام ١٢٨٩ هـ / مارس ١٨٧٢ م، كفه أعمامه بعد وفاة أبيه قبل مولده بأربعة أشهر، وكانوا يعيشون فى جام بور مركز دير غازى خان (باكستان)، وهناك طالع كتاباً بقلم راهب هندوسى أسلم حديثاً بعنوان «تحفة الهند»، فشرح الله قلبه للإسلام، فودع أهله ووصل إلى إقليم السند حيث أعلن إسلامه على يد أحد شيوخ السند الكبار (حافظ محمّد صديقى) وتسمى بعبد الله، وقد كتب سيرة حياته بنفسه، بعد أن هاجر إلى مكة المكرمة، وأثناء إقامته فيها، وذكر أنه اعتبر شيخه والده، والسند موطنه، ولهذا سمي نفسه بالسندى.

درس عبد الله السندى فى ديوبند، وبناء على طلب من شيخ الهند مولانا محمود الحسم عمل فى ديوبند لأربع سنوات منذ سنة ١٣٢٧ هـ، ١٩٠٩ م وانتقل بعدها إلى دهلى حيث أسس نظارة المعارف، ثم سافر إلى كابول، ومنها إلى تركيا حيث قضى ثلاث سنوات، وقدم إلى مكة المكرمة سنة ١٣٤٥ هـ، ١٩٢٦ م، وظل فى مكة نحو اثنا عشر عاماً، فقد عاد سنة ١٩٣٨ م لينهمك فى العمل

١- أنظر أبو سعيد بزمى، مولانا آزاد اقبال اكيديمى لاهور مكايى شبلى جلد ١- ٢ اعظم كره ١٩٢٧، وآئينة أبوالكلام، آزاد، رتبها عتيق صديقى، ط أولى، دهلى ١٩٦٧ م، وبالعربية سمير عبد الحميد، الأدب الأردى الإسلامى، والنمر، أبو الكلام آزاد، ط القاهرة.

ص: ٢٥٩

السياسى إلى أن وافته المنية سنة ١٩٤٤ م، ودفن فى خان بور بالبنجاب. ويذكر أنه فى مكة المكرمة قام بالإشراف على طباعه كتاب شاه ولي الله «المستوى من أحاديث الموطأ»، وفى مكة المكرمة أيضاً قام بكتابة التفسير الذى أملاه عليه العالم الروسى التركى اللاجىء إلى مكة موسى جار الله (١٨٧٠ م - ١٩٤٩ م) وهو تفسير القرآن، باللغة العربية، فقد كتب عبد الله السندى:

«ما كان يقوله بالعربية، كنت أقوم بكتابته، فقامت بكتابته ألف وأربعمئة صفحة فى مائة وخمسين يوماً» (١). ومن مؤلفات عبد الله السندى العربية: التمهيد لأئمة التجويد، وهو يتضمن أقوال شاه ولي الله الدهلوى وأولاده وأحفاده من بعده (٢).

محمد يوسف الكاندهلوى فى مكة:

هذا عالم آخر يدعى الشيخ محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس، ولد فى دهلى فى جمادى سنة ١٣٣٥ هـ. مارس ١٩١٧ م، وهو ينسب إلى «كانده» التى تقع فى غربى الولاية الشمالية بمديرية مظفر آباد بالهند، حفظ القرآن وهو فى العاشرة من عمره، وأتم دراسة الحديث فى مدرسة مظاهر العلوم بهارنور.

استخلف الشيخ محمد إلياس ولده الشيخ محمد يوسف وفوض إليه أمر الدعوة والتبليغ فى رجب ١٣٦٢ هجرية، والشيخ محمد إلياس هو مؤسس جماعة التبليغ، وقد حرص الشيخ محمد يوسف على أن يرى عمل الدعوة والتبليغ ينتشر فى مهد الإسلام، مكة المكرمة، وينال من أهلها إقبالاً وعنايةً، وكان يرى أن هذه الدعوة إذا تأصلت جذورها فى هذه الأرض المقدسة، تستطيع أن تنتشر فى العالم كله عن طريق المسلمين الذين يجتمعون فيها من جميع أنحاء العالم، لتأدية فريضة الحج كل عام، ولهذا هاجر إلى مكة وبدأ عمله فى الحجاج القادمين إلى مكة من بومباى وكراشى، حيث رافقهم،

١- ماهنامة الرحيم حيدر آباد، نوفمبر ١٩٦٤ م، نقلًا عن دائرة المعارف الإسلامية الأردية ١٢: ٩٨٤.

٢- أنظر محمد سرور، مولانا عبد الله السندى، لاهور ١٩٤٢ م، وأيضاً عبدالرشيد ارشد، بيس برى مسلمان: ٤٠٢-٤١٢، لاهور ١٩٦٩ م، وأيضاً خطبات ومقالات مولانا عبد الله السندى، رتبة محمد سرور، لاهور ١٩٧٠ م.

ص: ٢٦٠

ووصل إلى مكة المكرمة، وهنا أخذ يزور الحجاج ويبعث العلماء فيهم، وهكذا أسست جماعات التبليغ، وأقيمت حلقات في الحرمين الشريفين.

وقد قدم للحج ثلاث مرات، قدم مع والده سنة ١٣٥٦ هجرية، ومع الشيخ حسين أحمد مدني سنة ١٣٧٤ هجرية، وجاء قبل وفاته بعام سنة ١٣٨٣ هجرية (١٩٦٤ م) حين ورد إلى مكة مع جماعة كبيرة، وطاف مكة المكرمة وما حولها من قرى، وقد نفخ في عبادة الحج روحاً جديدة، وجعلها وسيلة الدعوة والتبليغ، وعقد اجتماعات كبرى حاشده بين الناس.

وكان يرى أن المحاضرات ودراسة الكتب لا تكفيان وحدهما إذ لابد من تغيير الباطن وتركيب الأخلاق والأعمال. من مؤلفاته: حياة الصحابة، وقد طبع في بيروت، دار صعب، وهو يدل على مقدار تبحره في السيرة النبوية وأحوال الصحابة، وهو ذخيرة نادرة (١).

قطب الدين النهروالى:

سبقت الإشارة إليه من قبل، ونذكره هنا رغم تقدمه على من ذكرنا تاريخياً، وهو المفتي قطب الدين محمد بن رحمه النهروالى، ولد سنة ٩١٧ هـ / ١٥١٢ م في لاهور، إلا أن أجداده كانوا من مركز «نهرواله» بمحافظة الكجرات، ولهذا يقال له: «النهروالى» نسبة إلى موطن أجداده، وكان قد قدم إلى مكة المكرمة مع والده وهو طفل، فتتلمذ على يد العلماء المشهورين في مكة آنذاك، ونال من المعارف والعلوم أكثرها، وبرع في الأدب العربي والحديث والفقه والتفسير والتاريخ والبلاغة، ودليل ذلك كتابه البرق اليماني في فتح العثماني، عينه السلطان العثماني ناظراً لشعبة الأمور الدينية في مكة المكرمة، ثم صار مفتياً للبلد الحرام ومدرساً للمدرسة السلিমانيّة، وقد توفى في ربيع الثاني ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م وكان قد أكمل كتابه تاريخ مكة سنة ٩٨٥ هجرية كما ذكرنا من قبل (٢).

١- أنظر سيرة مولانا محمد يوسف لمحمد الثاني الحسني، نقله إلى العربية سعيد الأعظمي الندوى.

٢- أنظر مقال دكتور محمد إسحاق: ١١٨.

ص: ٢٦١

حكيم مولوى إرادات حسين:

حج للمرة الثانية سنة ١٢٨١ هجرية، وظل مقيماً في مكة ثلاث عشرة سنة، قدم خلالها خدمات جليلة لأهل مكة وللحجاج، وقد ذكر مولانا أبو الفتح محمد عبدالرحيم الزبيرى الهاشمى الصادقورى (متوفى ١٣٤١ هجرية) فى كتابه «الدر المنثور» المعروف باسم تذكرة صادقه «أن حكيم مولوى إرادات حسين جمع من الحجاج التبرعات، وطهر نهر مصر، كما قام بتوسيع الطريق المجاور لرمى الجمرات فى منى وكان ضيقاً، ولم يكن هناك طريق للخروج بعد الرمي مما كان يسبب مشاكل أثناء عودتهم، وبخاصة للضعفاء والعجزة، فقام مولوى إرادات حسين وجمع التبرعات من الباشاوات والشرفاء، وحفر الهضاب هناك، وقام بتوسيع الشارع، وشق طريقاً خلف الجمرات حتى يأتى الناس من ناحية، فيرمون الجمار، ثم يمضون من ناحية أخرى، ولا يحدث الزحام فى العودة» (١).

مكة وحركة الإصلاح الدينى فى شبه القارة:

- ١- حركة تيتو مير.
- ٢- الحركة الفرائضية.
- ٣- جماعة المجاهدين.

حركة تيتو مير الإصلاحية فى البنغال:

قام أحد علماء البنغال ويدعى مير نثار على الذى اشتهر باسم تيتو مير بحركة إصلاحية فى البنغال، للتخلص من ظلم الإقطاع الغربى والهندوسى، وكانت هذه الحركة الإصلاحية قصيرة ما بين ١٨٢٧ م وسنة ١٨٣١ م (٢). وأهميته الإشارة إلى هذه الحركة فى بحثنا هذا ترجع إلى ارتباط صاحبها بمكة المكرمة، فقد عقد العزم على القدوم إلى مكة للحج والاستزادة من التعليم الإسلامى، وربما وصل مكة سنة ١٨٢٣ م (٣)، ويذكر الدكتور مهر على أن المصادر تذكر أن تيتو مير وصل إلى مكة المكرمة بعد سنة واحدة من وصول سيد أحمد شهيد

-
- ١- الكتاب المذكور: ١٨٠، نقلًا عن الدكتور مقتدى حسن أزهري فى مقال له بعنوان الدر المنثور، كاروان أدب، العدد الخامس، إبريل ١٩٩٥ م.
 - ٢- أنظر مقال الدكتور معين الدين، ترجمه ثروت صولت إلى الأردية فى مجلة فكر ونظر، عدد ٨ مجلد ٧ ذى الحجة ١٣٨٩ هـ - فبراير ١٩٧٠ م، إدارة تحقيقات اسلامى إسلام آباد، بعنوان فرائضى تحريك، أى الحركة الفرائضية.
 - ٣- أنظر مهر على، مجلد ٢ من تاريخ المسلمين فى البنغال: ٢٥٠.

ص: ٢٦٢

بريلوى زعيم حركة المجاهدين فى الهند.

وقد عاد تيتو مير إلى كلكتا ربما سنة ١٨٢٧ م واستقر فى «حيدر بور» فى مقاطعة «باراسات»، وبعد فترة قصيرة بدأ حركته الإصلاحية بين مسلمى المنطقة، فدعاهم إلى التمسك بالتوحيد والبعد عن الشرك والبدعة (١)، والبعد عن التفرقة بين الناس داخل المجتمع طبقاً لمكانتهم العائلية، كذا عارض أيضاً ظلم ملاك الأراضى للفلاحين ودعا إلى رفض دفع الضرائب (٢).

الحركة الفرائضية لحاجي شريعت الله:

والحركة الفرائضية - أو كما تطلق عليها الموسوعة الإسلامية الأردية الجماعة الفرائضية - جماعة مسلمة فى البنغال أسسها حاجي شريعت الله (٣)، ولد سنة ١٧٨١ م فى قرية تابعة لمركز مادارى بور بديرية فريد بور، درس القرآن الكريم وعلوم الدين على يد أستاذه الأول مولانا بشارت على، وقد كانت سنة ١٧٩٩ م نقطة تحول فى حياته، حين رافق أستاذه مولانا بشارت على إلى مكة (٤)، وتشير دائرة المعارف الإسلامية الأردية أنه قدم لأداء مناسك الحج حين كان عمره ١٧ سنة، حيث اشترك فى حلقة الشيخ طاهر السنبلى الشافعى المكي، وأقام بمكة حوالى عشرين عاماً، وطبقاً لبعض الروايات، سافر إلى وطنه مرة أو مرتين خلال تلك المدة، بينما يذكر الدكتور مهر على أنه عاش ما يقرب من ١٦ سنة (١٨٠٠ م - ١٨١٥ م) دارساً للقرآن والحديث والفقه

١- المصدر نفسه: ٢٥٢.

٢- لمزيد من التفاصيل أنظر ما كتبه الدكتور مهر على: ٢٧١، وما بعدها.

٣- مجلد ١٢ المادة المذكورة.

٤- مهر على ٢: ٤٠٥.

ص: ٢٦٣

والعلوم الإسلامية الأخرى التي كانت تدرس في الحرمين الشريفين، وبرع في العربية وعلومها، وأنه درس على يد مولانا مراد البنغالي لمدة سنتين ثم بقي بعد ذلك تحت إشراف طاهر سنبل، أستاذ الحنفية، ومن أتباع الطريقة القادرية. قبل عودته إلى موطنه زار القاهرة، حيث قضى هناك سنتين يدرس العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر، ثم عاد إلى مسقط رأسه «فريد بور» سنة ١٨١٨ م، بينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه عاد سنة ١٨٢٠ م. وهكذا قضى شبابه والجزء المؤثر من حياته في مكة والمدينة مهد الإسلام ومركز الإسلام،... وحين رجع إلى موطنه نال شهرة كبيرة كعالم وتقي، ويحكى أنه تعرّض مرة لقطاع الطرق الذين سلبوه كل شيء بما في ذلك بعض الأشياء التي حملها معه من مكة، وكانت عزيزة عليه، ومنها كتب ورسائل مهمة، إلا أن سلوكه الطيب جعل قطاع الطرق يتأثرون به، فيتوبون، ويتبعونه في عمل الخير. وقد بدأ حاجي شريعت الله بالتدريس والنصح والإرشاد في قرى بلاده في صمت لعدة سنوات، في فترة كان المزارعون المسلمون يعانون من سطوة ملاك الأراضي، والتجار الهندوس والإنجليز، كما لم يكن لهم نصيب من تعاليم الإسلام الصحيحة، فقد خلطوا دينهم الإسلامي بخرافات الهندوسية وبدعها، بحيث يصعب التمييز بين المسلم والهندوسي، فقام حاجي شريعت الله بإيضاح مبادئ الإسلام الصحيحة لهم، وبين لهم ما دخل الإسلام من شوائب وعقائد غير صحيحة، وبين لهم أن سوء حالهم إنما هو بسبب بعدهم عن التعاليم الصحيحة للإسلام. لم تلق دعوته في البداية أذناً صاغية، فلم يكن من السهل على هؤلاء الناس ترك تلك التقاليد التي تغلغت في نفوسهم منذ قرون، فقد كانوا يظنون أنها تقاليد الإسلام وتعاليمه ولهذا خالفوه مخالفة شديدة، وتعرض الرجل للسب والشتم (١)،

ص: ٢٦٤

فشعر حاجى شريعت الله أنه بحاجة إلى العودة إلى مكة المكرمة لاستشارة أستاذه، والحصول منه على إذن بالبدء علانية في حركته الإصلاحية (١).

وهكذا عاد إلى مكة سنة ١٨١٩ م - ١٨٢٠ م كما يقول الدكتور مهر على، وكان قبل عودته إلى مكة قد تزوج وأنجب ولده محمد محسن (١٨١٩ م).

ويذكر الدكتور معين الدين أن هدفه من هذه الرحلة الخاصة كان استشارة أستاذه فيما يقوم به من إصلاحات (٢). وعلى كل حال عاد حاجى شريعت الله لبدأ حركته الإصلاحية التي عرفت باسم «الحركة الفرائضية»، لأنه ركز كثيراً على أداء فرائض الإسلام، وأمر بالقضاء على ما يسمى بالشيخ والمريد، ورأى أن تكون العلاقة في مثل هذه الحالة كالعلاقة بين الأستاذ والتلميذ، وقد وجدت لحركته قبولاً بين الناس وبدأت تتسع، وتتخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً، فقد أوجدت تعاليم الإسلام الداعية إلى المساواة والأخوة والجرأة والشجاعة صدى في نفوس المزارعين البنغاليين، في وقت أعلن فيه حاجى شريعته الله أن الهند دار حرب، وأن بها حكومة تقوم بإيقاع الظلم بالمسلمين ولهذا لا يجوز صلاة العيدين والجمعة هنا (٣)، وذكرت

وثائق شركة الهند الشرقية أن الهندوس والإنجليز كانوا يشعرون بالرعب من أتباع الحركة الفرائضية. وفي سنة ١٨٣١ م اتخذ الصراع شكلاً منظماً، مما دفع الحكومة إلى القبض على عدد كبير من أتباع الجماعة، ووجهت التهمة إلى حاجى شريعت الله لكن صدر الحكم ببراءته، بعدها فضل الشيخ الانزواء في قريته والاستمرار في عملية الدعوة والتبليغ إلى أن توفي سنة ١٨٤٠ م عن عمر يناهز التاسعة والخمسين (٤).

تولى قيادة الحركة من بعده ابنه محمد محسن أو محسن الدين أحمد الذي اشتهر باسم دودهو ميان، ورغم أنه كان في العشرين أو الثانية والعشرين من عمره إلا أنه حقق مكانة بين أتباع الحركة بسرعة،

١- مهر على ص ٣٠٧.

٢- د. معين الدين، فرائضى تحريك، ترجمة ثروت صولت، فكر ونظر، العدد ٩، المجلد ٧، مارس ١٩٧٠ م.

٣- مهر على: ٣١٤.

٤- د. معين، فرائضى تحريك.

ص: ٢٦٥

فالحركة التي اقتصررت في حياة والده على عدة مديريات ومراكز انتشرت الآن في جميع مناطق البنغال الشرقية. وقد تعلم دودهو ميان على يد والده الذي أرسله عندما كان في الثانية عشرة من عمره إلى مكة المكرمة للمزيد من التعليم الإسلامي، ف قضى الابن في مكة خمس سنوات، عاد بعدها إلى موطنه سنة ١٨٣٧ م، بعد أن استدعاه والده لتقدمه في السن (١)، وقد فصل الدكتور مهر على

كيفية تنظيمه للحركة بعد وفاة والده (٢) وصراعه مع ملاك

الأراضي (٣)، ويذكر أن دودهو ميان

عاد مرة أخرى إلى مكة، وأثناء غيابه في بداية عام ١٨٤٣ م بدأت الحكومة تهاجم أتباع الحركة للقضاء عليها (٤). وقد شعر الإنجليز أن أتباع الحركة الفرائضية يريدون إخراج الإنجليز من البنغال بعد أن جند دودهو ميان ثمانين ألف ناشط من أتباعه، ولهذا صدر الحكم ضد أتباع الحركة والقبض على دودهو ميان حين اندلعت حرب التحرير سنة ١٨٥٧ م بعد مرضه الشديد، وتوفي في سبتمبر ١٨٦٢ م عن عمر يناهز الثانية أو الثالثة والأربعين.

ومما يذكر أن الحركة الفرائضية تركت تأثيرها الواضح على مسلمي البنغال، فقد بدأوا يعتمدون على أنفسهم، وبثت فيهم الحمية الدينية وأوجدت بداخلهم عاطفة الجهاد ضد الظلم من أجل الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهكذا ظهرت في البنغال يقظة عامة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يغفل عن ذكرها (٥).

سيد أحمد شهيد وجماعة المجاهدين:

ولد سيد أحمد شهيد بن سيد محمد عرفان في صفر سنة ١٢٠١ هـ / نوفمبر ١٧٨٦ م في راى بريلي (أوده)، ويقال: إن نسبه يصل إلى على عليه السلام، اشتهر بقوته الجسدية غير العادية، بدأ بخدمة أهل الحى والجيران، ثم بدأ في خدمة الفقراء والمساكين، تعلم على يد

١- المصدر نفسه: ٦٧٣.

٢- مهر على: ٣٢٤.

٣- مهر على: ٣٤٨، وما بعدها.

٤- مهر على: ٣٣٥ - ٣٦٠.

٥- أنظر عبد الله ملك بنكالي، مسلمانون كى صد سال جد وجهد آزادی، ١٧٥٧ م - ١٨٥٧ م، لاهور ١٩٦٧ م.

ص: ٢٦٦

شاه عبد العزيز المحدث المشهور في دهلي، ثم أرسله شاه عبد العزيز إلى أخيه شاه عبد القادر (١). نظراً لسيطرة الإفرنج على الطرق البحرية أفتى بعض علماء الهند بسقوط فريضة الحج، لكن علماء الحق عارضوا الفتوى، وهكذا أعد سيد أحمد شهيد العدة مع أربعمائه من رفاقه للسفر إلى مكة، في شوال ١٢٣٦ هـ/ يوليو ١٨٢١ م وقد انضم إليه عدد كبير، ووصل عدد القافلة نحو ٧٠٠ حاج، وقد كتب رسائل إلى جماعته في دهلي، وسهارةنبور وغيرها، جاء فيها: (نحن ذاهبون لأداء فريضة الحج، فعلى من ينوي الحج أن يرافقنا، لكن ليعلم الجميع أننا لا نملك مالاً ولا متاعاً، لكننا متوكلون على الله وحده، نعتمد على الله، وعلى جهدنا وما نكسب من عمل نؤجر عليه، أما النساء والضعفاء فيكفلهم القادرون منا).

بدأت الرحلة إلى مكة من كلكتا، ومنها إلى بومباي، وصولاً إلى جدة.

وكان سيد أحمد شهيد يفكر في الهجرة من الهند «دار الحرب» والذهاب إلى مكة المكرمة والبقاء في الحرمين الشريفين دون عودة، إلا أنه فكر في الواجب المقدس، وهو رفع كلمة الله، وتطبيق السنة النبوية والقضاء على البدعة وأنواع الشرك المختلفة. ويرى معظم الباحثين أن سيد أحمد شهيد قد طور اتجاهه غير السياسي أو المفهوم غير السياسي للجهاد حين كان في مكة يؤدي فريضة الحج.

فقد تشجع من خلال النجاح المشهود المتمثل في اصطحاب مئات الناس إلى الحج، فعرض عليهم الجهاد مثلما عرض عليهم الحج من زاوية دينية خالصة، مؤكداً على الاعتماد الكامل على الله.

والحقيقة أن سيد أحمد شهيد كان قد بدأ ما أطلق عليه البعض «الطريقة المحمدية» وذلك سنة ١٨١٨ م من دهلي، بمباركة شاه عبد العزيز، وكانت بدايتها عملية إصلاح

ص: ٢٦٧

ديني تحولت فيما بعد إلى حركة اجتماعية سياسية، تحولت بعد حين وبعد العودة من مكة المكرمة إلى حركة جهاد ضد الشيخ، ولهذا أطلق عليها حركة الجهاد «تحريك مجاهدين»، بينما أطلقت الإرادة البريطانية في الهند والكتاب الأوروبيون عليها اسم الحركة الوهابية الهندية:

، نظراً لشكهم في نواياها السياسية من ناحية، ولوجود تماثل بينها، وبين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من ناحية أخرى (١). وصلت القافلة بالقرب من مكة في ٢٩ شعبان ١٢٣٧ هـ، فدخلت من طريق أعلى مكة عملاً بسنة النبي، ثم دخلت الحرم من باب السلام، وقد نزلت القافلة بالقرب من باب العمرة في بيوت استأجروها، وكان الإمام مع رفاقه من العلماء يجتمعون بعلماء مكة وشيوخها.. وفي يوم العيد التقوا من علماء مكة بالشيخ المحدث عمر عبد الرسول الحنفي، ووفد عدد كبير من العلماء والشيخوخ على الإمام، ومن هؤلاء الشيخ مصطفى إمام الحنفية وخواجه ألماس الهندي، وخواجه سرا شيخ الدين والشيخ شمس الدين شطا، وأحمد باشا، وحسن أفندي نائب سلطان مصر، وكذلك أحد كبار مسلمي البلغار (يملك مطبعة في بلغاريا) والشيخ عبد الله سراج المكي، وكذا وزير سلطان المغرب ويدعى سيد محمد الذي اشتهر بحفظه لصحيح البخاري مع شرح القسطلاني، وكذا الشيخ إدريس ومحمد علي الهندي، وملا بخاري، بالإضافة إلى مفتي الشافعية الشيخ صالح الشافعي ومفتي الحنفية وواعظها الشيخ علي. وبناء على رجاء من الشيخ حسن أفندي قام مولانا عبدالحى ومولانا محمد إسماعيل بترجمة كتاب الإمام «الصراط المستقيم» إلى اللغة العربية، وحصل على نسخ منه العلماء الذين وفدوا على مقر إقامة الإمام (٢). وقد حل رمضان على القافلة للمرة الثانية وهي في مكة ففضت

١- أنظر: ٣٢٤ بحث ل:

Islamic Research Inst .Pakistan .against the Sikhs .Islamic Studies vol .VII Dec .٣٦٩١ no ٤
Journal of Muin ud din Ahmad Khan ,Sayyid Ahmed Shahid ,s Campanion

٢- أنظر معين الدين أحمد خان، مقال في ١٩٦٧، ٤، Islamic Studies Review No ، بعنوان الطريقة المحمدية، دراسة تحليلية: ٣٧٥.

ص: ٢٦٨

القافلة رمضان في مكة، وفي منتصف شوال استعدت القافلة لرحلة العودة إلى الهند، وفي غرة ذي القعدة سنة ١٢٣٨ هـ/ العاشر من يوليو ١٨٢٣ م طاف سيد أحمد شهيد مع رفاقه طواف الوداع.. لتتجه القافلة بعد ذلك إلى الهند حيث بدأ الشيخ برنامج الذي فكر فيه طويلاً، برنامج الجهاد وذلك لتأسيس حكم إسلامي في شبه القارة يتفق والمبادئ الإسلامية.

وفي نهاية ١٢٤٣ هـ/ ١٨٢٦ م بدأ الجهاد الفعلي ضد السيخ في منطقة البنجاب، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من كبار علماء الهند من بينهم مولانا شاه إسماعيل شهيد حفيد شاه ولي الله محدث الدهلوي (١)، وقد استشهد في ذي القعدة ١٢٤٦ هـ- مايو ١٨٣١ م في معركة بالاكوت، وكان قد قدم للحج أواخر شوال ١٢٣٦ هـ. (مع والدته وأخته) واستمر بأرض الحرمين حتى أواخر شعبان ١٢٣٩ هـ.

وكان برفقه سيد أحمد شهيد، ومنهم أيضاً مولوى عبدالحى الذى اشترك مع شاه إسماعيل فى الجهاد وفى تأليف كتاب صراط مستقيم بالفارسية، وقام بترجمته إلى العربية أثناء الإقامة في مكة المكرمة، ومن الأدباء شاعر الأردية حكيم مؤمن الذى نظم الكثير من الأشعار بالفارسية والأردية عن جهاد سيد أحمد شهيد ورفاقه (مثنوى جهادية)، والأديب محمد جعفر تهناسيرى الذى أرخ لحركة الجهاد.

مكة المكرمة في أدب شبه القارة:

أ. فى النثر الفنى.

ب. فى الشعر.

ج. الرمزية والدلالات الشعرية.

لا شك أن أدباء شبه القارة الهندية عبروا عن مشاعرهم الجياشة، أثناء زيارتهم للأراضى المقدسة، ووجودهم فى المدينة المقدسة حيث بيت الله، ومهبط الوحي ومركز النور الذى أضاء ظلام الجهل، وقد زحرت مادة كتبهم ورحلاتهم بخاصة بالعناصر الأدبية فهى تصاغ بلغة أدبية فى معظمها، ولغتهم فى تناولهم للمدينة المقدسة، لغة رقيقة

ص: ٢٦٩

المستوى عظيم التأثير والإمتاع، على مستوى عال من الفن، والصياغة الأدبية، وكان للحج أثره في التأثير على أدباء شبه القارة الذين كتبوا مئات الكتب عن رحلاتهم إلى المدينة المقدسة وبلاد الحرمين (١) وأسهمت هي الكتب في تطوير الأدب الأردى، وتنمية اللغة الأردية نفسها (٢). ومن الملاحظ أن أسلوب وصف الأحداث حتى لا يخلو من الإبداع الأدبى، عن طريق استخدام اللغة الجميلة المعبرة، وروح الدعابة، فالكاتب مفتاح الدين ظفر يصف منظر رمى الجمرات فى رحلته المسماة «سفر مقدس» (٣) أى الرحلة المقدسة هكذا:

«حين بدأت أرمى بأول جمرة قائلاً: الله أكبر.. إذا بحشد من الناس يدفعنى فيلقى بى فى الخلف.. بعيداً.. ووجدتنى أذهب بعيداً جداً..

فتشجعت.. وتقدمت إلى الأمام، لكن الجمرات كانت تنهمر من عدد كبير من الحجاج، فأصابتنى حصاة كبيرة الحجم، سقطت على رأسى، وبدت الحصىات كنجوم الليل، تراقص أمام عيني، وبينما كنت أرمى بالجمرة الرابعة أو الخامسة إذا بحبشى ضخم الجثة، يضربنى على رأسى بكوعه، وكأنه يدقنى فى الأرض، فتسمرت فى مكانى وأنا أتأوه من الألم...!». والأديب الصحافى الطاف حسين قريشى يصف فى رحلته «ومضت قافلة القلب» تجربته فى حج عام ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م (٤)، وأسلوبه الوصفى فيه إبداع أدبى مؤثر:

١- انظر قائمه أعدها ملحقاً لبحثه الذى قدمه فى ندوة حج العام الماضى عن أدب الرحلة فى شبه القارة الهندية.

٢- سمير نوح، الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى: ١٢١ وما بعدها.

٣- مكتبة رشيدية لاهور سنة ١٩٦٦ م: ١٩٢.

٤- نشرها فى حلقات فى مجلته الأدبية اردو دائجست، يونيو ١٩٦٧ م، وما بعدها.

ص: ٢٧٠

«خلفنا وراءنا مدينة الأمل، ودخلنا في ظل الجبال الوعرة، التي كانت أشعة الشمس الفضيّة الهادئة تنعكس عليها... لا أدري لماذا تخشى الظلمة النور؟! فلو انطلقت شرارة واحدة، ترى الظلمة انقشعت من حولها مضطربة...».

«.. كان في الخيمة عشرون أو أكثر، سلمت عليهم وجلست في ناحية من الخيمة كانت هناك سجادة من النوع الثمين، وكانت الوجوه الوردية تبدو ملامحها وسط الضوء الخافت.. كان هناك حاج يجلس في الجانب الشمالي مستغرقاً في قراءة كتاب. كان عذب الصوت.. وأمامه جلس رجلان يستمعان إليه وينصتان بكل حواسهما، ثم رقدا بالقرب منه، أما بقية الناس فقد انشغلوا بأمور لاهية.. وكانت ضحكاتهم، وقهقهاتهم تسمع من بعيد، كانت في ضحكاتهم قوة الحياة لكنها فتقت جراح روحى وكأنها ضرب سياط مستمر...».

والوصف العادى لمكة المكرمة، يتخذ لونا آخر عند أدباء شبه القارة ففي كتاب الحج والزيارة لمحمد صابر جاء ما يلي:

«حين انبعث صدى الأذان من الحرم الشريف خرج الناس من كل صوب متجهين لأداء الصلاة، فترى الطرقات الواصلة بين البيوت والحرم وقد غصت بالناس، وبدا الجميع أمامك وكأنهم يهرولون.. في مكة لا يشعر الإنسان بذرة من غربة، فالقلب يأنس الحوارى والطرقات، وكأنه سكن هنا منذ سنوات..» (١).

ومن رحلات الحج التي وصل مستواها إلى مستوى أدبي رفيع رحلة سيد أبى الخير كشفى بعنوان «من الوطن إلى الوطن»، وهى كما قال الناقد والباحث أنور سديد (٢)، دعاء

طويل ظل يخرج من أعماق قلب يبحث عن مرهم لمداداة صدمة أصابت الجسد الترايبى، والأسلوب الأدبى يعبر عن مشاعر المؤلف فى الديار المقدسة:

«هذا الطواف حول الكعبة كان سنه إبراهيمي.. كانت حلقة

١- سمير نوح، الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردية: ١٤٣.

٢- أنور سديد، اردو أدب مين سفرنامه: ٥٣٥.

ص: ٢٧١

السلاسل التي تقيدني تتحطم مع كل خطوة أخطوها، وحين كنت متوجهاً إلى حرم الكعبة كان نداء لبيك.. لبيك.. يرن في داخلي، كأنه يعلن عن ميلادي ووجودي، وشعرت كأنني تلميذ جئت لأسجل حضوري هنا...».

النثر الفني الممزوج بالشعر:

في رحلة الأديب الصحافي ماهر القادري (١) بعنوان قافلة الحجاز (٢)،

نلاحظ روعه الأسلوب الأدبي، وقوة النثر الفني و تمازجه بشعر عدد من كبار الشعراء فضلاً عن شعر الأديب نفسه، فماهر القادري شاعر تهتز مشاعره، فينطلق لسانه بالشعر (٣).

يقول مخاطباً قلبه:

«يا قلب! تمالكك.. وتمسك!

نحن مقبلون على مهبط الوحي

فتمالك وتمسك!

يا قلبي الضعيف! افرح واسعد

فرب العالمين يعرف أنك مكوم

تمالك وتمسك

وأنظر سحب الرحمة تلوح في الأفق

ستسقط أمطارها في يوم معلوم

فتمالك وتمسك!

ثم يودع مكة المكرمة فيقول:

«جاء بي إلى الحفل أمنية رؤية الحبيب

ها أنا أترك الحفل

وأحمل بداخلي

أمنية العوده

لرؤية الحبيب».

«... كنت أف.. أتطلع بعيون كلها حسرات إلى أرض الجزيرة العربية، أرض الحرمين الشريفين.. و تذكرت ذنوبي و تقصيري، و تذكرت غفلي و خجلت كثيراً، حاولت في أرض الحرمين أن أستجمع كل مشاعري لكن القلب في هوس يظل يصطنع صوراً في الخفاء.. ورحت أنا المسكين أتذكر قول من ناجوا ربهم «ما عبدناك حق عبادتك» و أحاول أن أجد لنفسى موضعاً بين هؤلاء، لكن هيهات..

الوداع يا أرض جزيرة العرب الطاهرة

ذراتك حافظه للرفعة والرشاد

- ١- كان ينشر مقالاته في مجلة فاران الأردية.
- ٢- طبعت سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م، وأعيد طباعتها سنة ١٣٧٥ هـ. وسنة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م.
- ٣- سمير نوح، الجزيرة في أدب الرحلة الأردى: ٣١٨.

ص: ٢٧٢

الوداع يا أرض الذكر والصلاة

الوداع يا موطن العفو و النجاة

الوداع أيتها الأرض بلا زرع، بلا ماء

الوداع يا جنّة العين والفؤاد

ها قد افترقنا عن جبل بوقبيس وجبل الصفا

الوداع يا غار ثور.. ويا غار حراء

الوداع يا مقام إبراهيم

الوداع أيها المطاف والركن اليماني

والحطيم..

الوداع يا حمام الحمى؛ حمام الحرم

الوداع يا أهل التقوى.. أهل الحرم، أهل الكرم

الوداع يا جوار بيت الله

الوداع يا ملجأ الضعفاء

الوداع يا بئر زمزم

يا سبيل الله للعطشى

الوداع يا ذكرى إسماعيل

الوداع يا أرض الحرم

بارك الله فيك

ففى ترابك للوفاء ضمير

فالوداع.. الوداع

يا أرض الضمير الطاهر..

وهكذا ودع الأديب ماهر القادري الأرض المقدسة وهو يشعر بأنه قد حمل زاداً روحياً ومعنوياً يكفيه طوال حياته فأنشد يقول:

«قال نسيم السحر وهو يمضى من الخميّة:

لا حاجة لنا بزاد الطريق فى الرحلة الطويلة».

أما الأديب النيبالى عبد الرؤوف رحمانى جهندانكرى فكتب عن رحلته للحج عام ١٣٧٨ هـ. كتاباً بعنوان «سفرنامه حجاز»، مزج فيه

أيضاً بين النثر الفني والشعر.

كتب يقول: وذات ليلة نمت فى مكتب المعلم عبدالهادى سكندر، وحين حان وقت صلاة الفجر سمعت صوت رجل سعودى ينادى:

«يا أيها النائب

هذا وقت الغنائم

صلوا الصلاة دائم..»

وكنت كلما نمت فى مكتب المعلم أسمع النداء وقت الفجر، وكأنى أسمع

ص: ٢٧٣

ترجمة أشعار الشيخ فريد الدين شكر كنج (١).

وقت السحر وقت المناجاة

فانهض في هذا الوقت

ففيه تنال البركات

واستمع لنصيحتي

هيهات أن تضيع العمر هباء

هيهات.. هيهات! (٢).

وهذا أديب آخر هو حافظ لدهيانوى (٣) الذى كتب عن رحلته

إلى الحج كتاباً بعنوان «جمال الحرمين» جاء فيه:

«لم تطلع على حياتي شمس أجمل من شمس ذلك اليوم، ولم تمر على لمحّة سعيدة أبداً كتلك اللمحة، لم ولن تسمع أذنّي خيراً أطيب من ذلك الخبر الذى سمعته اليوم، فاليوم حلت بى اللحظة المباركة وكانت قدرى، حين سمعت أن طلبى للذهاب إلى مكة قد ووفق عليه.. كان هذا اليوم السعيد ثمرة دعاء مستمر وأمنية عمرى كلّ ورغبة حياتي» (٤).

وهكذا نجد أنفسنا أمام أديب يختلف فى بيان مشاعره، فهو يركز على وصف المشاعر الإنسانية، كما يمزج وصفه لها بوصفه للطبيعة: «راحت الليالى المقمرة تبارك لنا سعادتنا، والفضاء اللبنى يُسمعنا أصواته العذبة، والوادي كله بدا مملوءاً بذكرى المصطفى، وتحولت جميع الكائنات إلى بقعة من نور وفرشت الطرق كلها بكل ما هو لطيف، وراحت حبات دموع السرور والسعادة تتناثر كالنجوم اللامعات على صفحة الأرض المقدسة وتحول الطريق كله إلى نور حتى صار كدرب التبانة، وشعرنا كأن سفرنا هذا فوق السماء لا على الأرض» (٥).

الرمزية في النثر الفني عند أدباء شبه القارة:

اتبع الأدباء فى شبه القارة أسلوباً رمزياً للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم ومشاعرهم، فى حالات خاصة، وهنا يكتفى الباحث بنموذجين اثنين لأديبين أولهما للدكتور عبدالرحمن خالد (٦) الذى كتب كتاباً بعنوان «حج أعجمى» وهو

١- هو حضرت بابا فريد شكر كنج، توفى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م، عاش فى البنجاب فى عهد الدولة المملوكية الهندية، اشتهرت أقواله وأشعاره فى عموم الهند، وتمثل أشعاره النماذج الأولى للأدب الأردى حين كان يطلق غ/ على الأردية اسم ريخته، وله أشعار بالبنجابية أيضاً، أنظر حامد حسن قادري، داستان تاريخ اردو، اردو اكيديمى سندھ كراتشي، ط الثالثة، ١٩٦٦ م عن الطبعة الأولى ١٩٤١ م.

٢- سمير نوح، الجزيرة العربية: ٦٠٨-٦٠٩.

٣- ولد فى لدهيانه عام ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م، حفظ القرآن وبرع فى قول الشعر متبعاً أسلوب الشعراء الكلاسيكيين: ٤٣٩، الجزيرة العربية

في أدب الرحلة الأردى.

٤- الرحلة: ٤٠.

٥- الرحلة: ٨٩.

٦- اشتغل بالصحافة فى جريدة نداء الأمة التى كانت تصدر من لاهور، ولما تم دمجها بصحيفة نوائى وقت استمر بالعمل الصحفى، ثم انتقل إلى جريدة امروز، وبعدها انضم لهيئة التدريس بقسم الصحافة بجامعة البنجاب، سافر للحج مع والدته سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.

ص: ٢٧٤

يقصد العنوان ومعناه ومغزاه، وقد أشار بين سطور كتابه إلى ما يعانيه المسلم في شبه القارة من بعض الوعاظ والمرشدين، وأشار إلى ذلك بأسلوب رمزي، يفهمه من يقف على مجريات الأمور هناك:

وعلى كل حال دخلنا من باب السلام الذي لا يزال اسمه باب السلام وكأننا خالفنا نصيحة الشيخ لأنه قال بأن اسمه اليوم باب الفتح! «كان الشيخ قد أخافنا كثيراً من أن ينزل علينا غضب الله، لهذا رحت احتاط في كل خطوة أخطوها، أو حركة آتى بها، ثم اقتربت اللحظات المنتظرة، وظهر الحرم الشريف أمام أعيننا، كان علينا أن ندخل من باب السلام الذي يطلق عليه الآن اسماً جديداً هو باب الفتح، كان الشيخ قد نصحن بالدخول من هذا الباب، لكننا أخطأنا أو هي مشيئة الله، الذي أراد لنا ذلك، لأن الأعاجم يردون كل شيء إلى مشيئة الله أو مرضاة الله، ويقولون دائماً هذا قدر من عند الله، بينما يعتبرون كل نجاح لهم ناتج عن فراستهم وجهدهم وتدبيرهم!... ربما كان السبب هو أننا لم نطلع على تعاليم القرآن.. وعلى كل حال دخلنا من باب السلام الذي لا يزال اسمه باب السلام وكأننا خالفنا نصيحة الشيخ لأنه قال بأن اسمه اليوم باب الفتح!

كان الدرس الثاني هو أن ننطلق بالدعاء فوراً إذا ما وقع نظرنا على الكعبة، وأن نفتح أعيننا حتى لا تنغلق رغماً عنا.. وقع نظري على الكعبة، بيت الله... والكعبة أمامي الآن وهذه لحظات سعدى وفرحى إلا أن الوسوسة والقلق أصاباني قبل أن تحين هذه اللحظات السعيدة، فقد نسيت جميع الأدعية التي حفظني إياها الشيخ.. كانت حالتي تختلف عن حالة الطالب الذي حفظ خطبة سيردها في حفل التخرج وحين دق الجرس أدار وجهه ونسى كل شيء وراح يردد فقرة واحدة مرة تلو أخرى لعله يتذكر الفقرة التي تليها.. إن وضعي يختلف تماماً.. أنا لم أته وسط الأدعية، كما أنني لم أتذكر دعاء واحداً، ولا يوجد

ص: ٢٧٥

هنا جرس يدق فينبهني إلى انتهاء الوقت، إن كل انتباهي موجه إلى الكعبة المشرفة لا أتذكر الشيخ ولا الأدعية التي لفتني إياها، ولا أفكر ولا أخشى أن تنغلقي عيناى، ثم أجلس لتضيع منى هذه اللحظة الثمينة الغالية.. وكنت أعجماً!! كانت عيناى مفتوحتين بل وصلت هناك وأمام بيت الله بعينين مفتوحتين، فعيناى هما مترجمى الفورى فمن عيوبنا نحن الأعاجم القصور عن إلباس الألفاظ معانيها، والتعبير عما تحويه هذه الألفاظ عن معان تدور بخلدنا.. وهكذا ستظل عيناى مفتوحتين بأمر الله!!».

وفي مكة يتذكر الكاتب بلاده ويتحدث عنها أيضاً وعن مشاعره رمزاً دون تصريح أو توضيح: «أمام الكعبة أخذت أدعو الله بهذا الدعاء مخاطباً رب الكعبة: يا إلهي مثلما أخافني الشيخ منك فإن حكام بلادى ورجال السياسة والصحفيين فى بلادى جميعهم أخافونى، وأقلقونى على مستقبل بلادى، لم أسمع منهم منذ أن وعيت هذه الحياة خبراً طيباً حتى أصابنى الوهم وأنا أستمع دائماً إلى الأخبار السيئة المشؤمة عن باكستان حتى ابتلتنى هذه الأخبار بالخوف والهلع والدوار.. ورغم كل هذا فلا بأس فى أن نلوذ برحمة الله الواحد القهار، ليس فى قلبى همء ولا توجد فى فؤادى مشاعر الأمل، وربما كان السبب فى ذلك أيضاً أن الشيخ وضع كل همه فى إخافتنا منك يا إلهي.. لكنك يا إلهي رحيم كريم ستار...» (١).

والنموذج الثانى كتاب الأديب ممتاز مفتى الذى توفى منذ سنوات (٢)، وهو يسعى دائماً إلى التعبير عن داخل الإنسان وبيان تأثير المراثيات على مشاعره، ويصور المشاعر بصورة تكاد تكون محسوسة، وهذه سطور يصور فيها مشاعره ومشاعر من حوله فى وقفه يوم عرفة من عام ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م: «فى هذا اليوم.. فى وادى عرفة، لا نشاهد الوادى ولا نشاهد زحام الزائرين.. فقط كل ما هناك خيام فى

١- أنظر النص كاملاً فى الجزيرة العربية: ٦٢٦.

٢- ممتاز مفتى أديب وروائى وصحافى معروف، له مكانته فى الأدب الأردى، توفى منذ عدة سنوات، أنظر من الأدب الباكستانى تفاهم المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ترجمه سمير عبد الحميد، ٢٠٠٢ م.

ص: ٢٧٦

خيام.. كان الزائرون التابعون لفندق الكعكي مقيدون في خيامهم، كان بعضهم يجلس في صمت تحت مظلات مفتوحة، الأصابع تحرك المسابح والشفاه تلهج بالتسبيح والتحميد، وعلى الوجوه سكون ممزوج بالأسى، والأكتاف محنية كأن شيئاً سقط عليها فراح أصحابها يتحملون هذا العبء بصبر وشكر..

كان هدوء الناس وسكونهم هذا مدعاة لقلقى الشديد، فصحيح أنهم كانوا جميعاً منشغلين بذكر الله، لكن الانشغال بذكر الله يكون أيضاً في البيت، وإذا كان التسبيح هو الهدف فهل كان من الضروري أن يقطعوا الأميال ليصلوا إلى ميدان عرفات؟! لا.. لا.. نهضت من هناك، واعترتني رغبة قلبية عارمة في أن أنطلق إلى وادي عرفة، وأن أثير الغبار شأني في ذلك شأن قيس في بادية نجد..

قبل أن أخرج من الخيمة فكرت في أن أخبر رفيقي «قدرت» بأنني ذاهب.. ذاهب إلى أين؟ ذاهب لأى شيء؟ لكنني ذاهب حتى لا يقلق بحثاً عني..

أدخلت رأسي في الخيمة فوجدته والدكتور عاطف غارقين في أداء الصلاة.. حين شاهدت «قدرت» وهو يصلي النفل لم أتأكد من أنه هو «قدرت» بدا لي إنساناً آخر، لم يكن هو كما عهدت أن أراه.. بدا وجهه

ص: ٢٧٧

بالنسبة لى كأنك ضربت على كوب من زجاج فصار قطعاً صغيرة..
فتاتاً.. لكن هذه القطع متماسكة مع بعضها البعض لم تتحطم تماماً.. تحول وجهه إلى فتات متماسك وانحنى كتفاه كأنهما تحطما
ووصلا إلى مستوى الأرض، وامتلاّت كل ذرة من ذرات جسده بالاهتزاز واللجاجة والملامه والاضطراب..
وفكرت أن أتقدم.. لكن كيف؟

كيف أخبر هذا الإنسان الذى لا يدري شيئاً عن نفسه عن حالى؟! وهكذا غادرت خيام فندق الكعكى... وما هى إلا خطوات حتى
وجدت نفسى داخل سوق كان هذا سوق الخيام التى كنا نقيم فيها وهناك محلات لبيع جميع أنواع الأطعمة، و... وانهمك الناس فى
البيع والشراء.. وبدا أنهم فريق ممن يؤدون فريضة الحج بالإضافة إلى أعمال البيت.. فراحوا يكسبون مكاسب دنيوية ودينية فى
عرفات...

هل تكمن فى «الأرزاق» هذه الطاقة الكبيرة حتى إنها شكلت الجو العام هنا؟.. هل يتحول «كسب الأموال» إلى رغبة جامحة لدرجة أن
الحاج جعل من قيام عرفات وسيلة للكسب المادى أيضاً؟.. هل للمادة هذه القوة بحيث لا يستطيع الناس مواجهتها؟ شعرت كأن إبليساً
أقام هذه السوق حتى يشغل الحجاج، ويغرقهم فى دوامة الطعام وكسب الأموال...

خرجت من السوق، فانتهى ما بى من ضيق.. وتراءت لى من بعيد قمة جبل الرحمة، وكأن جيشاً من النمل يعتلى قطعة من السكر، فقد
كان الكثير من الناس قد صعدوا جبل الرحمة..

لا... لن أذهب وسط هذا الزحام، فأنا مريض لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى فى الزحام.. فى ذلك الوقت طرأ على نوع من الجنون لا اسم
له، وبداخلى أخذت أمواج بحر السرور تتلاطم بشدة، كان سروراً ناتجاً عن الإحساس النابع عن وجودى فى عرفات.. كنت أريد أن
أمضى وحدى أتمتع بمشاعر السعادة

ص: ٢٧٨

التي تملكنتى.. أمضى وحدى أنتشى وأطرب، أدق طبول قلوب الزائرين، الذين وصل عددهم إلى سبعمائة ألف زائر لأخرجهم من الخيام المجنونة، ليلقوا بعيداً بمساحهم، وليأتوا هنا، لنمضى معاً على طريق النبي صلى الله عليه وآله، نتلمس خطواته المباركة ونتبع أحكامه التي بلغنا إياها، نطبقها بتمامها وكمالها، وكأنه يراقبنا ونحن نمضى على سنته المباركة ونهجه النبوى القويم» (١).

مكة والحج والشعر فى شبه القارة:

كان لمكة المكرمة والحج أثر كبير على شعراء شبه القارة، فقد نظموا أشعارهم معبرين عن أحاسيسهم تجاه المدينة المقدسة، كما نظم بعضهم رحلة حجه شعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هو استخدام المدينة المقدسة بكل ملامحها وجغرافيتها استخداماً رمزياً فى الشعر الأردى، وهذا ما سنعرض له فى الصفحات التالية لتكون ختام هذا البحث المتواضع.

كان لمكة أثر كبير على قلوب الحجاج الذين قدموا مع سيد أحمد شهيد، فقد نالوا غذاءً روحياً جعل الشاعر الشيخ سيد أبوالحسن وهو أحد من خلفوا سيد أحمد شهيد بعد استشهاديه فى معارك الجهاد ضد السيخ يقول فى قصيدته يصف القافلة العائدة من مكة:

«عادت القافلة إلى داخل البلاد

بعد أن شرفت بأداء حج مبرور

كل فرد فيها ولى عارف

سمح الطلعة على وجهه

بهاء ونور

كل فرد فيها من رجال الله آمر بالمعروف

مجاهد قانع للبدعة

ناصح وناه لمن ينكر الأصول

كل فرد فيها يزبل من القلوب الكفر

كل فرد فيها وحيد أوانه، حافظ للقرآن

عالم، سخي، بهى الطلعة جسور» (٢).

وهناك شاعر مشهور هو حفيظ

١- أنظر النص كاملاً فى الجزيرة العربية: ٦١٧-٦٢٢.

٢- أنظر نماذج أخرى فى سمير عبد الحميد، الأدب الإسلامى: ٣٥١ وما بعدها.

ص: ٢٧٩

جاندهرى الذى نظم شاهنامه الإسلام فى أربعة مجلدات، يصف انقشاع الظلمة فى مكة بظهور نور البعثة المحمدية، بل ويصف ما حدث فى مكة قبل ذلك من وصول الخليل وولادة إسماعيل، وتعمير الكعبة، ويستمر فى عرضه للتاريخ شعراً حتى يصل إلى حملة أبرهه على الكعبة، وينتقل إلى ولادة النبى، والبعثة وغزوات الرسول (١).

كان لمكة المكرمة والحج أثر كبير على شعراء شبه القارة، فقد نظموا أشعارهم معبرين عن أحاسيسهم تجاه المدينة المقدسة، كما نظم بعضهم رحلة حجه شعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هو استخدام المدينة المقدسة بكل ملامحها وجغرافيتها استخداماً رمزياً فى الشعر الأردى

ومن الأدباء الذين نظموا رحلتهم إلى الحج شعراً الأديب خطيب قادر بادشاه، وقد ركز على مشاعره الدينية، ووصف قدومه إلى مكة، ووصوله إلى الكعبة، ووقوفه على عرفات، واستخدم فى شعره بحوراً وقوافى تتناسب مع كل مناسبة:

«نمضى هذه الأيام

صوب الكعبة المشرفة

نلبى دعوة الحق

أين نحن من هذه النعمة العظمى..

ما أسعدنا بحظنا

وما أسعدنا بنصيبنا»

أما الشاعر ضياء الدين القادرى البدايوني فيقول:

«يا إلهى!

ها هو عبدك يودع

بيتك بعد أن حسنت نيتى

أين لى بعد ذلك

طواف الكعبة

أين لى بعد ذلك

رؤية الحرم

أتطلع إلى البيت الحرام

بعيون الفراق

ويعتصرنى الحزن والألم

فقد انتهى العناق

ص: ٢٨٠

كان ذهابي

وكانت عودتي

كلاهما

وقفاً على كرمك

يا إلهي!

أنت مولاي

تفعل ما تشاء!

ومن الرحلات الشعرية رحلة بعنوان «كاروان حرم» أي قافلة الحرم للأديب المعاصر س مسلم عن حجه سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م جاء فيها:

«هنا تلفحت برداء الإحرام كفنًا

هنا مزقت حجاب «الأنا» الخادع

قطعة.. قطعة!

وانطلق من داخلي طوفان العاطفة

النائم..

ورحت أنظم مشاعر الندامة

الفياضة..

فلتسمّها رحلة القلب الشريفة

أو سمّها حكاية النداء

والدعاء في البرية» (١).

مكة والحرم والرمز الشعري

الشاعر محمد إقبال نموذجاً

مكة المكرمة لها مكانة في قلوب الأدباء والشعراء، وكل ذراتها لها في قلوبهم مكان، وهكذا وجدناها في قلب الشاعر ووجدانه، فهو دائماً متجه إليها، وإقبال يناجي ربه قائلاً:

«في ذلك البحر الذي ليس له ساحل

لا يوجد سواك دليلاً للعشاق

لقد أمرتني أن أتجه صوب البطحاء

رغم أنه لا يوجد سواك منزلاً!» (٢).

وهكذا مضى إقبال يذكر مكة والحرم وهو في موطنه، وفي خارج موطنه، حين كان في الأندلس، وحين كان في باريس، وفي لندن وحتى وهو يمضي في البحر بجوار جزيرة صقلية، وهو في فلسطين، وفي أفغانستان وغيرها، وإقبال يذكر أن أركان الأمة الإسلامية التوحيد والرسالة وأن حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً، ومركز الأمة الإسلامية هو الحرم في

-
- ١- لمزيد من النماذج الشعرية، أنظر الجزيرة العربية: ٦٤٣ وما بعدها.
 - ٢- أنظر أرمان حجاز إلى الحق، الرباعية ١١٢، سمير عبد الحميد، المكتبة العلمية، لاهور باكستان.

ص: ٢٨١

مكة المكرمة، واجتماع الأمة الحقيقي لا يكون إلا بقصد، يُقصد إليه، ومقصد الأمة هو حفظ التوحيد ونشره.

وإقبال- مثله مثل شعراء شبه القارة- يستعمل الرمز، فشعراء شبه القارة يستعملون الرمز بكثرة حتى قبل أن تصبح الحركة الرمزية عامة في أوروبا، وإقبال أعطى الرمزية في الأردية والفارسية- وهما اللغتان اللتان نظم بهما دواوينه الشعرية- اتجاهات جديدة وقوة حتى إنه يمكن القول بأن الحركة الرمزية هي من الملامح البارزة الجلية في فن إقبال.

حاول إقبال أن يوجد- بمساعدة رمزيته- خيالاً مرئياً للعالم غير المرئي، ورمزية إقبال لا تعطي شكلاً أو جوهرًا، إلا أن امتزاج الحياة وتفتحها واضح فيها، فهي لا تسمى الأشياء بل تشكل غلافها الجو أو ظلالها، ويكمن جمال رمزية إقبال أساساً في حقيقة أنها تختلف تركيباً عن تلك التي استخدمها الشعراء الآخرون في الأردية أو الفارسية، فالرمزية عند إقبال نراها في:

إبراهيم والنمرود، موسى وفرعون، حسين ويزيد فهذه قصص تراجيدية عرضية للاجتهاد الديني في تاريخ البشرية، لكنها عند إقبال تدل على النضال الأبدي بين الخير والشر.

وبالمثل نجدتها في محمود وأياز فهي تدل- تاريخياً- على العلاقة بين الملك وخادمه، لكنها عند إقبال تدل على العلاقة بين العاصمة وعمالها، وبين الراعي والرعية، وهكذا يستخدم:

كليسا وحرم (أى الكنيسة والحرم) للتعبير عن المسلم وغيره أو دير وحرم وغيرها من تعبيرات رمزية، مثل (پيران حرم) أى شيوخ الحرم، أو (پير حرم) أى شيخ الحرم، وحتى كلمة حرم فهي عند إقبال بمعنى مسجد تارة، وبمعناها المعروف أى الحرم المكي تارة أخرى.

فحين أنشئ مسجد في باريس رأى إقبال أن هذا نوع من المكر والخداع، فالذين أسهموا في بنائه هم الذين خربوا الشام والبلاد الإسلامية الأخرى، وهو يطلق على مسجد

ص: ٢٨٢

باريس كلمة الحرم، و يميزه أولاً بالعنوان الذى وضعه، وهو (بيرسس كى مسجد) أى مسجد باريس، ثم بكلمة المغرب فى النص الشعري يقول فى ديوانه «ضرب الكلیم» بعنوان مسجد باريس:

يا نظرى لا يخذعنك فنه للزور هذا الحرم المغرب

وليس هذا حرماً لكنه عن - د الفرنج للغرام ملعب

قد أخفت الإفرنج روح موثن فى صورة من حرم تكذب

إن الذى شيد هذا موثناً دمشق من عدوانه تخرب (١)

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربيه مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أى راعى الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعنى به النبى صلى الله عليه وآله، ويستخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يستخدم نشاط رحيل أى حركة الاستعداد لمضى القافلة، كما يستخدم أيضاً كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً.

فالمؤمن والمسلم عند إقبال يعنيان الإنسان المثالى، أو الكامل، بينما الكعبة والحرم و (أحياناً الدير) تعنى الهدف، والكعبة أيضاً تعنى تعاليم الإسلام، أما السجود فيعنى الجهد العنيف، والصلاة تعنى الرغبة المحرقة، أما الأذان فيعنى الدعوة إلى الجهاد والعمل (٢).

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربيه مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أى راعى الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعنى به النبى صلى الله عليه وآله، ويستخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يستخدم نشاط رحيل أى حركة الاستعداد لمضى القافلة، كما يستخدم أيضاً كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً.

وقد قلب إقبال معانى الكثير من الألفاظ التى شاعت فى المدرسه الأدبيه الكلاسيكيه واستخدمها

١- عبد الوهاب عزام ترجمه ضرب الكلیم: ٧٤.

٢- أنظر بال جبريل، ترجمه عن الفرنسيه عبدالمعین ملوحى، دار طلاس للنشر، ط أولى ١٩٨٧ م.

ص: ٢٨٣

استخدامات رمزية، وعلى سبيل المثال كلمة خودى الفارسية كانت تعنى الإنطواء، فصار معناها احترام الذات أو الذاتية، وكلمة الفقر استعملها إقبال يرمز بها إلى السيطرة الأخلاقية وهكذا (١).

وقد أثار عدم فهم شعر إقبال وبخاصة ما ترجم منه إلى اللغات المختلفة اختلاف الآراء حوله، فإذا ما تكلم عن الحرم فهم الجميع أنه يقصد الحرم المكي، وإذا ذكر الملا بمعنى الشيخ، أساء البعض فهم قصده، رغم أن إقبالاً كان يرمز إلى الوضع السيء للمسلمين في الهند ومعظم بلدان العالم الإسلامى وإقبال يقصد بالحرم المسجد، ويقصد بـشيخ الحرم أولئك الذين غرقوا في التصوف والدروشة وجمع النذور، وأخذوا يشجعون الناس على ترك العمل والسعى، ويردون كل مصيبة إلى التقدير دون تفكير في اتباع سنة رسول الله وإطاعة أوامر الله وهكذا يقول:

«أيها المسلم سل قلبك، ولا تسأل الملا:

لماذا خلا الحرم من رجال الله؟»

ويقول عن الدراويش المتصوفة:

«نالوا بالوراثه كراسى الأولياء

استولت الغربان على أوكار النصور

شيخ الحرم هو الذى يأكل الثمن سراً

ثمن الأثواب المسروقة،

غطاء أبى ذر، وكساء أويس المرقع

ص: ٢٨٤

ووشاح فاطمة الزهراء».

وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة الشاعر من أحوال المسلمين الذين غفلوا عن أصول دينهم، مستخدماً الرمز في شعره:

«أليس أدهى من نهاية العالم

أن ترى أهل الصين يلبسون ملابس الإحرام

بينما أهل مكة ينامون في البلد الحرام؟»

وإقبال هنا لا يقصد أهل مكة بل يشير بهذا التعبير للمسلمين، وهكذا يقول:

«لقد رأيت «سيد الحرم»

عمله ليس فيه حرارة

وكلامه ليس فيه تفكير»

فسيد الحرم رمز لإمام كل مسجد

والحقيقة أن كمال شعر إقبال - كما يذكر الدكتور يوسف حسين (١) - كان

في رمزيته حيث تكون «الكناية أبلغ من التصريح» فهو لم يتخذ طريق الرمزية الغربية، ولم يتجه في كلامه إلى الغموض والألغاز، ومع

هذا فأدبه لا يمكن أن يفهم منفصلاً عن الحياة أو بعيداً عنها، وكان إقبال يحاول بدوره أن يبين ويشرح بأسلوب بياني جميل الإيماءات

والإشارات، فقد رتبته على أداء مطلبه بالاستعارة والكناية قدرة خارقة، وهو لم يترك الأسلوب الأدبي التقليدي، لكنه بأسلوبه أظهر

نشاط الحياة وحركتها في الأسلوب القديم أو في التراكيب القديمة للغة التي كادت أن تضع من ذاكرة الناس.

ويقول عن الدراويش المتصوفة:

«نالوا بالوراثه كراسى الأولياء

استولت الغربان على أوكار النصور

شيخ الحرم هو الذى يأكل الثمن سراً

ثمن الأثواب المسروقة،

غطاء أبى ذر، وكساء أويس المرقع

ووشاح فاطمة الزهراء».

وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة الشاعر من أحوال المسلمين الذين غفلوا عن أصول دينهم، مستخدماً الرمز في شعره:

«أليس أدهى من نهاية العالم

أن ترى أهل الصين يلبسون ملابس الإحرام

بينما أهل مكة ينامون في البلد الحرام؟»

وبينما يرى الدكتور سيد عبدالواحد أن النزعة العامة في إقبال هي الرمزية، يرى الدكتور يوسف حسين أنها في الرومانسية التي كانت

في الأصل رد فعل للفلسفة العقلية،

ص: ٢٨٥

وأن إقبالاً مثل جوته مزج بين الرومانسية والكلاسيكية، بينما يرى الأستاذ مجتبی مینوی (١) أن إقبالاً من أصحاب الألم الرومانسين، يحرك ويشير الشوق والرغبة في قلوب الآخرين، لكن إقبالاً لم يكن رومانسياً في معانيه، تلك المعاني التي أشاعها كل من هيجل وشوبنهاور ونيتشة وغيرهم من أصحاب المذهب الرومانسي.

لا شك أن إقبالاً استفاد في رمزيته من الأدب العربي مستفيداً من شعر الشعراء ومن القرآن الكريم والحديث النبوي، فرمزيته هذه تجعلك تحس بالقوافل تمضي في الصحراء متجهةً إلى الحرمين، وتشعر بك بقيظ الرمال، وبمناظر النخيل في منازل الطريق، والرمزية واضحة في استخدامه لألفاظ مثل زمزم، وحراء، وكعبة، وحرم، ولات، ومناة، وطواف، وعرفات وغيرها، وقد ابتكر إقبال بعض التراكيب مستخدماً هذه الألفاظ، ليعبر عن أفكاره، واستخرج البعض من القديم المنسي، وجعله في حالة جديدة، وتراكيبه الرمزية هذه تمثل حجر الأساس لقنطرة الإلهام الشعري عنده، فلا يمكن استبدال لفظه بأخرى، لأن هذا سيؤدي إلى انهيار القنطرة، وبعبارة أوضح انهيار التعبير الفني، لأن التعبير بالنسبة للتجربة الشعرية يعتمد على الألفاظ والتراكيب، أو المصطلحات التي تشكل جوهر الفكرة ذاتها.

لا شك أن إقبالاً استفاد في رمزيته من الأدب العربي مستفيداً من شعر الشعراء ومن القرآن الكريم والحديث النبوي، فرمزيته هذه تجعلك تحس بالقوافل تمضي في الصحراء متجهةً إلى الحرمين

فإقبال يخاطب شيخ الحرم أكثر من مرة وفي أكثر من ديوان، يقول في ديوانه بال جبريل حين كان في زيارة لأفغانستان ووقف عام ١٩٣٢ م يقرأ الفاتحة على قبر الحكيم الشاعر سنائي الغزنوي (٢):

١- مجتبی مینوی، إقبال لاهوري، بالفارسية، ط لاهور: ٣٢.

٢- کلیات إقبال: ٣١٥.

ص: ٢٨٦

«فى الشرق وفى الغرب تلمست الحانات
 لأخفف عن قلبى آلام الأشواق
 لكنى فى المشرق لم أظفر بالساقى
 وسلافة أوروبا تنكرها الأذواق
 كم عزت ملتنا فى الدنيا بفقير
 يرتاع له كسرى ويدين له قيصر
 هو للحق سلاح هو للشعب ضمير
 ما عادت تشهده إيران ولا كشغر
 الحرم القدسى به شيخ المحراب
 كعبته الأموال وقبلته الدخلاء
 ويلاه لقد باع لهم دلق أويس
 وبساط أبى ذر وخمار الزهراء
 إسرائيل سكانى للحى القيوم
 ما الحيلة فى شعر نغمته إرعاد
 قد أحدث زلزالاً وأثار الأحرار
 وتحدى بالمحشر من قبل الميعاد
 قال: أنظر وتأمل أحداثاً وخطوباً
 كالمحشر أهوالاً فى دنيا الإسلام
 للبيت المعمور سعت كل الأقطار
 وبمكة أقوام فى البطحاء نيام» (١).

وفى ديوان ضرب الكلیم وبعنوان (ای پیر حرم) أى «يا شيخ الحرم» يرمز لعلماء الإسلام والصوفية المسلمين (٢) يذكروهم بواجبهم الدينى

وهنا يرمز إقبال لمفهوم رسالته بطريقه الخانقاه (الزوايا والتكايا) أو حياة الدعاء والخمول التى جعلت المسلمين يخضعون للاحتلال والعبودية، وجعلتهم يخافون الموت و يرتعدون من تصور الجهاد.

«يا شيخ الحرم!

اترك التقاليد البالية

واترك طريق الخانقاه

وافهم مغزى أغنية أسحارى (افهم رسالتى)

يحفظك الله! احفظ شباب الأمة

علمه درس العزة (أى أطلعه على حقائق الإسلام)

حتى يتمكن من إصلاح عيوبه، ويحفظ ذاتيته.

لقد جعله التعليم الغربى يلهث خلف الدعاء

وخلف الراحة، بل جعله مثل المرأة

١- ترجمة الصاوي شعلان: ١٩٢ في أيوان إقبال، ط القاهرة اللجنة الباكستانية المصرية ١٩٧٧ م، وأنظر ترجمة عبدالمعين ملوحى عن الفرنسية: ١٠٢.

٢- پروفیسور سلیم جشتی، شرح ضرب کلیم، ط لاهور: ١٧٣.

ص: ٢٨٧

تطالع طول الوقت في المرأة للترين
 فعليك يا شيخ الحرم أن توجد فيه صفات الرجولة
 وأن تجعله يميل إلى العمل والجد والاجتهاد.
 لأن شبابنا ابتلى بالاحتلال منذ قرنين من الزمان
 لهذا صاروا مكسوري خاطر أذلاء
 فعالجوهم بالقرآن والحديث
 أسمعوهم أوامر الله ورسالة نبيه
 أخبروهم بأنهم إن نصروا الله نصرهم الله.
 لقد تأثرت بعاطفة محبة الأمة
 فأوضحت مكانتكم ومقامكم،
 فقابلوا عاطفتي هذه بجميل من عندكم
 واخرجوا من جحوركم، إلى ميدان العمل».

وهكذا يتضح من هذه الأشعار أن إقبالاً كان يقصد بشيخ الحرم علماء الإسلام والصوفية، وبخاصة علماء الهند ومتصوفة الهند، فهو
 يصرح قائلاً، بأن الاحتلال يجثم على صدورهم منذ قرنين، وهناك من ظهر يدعو لإبطال الجهاد والخضوع للذل، ولهذا خاطبهم إقبال
 بالأبيات السابقة.

لقد وهب الله إقبالاً قوى تخيليه سواء في ابتداع المعاني أو الخواطر، فالخيال عنده متنوع مما يخدم في تقوية التأثير العاطفي، والخيال
 التفسيري مثلاً عند إقبال نابع من أن الشاعر يدرك القيمة أو المغزى الروحي فيقدم موضوعه عن طريق صفات تكمن فيها القيمة
 الروحية، فشعره الذي يتضمن كلمة الحجاز وزمزم يلقي بظلال أخرى في ذهن القارئ فالحجاز أو زمزم تثير في الإنسان الأحاسيس
 التي تجعله يستخرج الشحنة الإيمانية التي تمتزج مع وصف إقبال بعالم الدين الذي لا يفيد الأمة، ولنقرأ هذا الشعر الرمزي بتشبيحاته
 الجميلة:

«إن عالم الدين هذا لا يحمل همًّا

عينه بصيرة لكنها جافة لا تدمع

لقد زهدت في صحبته

لأنه عالم ولا هم

ص: ٢٨٨

وأرض مقدسة ليس بها زمزم» (١).

إن النماذج الشعرية في دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففي دواوينه الأردية مثلاً استخدم الحرم في أكثر من ٤٥ موضعاً، والكعبة في أكثر من ١٥ موضعاً، والحجاز في أكثر من ٢٥ موضعاً، وفي دواوينه الفارسية استخدم الحرم في أكثر من ٦٩ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الله في موضعين، واستخدم الكعبة في أكثر من ٢٩ موضعاً.

ثم استخدم إقبال أيضاً زمزم مرة أخرى، يقول في ديوانه (بانك درا) أي صليل الجرس كلاماً يقول عنه البروفيسور سليم جشتي - شارح دواوين إقبال - إن إقبالاً يتندر على الحجاج الذين يعودون من الحج وقد حملوا معهم فقط ماء زمزم وتمر الحجاز، بينما كان يجب عليهم أن يعودوا حاملين هدية التقوى والطهر، وكان يجب عليهم بعد عودتهم أن يعيشوا حياة تجعل قلوب الآخرين بعد رؤيته هؤلاء العائدين من الحج تشعر بعظمة الإسلام.

وهذا شعر من ديوان (بانك درا) من مقطوعة بعنوان (شمع اور شاعر) (٢) منها:

إن النماذج الشعرية في دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففي دواوينه الأردية مثلاً استخدم الحرم في أكثر من ٤٥ موضعاً، والكعبة في أكثر من ١٥ موضعاً، والحجاز في أكثر من ٢٥ موضعاً، وفي دواوينه الفارسية استخدم الحرم في أكثر من ٦٩ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الله في موضعين، واستخدم الكعبة في أكثر من ٢٩ موضعاً.

«اسم الكعبة على لسانك

لكن في قلبك رغبة في بيت الأصنام (لندن)

أنا لا أرى في عاطفة الحب (الشوق) لديك أي معقولة

إذا لا يوجد في قلبك رغبة في الرقي

١- سمير عبد الحميد، بحث بعنوان إقبال والعرب، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٥، محرم ١٤١٢ هـ: ٣٧٤.

٢- أنظر كليات إقبال: ١٨٣، وسليم جشتي، الشرح: ٣٥٠.

ص: ٢٨٩

(هنا الشمع تخاطب قادة الأمة)

وقلبك خال من عاطفة حب الرسول

فكيف يمكن أن يظهر في الأمة قيس؟!

(أى عاشقون أو فراشات)

أيها المسلم أيها اللؤلؤ المتلألئ

يا من تربيت في حضن الإسلام

كم هو مؤسف أن يخلو قلبك تماماً من عشق الرسول

يا إقبال! قومك نيام!

روضتك خربت!

من يسمع الآن نداءك أغنيتك

فلا محل لها الآن (أى أنها غير مناسبة)

ورسالتك لا معنى لها رسالتك بلا عنوان (١).

وفي ديوان الأسرار والرموز - وهو بالفارسية - صور جميلة استخدم فيها إقبال الرمز كثيراً منها:

«كم يريك العشق من صهبائه فترى التقليد من أسمائه

أحكم العشق بتقليد الحبيب لتنال القرب من رب مجيب

في حراء القلب فاقعد خالياً وإلى الحق فهاجر راضياً».

والشاعر يقصد بالتقليد تقليد الرسول صلى الله عليه وآله واتباع سنته المباركة (٢).

وفي نفس الديوان يخاطب إقبال المسلم ويشير إليه بالغزال، نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد، أى خرج عن

تعاليم الإسلام، ويرى أن الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسننه، ولا ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها فإذا

تفرق الورق ففيت، ونحن مسلمون، ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا، ويقصد بالدمى (جمع دمية) الإنجليز وما

عندهم من مال ومناصب (٣).

وفي قصيدة مهداة إلى الأمة الإسلامية، وهي القصيدة الأولى في ديوانه نفي الذات (بالفارسية) يقول:

«ختم الله إليك الأمما بك حقاً كل بدء ختماً

كم تقى فيك كالرسل منيب وجريح القلب رفاء القلوب

١- سليم جشتي: ٣٥٦.

٢- ترجمة عزام: ٢٢، ط المكتبة العلمية، تحقيق سمير عبد الحميد.

٣- المصدر نفسه: ٦٢.

ص: ۲۹۰

لك طرف بالنصارى سحراً وعن الكعبة أبعدت السرى»

ويقصد أهل أوروبا الذين سيطروا على الهند وغيرها (۱).

وبالفارسية أيضاً، لكن فى ديوانه الأخير أرمغان حجاز أى هدية الحجاز يقول إقبال:

«ليس الحرم سوى قبلة القلب والنظر

وطوفه ليس طواف السطح والباب

فبيننا وبين بيت الله سر

لا يعرفه أيضاً جبريل الأمين»

وإقبال هنا يقصد أن الإيمان ليس بالحركات الظاهرة إنما هو أيضاً شىء داخلى ذاتى.

وفى قصيدة لإقبال بعنوان (طلوع إسلام) يخاطب فيها فتى الإسلام ويرمز إليه بطائر الحرم فيقول وما أجمل قوله:

«أعد يا طائر الحرم المفدى نشيد الحب للأقوام طراً

وحلق فى فضاء الكون واجعل جناحك من غبار اللون حراً» (۲).

ولا ينسى إقبال الحديث عن غار حراء: يقول فى ديوانه (جاويدنامه) بالفارسية:

مدة فى الغار ظل المصطفى غير آثار لذات ما اقتفى

وعودة إلى الحرم، والحرم هنا بمعنى مكة، يقول إقبال فى ديوانه (بال جبريل) أى جناح جبريل:

«فى اللهب العربى ألحان فارس

سر الحرم (أى مكة) وحده الشعوب

فكرة الوجدانية غائبة عن فكر الغرب

ذلك أن حضارة أوروبا ليس لها حرم»

ومكة عنده لها مكانة فهى رمز للإسلام وتعاليمه جملة وتفصيلاً، ولهذا كتب نظماً نختم به هذه النماذج بعنوان (مكة اور جنيوا) «مكة

وجنيف» جاء فيه إشارة إلى الحكمة القرآنية والحكمة الغربية أو حكمة الفرنج، ليقدم للعالم وجهة نظر الإسلام فيقول:

فى هذا العصر رغم أن أفراد الأمم المختلفة صاروا يتلاقون

۱- المصدر نفسه: ۷۷.

۲- الصاوى شعلان، أيوان إقبال: ۱۰۸.

ص: ٢٩١

ويتجمعون أكثر من ذي قبل، لكن رغم هذا لم يمكن لهذا الأمر أن يحقق الوحدة الإنسانية، (فلا تزال وحدة البشر خافية عن الأنظار).
 انتبهوا! إن هدف الحكمة الغربية (الإفرنجية) هو (إقامة عالم يضم أمماً متفرقة) وإشاعة الفرقة بين الأمم والإبقاء على هذه الفرقة عن طريق تقسيم الأمم إلى شعوب متقدمة وأخرى نامية.
 وعلى العكس من هذا، فإن هدف الحكمة الإسلامية هو القضاء على جميع أوجه الاختلاف بين الأمم وإقامة مجتمع الأخوة الإنسانية، فكل البشر من أب واحد ولهذا فهم سواسية (هدف الإسلام إقامة أمّة آدم).
 فتعاليم الإسلام تعني أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بمعيار واحد هو التقوى، ولهذا فقد بلغت مكة المكرمة أى الإسلام هذه الرسالة إلى جنيف أى أمم الغرب، والرسالة هي أن جمعية آدم أفضل كثيراً من جمعية الأمم..
 يريد إقبال أن يقول: فإن أردتم حقاً خير البشرية، خير بنى آدم فأسسوا بدلاً من جمعية الأمم جمعية آدم، أى حاولوا أن تقضوا على جميع الامتيازات التي وضعت للتفريق بين البشر وبين الشعوب وبين الأمم المختلفة، وأقيموا المساواة في العالم، وهو ما يضمن الأمن والأمان وفلاح البشرية وسعادتها، وإقبال هنا يشير إلى عصبه الأمم التي تم تأسيسها بعد الحرب العالمية الأولى، فالهدف يبدو طيباً في الظاهر، لكن الهدف الأصلي كان استبعاد الأمم الضعيفة والسيطرة عليها، وقد عبر إقبال عن هذا أصدق

ص: ٢٩٢

تعبير حين قال عام ١٩٣٣ م:

«لا أعلم عن هذه العصبه الأممية

سوى أنهم جماعة من لصوص القبور

أقاموا جمعية لتقسيم القبور».

وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبه الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام في العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذي يقوم عليه أمن العالم (١).

هكذا عبر الشاعر عن تجاربه الداخلية، وأوضح عن مكونات نفسه عن طريق الرمز والكناية، وفي حالة الوجد الأدبي يكون الرمز والكناية أبلغ ما يمكن لبيان التسلسل المنطقي لأفكار أديب فيلسوف مثل محمد إقبال.

«لا أعلم عن هذه العصبه الأممية

سوى أنهم جماعة من لصوص القبور

أقاموا جمعية لتقسيم القبور».

وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبه الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام في العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذي يقوم عليه أمن العالم

الهوامش:

١- أنظر كليات إقبال، ضرب كلم: ٥٢٠-٥٩١.

ص: ٢٩٧

معجم ما كتب في الحجّ و الزيارة (١٦)

٢٧٥٣- نداءات الإمام الخميني إلى حجاج بيت الله الحرام

طهران: وزارة الإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٣٦٠ ش.

٢٧٥٤- نداءات الباعة في مكة المكرمة

عبد العزيز الرفاعي

المنهل (جدة) مج ٤١: ج ٢-٣ (٣/ ١٤٠٠ هـ / ١٢ - ١ / ٧٩ - ١٩٨٠ م) ص ١٦٩ - ١٧٠.

ج ٤-٥ (٤-٥ / ١٤٠٠ هـ / ٤-٥ / ١٩٨٠ م) ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

٢٧٥٥- ندوة الحج المبرور

عبد الملك سيد

التصوف الإسلامي (القاهرة) س ١٢:

ع ٦ (٦/ ١٩٩٠ م) ص ٣٤ - ٣٩.

٢٧٥٦- نزهاء الأبصار في عدم صحة نسب الخمسة البيوت المنسوبين إلى الأنصار

عبد الرحمن الأنصاري (١١٩٥ هـ)

ظ: تحفة المحبين والأصحاب ١٠٥.

٢٧٥٧- النزهاء الثمينة في أخبار المدينة

محب الدين البغدادي

خ: جتربتي

ظ: المورد مج ٤: ع ١، ص ٢٢٤،

العرب. س ٣١: ج ٧، ٨ (١، ٢ / ١٤١٧ هـ) ص ٤٧١.

ص: ٢٩٨

٢٧٥٨- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس: مع الموسوى المكي في رحلته

حمد الجاسر

الفيصل (الرياض) ع ٢٢٣ (١/ ١٤١٦ هـ - ٦/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧، ع ٢٢٤ (٢/ ١٤١٦ هـ - ٧/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧، ع ٢٢٥ (٣/ ١٤١٦ هـ - ٨/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧، ع ٢٢٦ (٤/ ١٤١٦ هـ - ٩/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧، ع ٢٢٧ (٥/ ١٤١٦ هـ - ١٠/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧، ع ٢٢٨ (٦/ ١٤١٦ هـ - ١١/ ١٩٩٥ م)

ص ٣٥-٣٧.

٢٧٥٩- نزهة ذوى الأحلام بأخبار الخطباء والأئمة وقضاء بلد الله الحرام

عبد العزيز بن فهد

ظ:

فهرس الفهارس والاثبات ٧٥٥.

٢٧٦٠- نزهة الكرام فى مدح طيبة والبلد الحرام

شعبان بن محمد قرشى الآثارى ت ٨٢٨ هـ

ظ:

كشف الظنون ١٩٤٦،

معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٧.

٢٧٦١- نزهة الناظرين فى تاريخ مسجد سيد الأولين والآخرين

جعفر بن إسماعيل المدنى ت ١٣١٧ هـ، فرغ منه سنة ١٢٨٧ هـ

مكة المكرمة: ١٣٠٣ هـ.

القاهرة: مطبعة الجمالية، ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م، ١٢٠ ص

بيروت: دار صعب، ١٩٧٥ م، ١٢٤ ص.

٢٧٦٢- نزهة الورى فى أخبار أم القرى

ابن النجار محمد بن محمود ت ٦٤٣ هـ

ظ:

كشف الظنون ١٩٥٠،

معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ١٩.

٢٧٦٣- نسب الأنصار

أبو محمد القداح الأنصارى، كان حياً سنة ٢٣٥ هـ

ص: ٢٩٩

ظ:

العرب. س ٣١: ج ٧، ٨ (١، ٢ / ١٤١٧ هـ) ص ٤٧١.

٢٧٦٤- نسب حرب، قبيلة حرب (أنسابها، فروعها، تاريخها وديارها)

عاتق بن غيث البلادي

مكة المكرمة: دار مكة، ط ٣، ١٤٠٤ هـ، ٣٨٣ ص، ٢٤ سم.

٢٧٦٥- نسب قريش

مصعب بن عبد الله الزبيري ١٥٦-٢٣٦ هـ، نشره نشره نقدية: ليفي بروفنسال

القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٣ م، ١٠٢ + ٤٧٥ + ١١ ص (ذخائر العرب، ١١).

القاهرة: ط ٢، ١٩٧٦ م.

مجلة: مجمع اللغة العربية بدمشق: مج ٢٩ (١٩٥٤ م) ص ٥٩٣-٦٠٣ (عز الدين التنوخي)

المورد: مج ١: ع ١ (١٩٨١ م) ص ٣١.

(ليفى بروفنسال)

٢٧٦٦- نسب قريش

هشام بن محمد الكلبي ت ٢٠٤ هـ

ظ:

الفهرست لابن النديم ١١٠،

معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه و آله ٤٨.

٢٧٦٧- نسب قريش وأخبارها

على بن محمد المدائني ت ٢٢٥ هـ

ظ:

الفهرست لابن النديم ١١٤.

معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه و آله ٤٨.

٢٧٦٨- نسبة الأعمال وخلاصة الأفعال في تاريخ مكة والمدينة

سعد الدين الاسفرائيني ت ٥٨١ هـ

خ:

خزانة الحرم المكي / ٢.

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠- ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٨.

٢٧٦٩- نشأة الحياة العلمية في الحجاز

عبد الجبار الرفاعي

مقات الحج. س ٣: ع ٦ (١٤١٧ هـ) ص ١٢٣-١٦٧.

٢٧٧٠- نشأة المدينة المنورة وقيام المساجد فيها

محمد محمود الغريب

ص: ٣٠٠

المنهل (جدة) مج: ٣٦ ج ٨ (١٩٧٥ / ٨) م) ص ٥٦٩ - ٥٧٢.

٢٧٧١- نشاط الحركة الدينيّة في الحجاز

عبد الله خياط

المنهل (جدة) مج: ١٤ ج ٢ (١٣٧٣ / ٢) ١٠ - ١١ / ١١ (١٩٥٣ م) ص ١٥٤ - ١٥٩، ج ٦ (١٣٧٤ / ٦) ٢ / ٢ (١٩٥٤ م) ص ٣٩٠ - ٣٩٦.

٢٧٧٢- نشان كعبه، ره آورد حج

(بالفارسيّة)

م. قندهاری

١٣٥٦ ش، ٢٣٣ ص، مصور.

٢٧٧٣- نشر ألوية التشريف بالإعلام والتعريف بمن له ولاية عمارة ما سقط من البيت الحرام

محمد علي المعروف بابن علان المكي.

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ - ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٧٧٤- نشر الأنفاس في فضائل زمزم وسقاية العباس

خليفة بن أبي الفرج الزمزمي ت ١٠٦ هـ

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ - ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٧٧٥- نشر النور والزهر في تراجم أفاضل أهل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر

أو الدرّ المكنون (الميمون) في تراجم أهل الخمسة قرون

عبد الله بن أحمد بن ميرداد ١٣٤٣ هـ (خطيب المسجد الحرام)

خ: الدهلوي بخزانة الحرم المكي، في مجلد ضخمة.

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ - ١١ / ١٩٨٩ م) ص ١٩٦ وص ٢٠٨.

٢٧٧٦- نشستى با رئيس سازمان حج وزيارت

(بالفارسيّة)

ميقات حج: ع ٢٤ (تابستان ١٣٧٧ ش) ص ١٣٢ - ١٤٠.

٢٧٧٧- النصارى في مكة قبيل الهجرة

هنري لامنس

ص: ٣٠١

المشرق مج ٣٥ (١٩٣٧ م) ص ٦٩-٩٦، ص ٢٦٤-٢٨٦.

٢٧٧٨- نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق إلى البيت الحرام
عبد الله محمد بن غالب أحمد المكناسي الشهير بابن الكاك ت ٨٠٧ هـ
ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠-١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٨.
٢٧٧٩- نصوص من كتاب أخبار المدينة لأبي زيد عمر بن شبة النميري البصري
عبد الحفيظ قارى

العرب مج ٣: ج ٨ (ربيع الأول ١٣٨٩ هـ) ص ٧٥٤-٧٥٩.
٢٧٨٠- نصيحة لحجاج بيت الله الحرام ومن يطلع عليها من المسلمين
(مكة المكرمة)

عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرابطه س ٢٨: ع ٣٠٥ (٧ / ١٩٩٠) ص ٦-١٠.
٢٧٨١- نصيحة المشاور وتعزية المجاور
(يشتمل على تراجم جماعة من أهل المدينة)
بدر الدين عبد الله بن محمد بن فرحون (٦٩١-٧٦٩ هـ)
خ: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
تحقيق: بنيدر مقبل الحيسوني لنيل درجة الدكتوراه
ظ:

العرب. س ٣١: ج ٧، ٨ (١، ٢ / ١٤١٧ هـ) ص ٤٧٢.
٢٧٨٢- النصيحة الواجبة القبول في بيان موضع منبر الرسول صلى الله عليه وآله
السمهودى ت ٩١١ هـ
ظ:

وفاء الوفا ١٧٤، رسائل في تاريخ المدينة ٣٦، معجم ما أُلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٧، ١٧٤.
٢٧٨٣- النظام الاجتماعى عند العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام
جليله تاجى الهاشمى.
المجلة التاريخية (القاهرة) ع ١ (آب ١٩٧٠ م) ص ٢١٦-٢٢٤.

ص: ٣٠٢

٢٧٨٤- نظام جديد للمطوفين في البيت الحرام

محمد طنطاوى

العربى (الكويت) ع ٨٤ (١١ / ١٩٦٥ م) ص ٣١.

٢٧٨٥- نظرات في العروبة والحج وفي مستقبل هذه البلاد

محمد إسحق الحسينى

المنهل (جدة) مج ١١: ج ٩- ١٠ (١١- ١٢ / ١٣٧٠ هـ / ٨- ٩ / ١٩٥١ م) ص ٣٦٧- ٣٦٩.

٢٧٨٦- نظرة بعض الرحالة المسلمين وبعض الرحالة الغربيين عند زيارتهم لمنطقة الحجاز

حسين أمين

دراسات تاريخ الجزيرة العربية: ج ١ (١٩٧٩ م) ص ٣٨٥- ٤٠٢.

٢٧٨٧- نظرة على تاريخ مدينة جدة

إبراهيم الشريفى

المنهل (جدة) مج ٢٤: ج ١١ (١١ / ١٣٨٣ هـ / ٣- ٤ / ١٩٦٤ م) ص ٦٧٣.

٢٧٨٨- نظرى به مساله اقامت غير مسلمان در حجاز

(بالفارسية)

يعقوب جعفرى

تحقيقات اسلامى س ٥: ع ١، ٢ (١٣٦٩ ش) ص ١١٤- ١٢٢.

٢٧٨٩- نظم تاريخ مكة للأزرقى

عبدالملك المصرى الشافعى الأرمنى ت ٦٣٢ هـ

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠- ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٧٩٠- نظم الدرر فى اختصار نشر النور والزهر فى تراجم علماء مكة وأفاضلها من القرن العاشر الى الرابع عشر.

عبدالله بن محمد غازى الهندى.

خ:

مكتبة نصيف بجدة.

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠- ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٨.

٢٧٩١- نعم وُلِدَ صلى الله عليه و آله فى مكة المكرمة

العرب س ٢٠: ص ٥٧٧.

٢٧٩٢- نغمات الرضا والقبول فى زيارة المدينة وسيدنا الرسول صلى الله عليه و آله

أحمد الحضراوى المكي ت ١٣٣٦ هـ.

ص: ۳۰۳

ظ: معجم المؤلفين ۶۴/۲، المدينة المنورة في التاريخ ۲۰۹.

۲۷۹۳- نفح العود في أيام الشريف حمود (وهو في تاريخ مكة)

عبدالرحمن بن أحمد البهكلي الصمدی القاضي المولود سنة ۱۱۸۰ هـ.

ظ:

إيضاح المكنون للبغدادی ۶۶۷/۲.

۲۷۹۴- النفح الفرجي في الفتح الجته جي لعبدالله باشا (في رحلات الحج)

جعفر بن حسن البرزنجی

العرب. س ۱۲: ع ۵-۶ (۱۱، ۱۲/۱۳۹۷ هـ / ۱۱، ۱۲/۱۹۷۷ م) ص ۳۵۳-۳۹۶

(حمد الجاسر).

۲۷۹۵- نفحات الرضا والقبول في فضائل المدينة وزیارة الرسول صلى الله عليه و آله

أحمد بن محمد بن أحمد الخضراوی ت ۱۳۲۷ هـ

مكة المكرمة: المطبعة الميرية، ۱۳۱۴ هـ، ۹۶ ص، ۲۸ سم (على هامش: العقد الثمين في فضل البلد الأمين).

ظ:

إيضاح المكنون ۶۶۴/۲، معجم المطبوعات لسركيس ۸۲۵.

۲۷۹۶- النفحة المسكية في الرحلة المكية

أبوالبركات عبد الله بن حسين البغدادی

الدارة س ۱: ع ۲ (۹/۱۹۸۴ م) ص ۸۸-۹۶ (عرض: فاضل عباس الغراوی).

۲۷۹۷- النفط في حصار مكة

العرب س ۱۸: ص ۱۱۲۶.

۲۷۹۸- نفوذ اسلام در يثرب

(بالفارسيه)

رسول جعفریان

مقات حج س ۲: ع ۶ (زمستان ۱۳۷۳ ش)، ص ۹۱-۱۱۰، ع ۷ (بهار ۱۳۷۳ ش) ص ۱۱۴-۱۲۵.

۲۷۹۹- نقد كتاب محمد صلى الله عليه و آله در مكة و مدينه- نقد و بررسی كتاب «محمد في مكة» و «محمد في المدينة»

Montgomery Watt

تعريب: شعبان برکات

(بالفارسيه)

نقد: محمد ثقفی

کيهان انديشه ع ۴۷ (فروردین- اردیبهشت ۱۳۷۲ ش)، ص ۱۴۴-۱۵۰.

ص: ۳۰۴

۲۸۰۰- نقد معاجم الأمکنة بجزیره العرب

حمد الجاسر

المنهل (جدة) مج ۶: ج ۱ (۱/ ۱۳۶۵ هـ / ۱۲/ ۱۹۴۵ م) ص ۱۵- ۱۹.

ج ۲ (۲/ ۱۳۶۵ هـ / ۱/ ۱۹۴۶ م) ص ۶۹- ۷۳.

۲۸۰۱- نقش ایرانیان در حرمین شریفین

(بالفارسیه)

محمد جواد طبسی

میقات حج. س ۴: ع ۱۱ (بهار ۱۳۷۴ ش) ص ۱۰۶- ۱۲۴.

۲۸۰۲- نقش حج در تحولات دینی غرب آفریقا

(بالفارسیه)

محمد علی سلطانی

میقات حج. س ۳: ع ۱۰ (زمستان ۱۳۷۳ ش) ص ۵۰- ۶۰.

۲۸۰۳- نقشان تذکاریان بمسجد الإجابة بمكة

هشام عجیمی

عالم المخطوطات والنوادر (الریاض) ع ۱ (۱۴۱۷ هـ).

۲۸۰۴- نقشه راهنمای مکه مکرمه و مدینه منوره

(بالفارسیه)

إعداد: گیتا شناسی

مؤسسة جغرافیایی و کارتوگرافی سحاب، ط ۱، ۱۳۶۵ ش.

۲۸۰۵- نقشه کعبه: نقش کعبه

(فی تحديد الأركان والمحارِب للکعبه، بالفارسیه)

مجهول المؤلف

ظ:

مجلس ۱۰/ ۱۳۸۲، فهرستواره منزوی ۱/ ۲۵۸.

۲۸۰۶- النقوش والآثار فی صخور الحجاز

أحمد شطا

وضعه: عثمان رفقی رستم

ترجمة: السيد أحمد شطا

المنهل (جدة) مج ۱۱: ج ۳ (۳/ ۱۳۷۰ ش / ۱۲- ۱/ ۱۹۵۰- ۱۹۵۱ م) ص ۱- ۱۶.

۲۸۰۷- نکاتی در رابطه با سفر حج

(بالفارسیه)

محمد صادق نجمی

ص: ۳۰۵

قم: ط ۱، ۱۳۶۵ ش.

۲۸۰۸- نگاهى بر آثار اسلامى حرمين شريفين

(بالفارسيه)

اصغر قائدان

پيام انقلاب س ۱۴: ع ۳۰۷ (تير ۱۳۷۲ ش)، ص ۱۴-۱۶، س ۱۴: ع ۳۰۸ (تير ۱۳۷۲ ش) ص ۱۴-۱۶.

۲۸۰۹- نگاهى به اسرار حج

(بالفارسيه)

وهبه الزحيلي

ترجمه و تحقيق: محمد تقى رهبر

ميقات حج. س ۳: ع ۱۰ (زمستان ۱۳۷۳ ش) ص ۱۹-۳۶.

۲۸۱۰- نگاهى به چند كتاب: الحج فى القرآن، حج الأنبياء والأئمة، الحج فى السنة

(بالفارسيه)

محمد على مهدوى راد

ميقات حج: ع ۱۸ (زمستان ۱۳۷۵ ش) ص ۱۷۶-۱۸۴.

۲۸۱۱- نگاهى به حكمت پاره‌اى از مناسك حج

(بالفارسيه)

محمد باقر حجتى

فى كتاب المؤلف:

چهارده مقاله و گفتار، ص ۲۳۷-۲۵۷

طهران: پيام قرآن، ط ۱، ۱۳۶۱ ش (كليات قرآن شناسى، ۴).

ميقات حج س ۲، ع ۲ (تابستان ۱۳۷۲ ش) ص ۱۵-۳۸.

۲۸۱۲- نگاهى به وجوب عمره همراه با حج افراد و قران و ...

(بالفارسيه)

محمد رحمانى

ميقات حج: ع ۲۲ (زمستان ۱۳۷۶ ش) ص ۵۰-۶۴.

۲۸۱۳- نگرشى اجتماعى به كعبه و حج

(بالفارسيه)

محمد حسين كشكوئيه

طهران: أمير كبير، ط ۱، ۱۳۷۲ ش، ۳۲۴ ص، ۲۱ سم.

۲۸۱۴- نگرشى بر اسرار معنوى حج

(بالفارسيه)

محمد تقى رهبر

میقات حج: ع ۱۳ (پاییز ۱۳۷۴ ش)

ص: ٣٠٦

ص ٣٩ - ٥٠.

٢٨١٥- نگرشی بر عرفات

(بالفارسیه)

محمد أمين پور امينى

مىقات حج. س ٣: ع ١٢ (تابستان ١٣٧٤ ش) ص ١٦٤ - ١٧٣.

٢٨١٦- نگرشی به بعد تبليغى در آينه حج

(بالفارسیه)

أحمد بهشتى

مىقات حج س ٢: ع ٤ (زمستان ١٣٧٢ ش) ص ٢٩ - ٤٣.

٢٨١٧- نگرشی تازه به رمى جمرات

(بالفارسیه)

مهدى مهرىزى

مىقات حج: ع ٢٦ (زمستان ١٣٧٧ ش) ص ٤٤ - ٥٥.

٢٨١٨- نگرشی کوتاه به تبیین «حج»

(بالفارسیه)

محمد جواد حجتى کرمانى

مسجد س ١: ع ٣ (خرداد ١٣٧١ ش) ص ١٣ - ١٧

(مىقات حج س ١: ع ١ (پائيز ١٣٧١ ش) ص ١٠٨ - ١١٩، ع ٥ (شهریور، مهر ١٣٧١ ش) ص ٣٣ - ٣٩.

٢٨١٩- نگرشی نو به مىقات

(بالفارسیه)

محمد فاضل لنكرانى

ترجمه: معینى زاده

مىقات حج س ٢: ع ٤ (تابستان ١٣٧٢ ش) ص ٧٥ - ٨٤.

٢٨٢٠- نمى از یم سفرنامه حج

(بالفارسیه)

محمد تقى فرجى

طهران: ط ١، ١٣٧٢ ش، ٤٢ ص.

٢٨٢١- نهج البيان فى مناسك النسوان

أبو الفتح محمد بن عثمان الكراچكى ت ٤٤٩ هـ

ظ:

الذريعة ٢٢ / ٢٧٦، ٢٤ / ٤١٥.

٢٨٢٢- نهج الحجج فى مناسك الحاج

باقر بن إسماعيل الواعظ الكجوري ت ١٣١٣ هـ

ظ:

الذريعة ٢٤ / ٤١٥.

ص: ٣٠٧

٢٨٢٣- نهج المسالك إلى معرفة المناسك

سليمان بن الحسن... تلميذ الشيخ الطوسي وصاحب «إصباح الشيعة»
ظ:

هدية العارفين ١/ ٣٩٧، الذريعة ٢٢/ ٢٧٦، ٢٤/ ٤٢٤.

٢٨٢٤- نواب الرسول على المدينة

عبدالرزاق أسود

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ٥١ (١٣٩٢ هـ) ص ١٦- ١٨.

٢٨٢٥- نواب الرسول على المدينة

مكي حسين الكبيسي

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ٥٦ و ٥٧ (١٣٩٢ هـ) ص ٩٤- ٩٥.

٢٨٢٦- النواحي العمرانية لمكة المكرمة على مر العصور

عباس المهاجر

مقات الحج ع ٢ (١٤١٥ هـ) ص ٢٣٩- ٢٤١.

٢٨٢٧- نوادر المدنيين

الزبير بن بكار، ت ٢٥٦ هـ

ظ: فهرست النديم ١٢٣.

٢٨٢٨- نور المحجة في أعمال شهر ذي الحجة

النجف الأشرف: مطبعة النعمان، ١٩٧٣ م، ١٦ ص.

٢٨٢٩- النور الوهاج في إيضاح مناسك الحج

هاشم عبدالسلام الظاهر

الموصل: مط الهدف، ١٩٥٥ م، ٣٢ ص.

٢٨٣٠- ثبات الحج والعمرة

الشهيد الثاني زين الدين العاملي ت ٩٦٥ هـ

تحقيق: فارس حسون كريم

مقات الحج ع ٢ (١٤١٥ هـ) ص ٨٠- ٩٦.

٢٨٣١- نيايش حسين عليه السلام در صحراى عرفات

(بالفارسية)

محمد تقى رهبر

طهران: ولى عصر، ١٣٦١ ش.

٢٨٣٢- نيل المرام فى فضل بيت الله الحرام

محمد بن ظافر المكي.

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥

ص: ٣٠٨

(٣- ٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ - ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٨.

٢٨٣٣- الهاديّة في زيارة النبي والأئمّة الطاهرين
ظ:

الذريعة ١٥٥ / ٥ - ١٥٦.

٢٨٣٤- الهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع الجديد

لطفی شاکر عجینہ

منبر الإسلام س ٤٧: ع ١ (٨ / ١٩٨٨ م) ص ٢٦ - ٢٩.

٢٨٣٥- هجرة الرسول إلى المدينة المنورة

حسين أمين

في: موسوعة العتبات المقدسة ج ٣:

قسم المدينة، ص ١٢٩ - ١٧٠.

بيروت: مؤسسة الأعلمی، ط ٢، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

٢٨٣٦- الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

أحمد شلبی

القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥ م، ٣٩ ص (المكتبة الإسلامية لكل الأعمار)

٢٨٣٧- الهجرة والنموذج للمدينة الإسلامية

سر الختم عبدالکريم

رسالة المسجد س ٨: ع ٨٣ (٧ / ١٩٨٨ م) ص ٢٠ - ٢٢.

٢٨٣٨- هدايا الكعبة وآثارها ومعاليقها قبل الإسلام

عبدالقدوس الأنصاري

المنهل (جدة) مج ٥١: ع ٤٧٥ (٣- ٤ / ١٤١٠ هـ) ص ٨٦ - ٨٨.

٢٨٣٩- هدايت السبيل و كفاية الدليل

(رحلة إلى مكة في سنة ١٣٧٢ هـ، بالفارسية)

فرهاد بن عباس قاجار ت ١٣٠٥ هـ

ظ:

نسخهها ٤٠٥٦ / ٦، الذريعة ١٨٩ / ١٢ (سفرنامه) و ١٧٧ / ٢٥ (هدايه)،

استوری ١١٥٧ الرقم ١٦٢٤، برگل ٨٦٣ / ٢ و ٨٦٤

مشار ٥ / ٥٤٦٠، مشار مؤلفين ٨٢٠ / ٤

آستان قدس ٣ / ١٥٥، فيلمها ١ / ١٢١، ملی تبریز ١ / ١٨٤،

ص: ٣٠٩

نشریه ٣/ ١٤١ و ٢٥٢، آصفیه هندلیست ٣/ ٣٥٠، رقم ٩٦،

فهرستواره منزوی ١/ ١٥٧.

٢٨٤٠- هداية الأئمة إلى زیارت الأئمة

(ترجمة كتاب الستر والأستار عن وجه زیارت الزوار، بالفارسیة).

مرتضى خسرو شاهي

ترجمة: عبدالله بن عباد الله الحسيني

مشهد: ١٣٢٣ ش، ٥٦ ص.

٢٨٤١- هداية الأئمة في زیارة الأئمة

(بالفارسیة)

محمد جعفر بن سيف الدين

شریعتمدار استرآبادی ت ١٢٦٣ هـ

خ: السيد المرعشي برقم ٣٠٧٧، ٢٤٢ ورقة، ١٢٦١ هـ،

ظ: فهرس المرعشي ٨/ ٣٠١، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/ ١٦٩.

٢٨٤٢- هداية الثقلين في فضل الحرمين

محمد بن علي عبدالرحمن بن عراق الصمداني (٨٧٨-٩٣٣ هـ)

ظ: الكواكب السيارة ١/ ٦٥،

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤/ ١٤١٠ هـ / ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩، العرب. س ٣١: ج ٧، ٨ (١)، ٢/ ١٤١٧ هـ) ص ٤٧٢.

٢٨٤٣- هداية الحاج

علي الموسوي البهبهاني

اصفهان: ط ٥، ١٣٩٥ هـ.

٢٨٤٤- هداية الزائرين إلى زیارة المعصومين

(بالفارسیة)

محمد ربيع بن عبدالنبي

خ: جلال الدين الأرموي بطهران.

ظ: الذريعة ٢٥/ ١٧٦، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/ ١٦٩- ١٧٠.

٢٨٤٥- هداية السالكين من الأنام إلى حج بيت الله الحرام

مشكور بن محمد الحولاوي النجفي ١٣٧٢ هـ

ظ:

الذريعة ٢٢/ ٢٧٦، ٢٥/ ١٧٦.

٢٨٤٦- هداية القاصدين للحج والعمرة وزيارة سيد المرسلين

عبدالفتاح علي هندام

راجعه وصححه: محمود حسن ربيع

ص: ٣١٠

القاهرة: مطبعة دار الأنوار، ١٣٥٨ هـ، ١٩٦ ص.

٢٨٤٧- هداية المشتاق المستهام إلى رؤية النبي عليه الصلاة والسلام

زين العابدين المرصفي

خ: عارف حكمت برقم ٢٢٧ مجاميع

ظ:

إيضاح المكنون ٢/ ٧٢٣، معجم مألوف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٣٤٦.

٢٨٤٨- هداية الناسك إلى أهم المناسك

عبدالله بن محمد بن حميد

مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، ط ٤، ١٣٩٥ هـ، ١٠٧ ص، ١٧ سم.

٢٨٤٩- هداية الناسكين من الحجاج والمعتمرين

محمد حسن بن محمد باقر صاحب «جواهر الكلام»

ظ: الذريعة ٢٥/ ١٩٨.

٢٨٥٠- هدى الحرمين

محيي الدين محمد محي الأدونه (ت ١٠١٤ هـ)

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ١٤١٠ / ٤ - ١٠ / ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٨٥١- هدية زائرين

(بالفارسية)

حسين صديقي

مشهد: ١٣٤٩ ش، ٩٩ ص، ١٩ سم.

٢٨٥٢- هدية الزائرين

عباس جليان

مشهد: ١٣٨٣ هـ، ٩٩ ص، ١٩ سم.

٢٨٥٣- هدية الزائرين (مجموعة زيارات المدينة المنورة)

محمد حسن النائيني

الكويت: ط ٥، ١٣٨٨ هـ، ٩٨ ص، ١٧ سم.

٢٨٥٤- هدية الزائرين: شامل ادعيه و زيارات در مكة معظمه و مدينه منوره

مشهد: انتشارات هجرت، ط ١، ١٣٧٠ ش، ١٠٢ ص.

٢٨٥٥- هدية الزائرين في الزيارات

محمد بن محمد حسين المرعشي الشهرستاني الحائري

ظ: الذريعة ٢٥/ ٢٠٩، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله

ص: ٣١١

عليهم ١٠ / ١٧٠.

٢٨٥٦- هدية الزائرين وبهجة الناظرين

عباس القمي

تبريز: ١٣٤٣ هـ، ٥٥٩ ص: حجريّة.

طهران: ١٣٢٤ هـ، ٥٥٩ ص، حجريّة.

٢٨٥٧- هدية الزمن في أخبار ملوك الحج وعدن

أحمد فضل بن علي محسن العبدلي

بيروت: دار العودة، ط ٢، ١٤٠٠ هـ، ٣١٩ ص، ٢٤ سم.

٢٨٥٨- هذه هي مكة: أم القرى وأم المدن.

مصطفى نبيل

العربي: ع ٢٣٧ (١٩٧٨ م) ص ٦٨.

٢٨٥٩- هشت بهشت في المزار

(بالفارسية)

عبدالكريم بن جواد الموسوي الجزائري

ظ: الذريعة ٢٥ / ٢٢٣، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠ / ١٧١.

٢٨٦٠- هكذا حج رسول الله صلى الله عليه وآله

محمد مهدي الحسيني الشيرازي

النجف الأشرف: ١٩٦٨ م.

٢٨٦١- هكذا حج رسول الله صلى الله عليه وآله أيام التشريق

محمد عبده يمانى

الإسلام وطن س ٥: ع ٥٢ (٧ / ١٩٩١ م) ص ١٨-١٩.

٢٨٦٢- هل تريد الحج؟

محمد مهدي الحسيني الشيرازي

النجف: مطبعة النعمان، ١٣٨٠ هـ، ١٦ ص (سلسلة الفرائض الإسلامية، ٥)

النجف: ط ٢، ١٩٦٤ م.

٢٨٦٣- هل طاف النبي صلى الله عليه وآله حول الأصنام في عمره القضاء؟

محمد هادي اليوسفي

مقات الحج. س ٣: ع ٥ (١٤١٧ هـ) ص ١٧١-١٨١.

٢٨٦٤- هل يحق لغير المسلم أن يسكن جزيرة العرب؟

يعقوب جعفرى

مقات الحج ع ١ (١٤١٥ هـ) ص ٢١٣-٢٢٢.

٢٨٦٥- هلال المحرم وجبل الثور

أحمد على

المنهل (جدة) مج ٣١: ج ١ (١/ ١٣٩٠ هـ)

ص: ٣١٢

/ ٣ / ١٩٧٠ م) ص ٢١ - ٢٢.

٢٨٦٦- همراه با زائران خانه خدا

(بالفارسیه)

محمد تقی رهبر

طهران: مشعر، ط ٢، ١٣٧٥ ش، ١٤٤ ص، ٢١ سم.

٢٨٦٧- همراه با سپید جامگان

(بالفارسیه)

علی قاضی عسکر

میقات حج: ع ١٧ (پاییز ١٣٧٥ ش) ص ٢٣٣ - ٢٥٤.

٢٨٦٨- همه با هم بسوی خانه خدا

(بالفارسیه)

حسین رزازی

طهران: ١٣٥٣ ش، ١٧٨ ص.

٢٨٦٩- هیئت التوعیه الاسلامیه فی الحج بدأت منذ عام ١٣٩٤ فی بیت الله الحرام

الرابطة (مكة المكرمة) س ٢٦: ع ٢٨١ (٧ / ١٩٨٨ م) ص ٣١ - ٣٢.

٢٨٧٠- وأذن فی الناس بالحج

عبدالسلام عزام

المنهل (جدة) مج ٩: ج ١ (١٣٨٦ هـ / ١١ / ١٩٤٨ م) ص ٢ - ٥.

٢٨٧١- وادی القرى: المفهوم والمسمى (حول مكة المكرمة)

أحمد عبدالله عبدالکریم

الدارة س ٩: ع ١ (یولیو ١٩٨٣ م) ص ٢٩ - ٤٧.

٢٨٧٢- واقعات سفر حجاز

(رحلة إلى الحجاز، بالفارسیه)

شیخ عبدوس (من الهند)

ظ:

نسخه ها ٤٠٥٤ / ٦،

الذریعه ٢١ / ٢٥،

داکا ١ / ٣٦١،

فهرستواره منزوی ١ / ١٥٥.

٢٨٧٣- والیان مکة (از صدر اسلام تاکنون)

(بالفارسیه)

تألیف و تحقیق: هادی أُمینی

ترجمة: محسن آخوندی

مِيقَاتِ حَجِّ س ١: ع ٢ (زمستان ١٣٧١ ش) ص ١٨٥-٢٠٣.

٢٨٧٤- الوثائق السياسية الإدارية العائدة للجزيرة العربية

دراسة ونصوص: محمد ماهر حمادة

بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧ م، ٣٧٢ ص.

ص: ٣١٣

٢٨٧٥- وثائق مخصصات الحرمين الشريفين في مصر أبان العهد العثماني
مصطفى محمد رمضان

دراسات تاريخ الجزيرة العربية: ج ١ (١٩٧٩ م) ص ٢٥٩-٢٧٤.

٢٨٧٦- الوثائق المكتوبة باللغات الأوربية والمتعلقة بالجزيرة العربية في الجزر البريطانية
بقلم: ج. د. بيرسون

في: الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (الرياض:
١٣٩٧ هـ / ٤ / ١٩٧٧ م).

٢٨٧٧- وثائق الوقف على الأماكن المقدسة
عبد اللطيف إبراهيم

دراسات تاريخ الجزيرة العربية: ج ١ (١٩٧٩ م) ص ٢٥١-٢٥٧.

٢٨٧٨- الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة العربية
رشاد الإمام

المؤرخ العربي: ع ١٣، ص ١٨٩-١٩٨.

٢٨٧٩- وثيقة إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة
جعفر عبدالسلام على

الفكر الإسلامي س ١٧: ع ٨ (١٩٨٨ م) ص ٤٧-٥٠.

٢٨٨٠- وجوب الإحرام من الميقات

عبد العزيز بن باز

مجلة التوحيد (القاهرة) س ١٦: ع ١١ (١٩٨٨ م) ص ٤٠-٤٣.

٢٨٨١- وجوب طواف البيت على الأنام ولو كان بعد الانهدام

مجهول المؤلف

ظ:

إيضاح المكنون ٧٠١ / ٤.

٢٨٨٢- الوجيز في الحج مع الإشارة إلى الدليل

محمد على فاضل

الموصل: مط الجمهور، ١٩٧٦ م، ٣٥.

٢٨٨٣- الوجيز في مناسك الحج

محمد تقى المدرسى

طهران: ١٤١٥ هـ.

٢٨٨٤- الوجيز في تعريف المدينة

(بالفارسية)

(رحلة إلى المدينة في سنة ١٢٩٤ هـ)

محمد ميرزا مهندس

تحقيق: رسول جعفریان

[د. م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش

ص: ٣١٤

(مع: به سوى ام القرى، وغيره).

٢٨٨٥- الوجيزة في الزيارات

محمود بن علي بن محمد بن إبراهيم الحسيني الموسوي التبريزي ت ١٣٣٨ هـ.

طبع مع سلامة المرصاد للنوري

ظ: الذريعة ٢٥/٥٢، ١٢/٢١٣، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/١٧٤.

٢٨٨٦- وحدت اسلامي به ضميمه كتاب الحج

(بالفارسية)

مجتبى ذاكري

مشهد: المؤلف، ط ١، ١٣٦٤ ش، ١٨٤ ص، ٢٤ سم.

٢٨٨٧- وسيلة الزائرين

نظام الدين رفيع الدين البربري

طبع عام ١٣١٥ هـ

ظ: الذريعة ٢٥/٧٨، معجم ما كتب عن الرسول و أهل البيت عليهم السلام ١٠/١٧٦.

٢٨٨٨- وسيلة القبول في الصلوة على آل الرسول

خ: مجلس الشورى بطهران

ظ: فهرس المجلس ٩/٤٥، معجم ما كتب عن الرسول و أهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/١٧٦.

٢٨٨٩- وصف لمدينتي مكة والمدينة

مجهول المؤلف

خ: لوثر

ظ: المورد ٤٣، ص ٢٦١، المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤/١٤١٠ هـ / ١٠-١١/١٩٨٩ م) ص ٢٠٩، العرب س ٣١: ج ٧، ٨ (١)، ٢/١٤١٧ هـ) ص ٤٧٣.

٢٨٩٠- وصف المدينة المنورة في سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥ م.

علي بن موسى الأفندي

العرب. س ٦: ملحق ع ٤ (١٠/١٣٩١ هـ / ١٢/١٩٧١) ص ١٠-٢٦.

ملحق ع ٦ (١٢/١٣٩١ هـ / ٢/١٩٧٢ م) ص ٢٨-٥٤ (حمد الجاسر).

٢٨٩١- وصف مشاهد مكة والمدينة

محمد بن عمر الواقدي ت ٢٠٧ هـ

ظ:

العرب. س ٣١: ٧، ٨ (١)، ٢/١٤١٧ هـ) ص ٤٧٣.

ص: ٣١٥

٢٨٩٢- وصف مكة شرفها الله وعظمتها ووصف المدينة الطيبة كرمها الله ووصف بيت المقدس المبارك وما حوله

محمد بن أبي بكر التلمساني

العرب مج ٨: ج ٥، ٦ (١١-١٢ / ١٣٩٣ هـ) ص ٣٢٤-٣٥٧ (حمد الجاسر).

٢٨٩٣- الوصول والمني في فضل منى

الفيروز آبادي

ظ:

المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠-١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٩.

٢٨٩٤- الوضع الاجتماعي في الجزيرة العربية

أحمد الواسطي

مقات الحج: ع ١٠ (١٤١٩ هـ) ص ٢٦٤-٢٨٣.

٢٨٩٥- الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية

كاظم النصيري

مقات الحج: ع ٩ (١٤١٩ هـ) ص ٢٥٠-٢٦٦.

٢٨٩٦- وضع الهلال فوق القبة ومناظر الحرم المدني

مجهول المؤلف

نشر ضمن كتاب (رسائل في تاريخ المدينة) (تقديم وإشراف: حمد الجاسر).

٢٨٩٧- وظائف أخلاقي حاجيان

(بالفارسية)

عبد الهادي مسعودي

مقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش) ص ١٥٦-١٧٠.

٢٨٩٨- وظائف هسته های امر به معروف در حج

(بالفارسية)

محمد محمدي ري شهرى

مقات حج: ع ٢٢ (زمستان ١٣٧٦ ش) ص ١٤٤-١٥١.

٢٨٩٩- وظيفة الحجاج في مستحبات الأعمال للحجاج في مكة والمدينة ومزارات الشام

أحمد بن كربلايى بابا أردبيلي

مطبوع سنة ١٣٤٤ هـ

٢٩٠٠- وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى

أبوالحسن محمد بن عبد الله بن أحمد

ص: ٣١٦

السمهودى

(وهو مختصر كتابه: اقتضاء الوفا)

القاهرة: (بعناية محمد محيى الدين عبد الحميد)

القاهرة: ١٣٢٦ هـ، ٢ ج فى ١ مج

مطبعة الآداب والمؤيد، ١٣٢٦ هـ

بيروت: دار إحياء التراث العربى، ١٣٧٤ هـ، ٧٧٦ + ٦٥٩، ٢٥ * ١٧، ٤ ج فى ٢ مج

الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م، ص ٩٥ - ١٧٩ (ضمن رسائل فى تاريخ المدينة قدم لها وأشرف على

طبعها: حمد الجاسر (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، ١٦).

٢٩٠١- وفود القبائل على الرسول وانتشار الإسلام فى جزيرة العرب (يعرض الكتاب لوفود القبائل العربية على الرسول صلى الله عليه و

آله من شتى أنحاء الجزيرة العربية ويذكر معبوداتهم السابقة ومعتقداتهم)

حسن جبر المالكي

الكويت: وزارة الإعلام، ط ١، ١٩٨٧ م، ٣٢٩ ص، ٢٤ سم (دراسات فى التراث العربى، ١٠) الوعى الإسلامى: ع ٢٩٠ (٢ / ١٤٠٩ هـ / ١٠ /

١٩٨٨ م) ص ٩٢ - ١٠٥ (فهى الإمام).

٢٩٠٢- وفور الأثر فى التوسل إلى سيد البشر

محمد رضا أسد الله شاهى الاصفهانى

اصفهان: ط ٢، ١٣٢٦ هـ، ١٢٨ ص.

ظ:

الذريعة ١٢٢ / ٥.

٢٩٠٣- وقائع الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج ١٤٠٨

محمد بهى الدين سالم

منبر الإسلام س ٤٧: ع ١ (٨ / ١٩٨٨ م) ص ١٠٣ - ١١٩.

٢٩٠٤- وقفه شاعر بوادى العقيق

المنهل (جدة) مج ١: ج ١١ - ١٢ (١٠ - ١١ / ١٣٥٦ هـ / ١٢ / ١٩٣٧ - ١ / ١٩٣٨ م) ص ٥٧ - ٥٩.

٢٩٠٥- وقفه فاحصة عند لفظة: «فلا جناح عليه»

محمد هادى معرفة

مقات الحج ع ١ (١٤١٥ هـ) ص ١٠٠ - ١٠٧.

ص: ۳۱۷

۲۹۰۶- ولّاء مکه

ابن فهد النجم عمر

خ: مدراس بالهند.

مکتبه جامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (نسخه مصورة).

۲۹۰۷- ولّاء مکه بعد الفاسی

عبدالستار الدهلوی

(رسالة)

(طُبعت بمصر سنة ۱۹۵۶ م مع شفاء الغرام)

ظ:

المنهل (جدة) س ۵۶: ع ۴۷۵ (۳-۴ / ۱۴۱۰ هـ / ۱۰-۱۱ / ۱۹۸۹ م) ص ۲۰۹.

۲۹۰۸- الولاية على أرض الحرمين الشريفين في الإسلام والقانون الدولي

محمد الخطيب

منبر الإسلام (القاهرة) س ۷۴: ع ۱۲ (۷ / ۱۹۸۹ م) ص ۳۰-۳۴.

۲۹۰۹- ويژگيهای حج ابراهيمی از دیدگاه حضرت امام خمینی - رضوان الله تعالى عليه -

(بالفارسیه)

میقات حج س ۱: ع ۱ (پائیز ۱۳۷۱ ش)، ص ۱۶-۹،

س ۱: ع ۲ (زمستان ۱۳۷۱ ش)، ص ۹-۱۱،

س ۲: ع ۴ (تابستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷-۸،

س ۲: ع ۵ (پائیز ۱۳۷۲ ش)، ص ۷-۹،

س ۲: ع ۴ (زمستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷-۹،

س ۲: ع ۷ (بهار ۱۳۷۳ ش)، ص ۷-۹،

س ۲: ع ۸ (زمستان ۱۳۷۲ ش)، ص ۷-۸،

س ۳: ع ۹ (پائیز ۱۳۷۳ ش)، ص ۹-۱۱،

۲۹۱۰- ويژگيهای حج سال ۱۳۷۱ ش

(بالفارسیه)

محمد محمدی ری شهری

میقات حج س ۱: ع ۱ (پائیز ۱۳۷۱ ش) ص ۵۳-۴۷.

۲۹۱۱- یا إله الحجيج

ضیاء الدین رجب

المنهل (جدة) مج ۳۳: ج ۲ (۲ / ۱۳۹۲ هـ / ۳-۴ / ۱۹۷۲ م) ص ۲۳۶-۲۳۹.

ص: ٣١٨

٢٩١٢- يادی از سفر پر شکوه حج
(بالفارسیه)

صدر الدین افتخاری

میقات حج: س ٣: ع ١٠ (زمستان ١٣٧٣ ش) ص ١٩٣-١٩٨.

٢٩١٣- یار کجاست (سفرنامه حج)
(بالفارسیه)

رحیم مخدومی

طهران: حوزه هنری سازمان تبلیغات اسلامی، ط ١، ١٣٧٣ ش، ١٨٤ ص.

٢٩١٤- یثرب شهر یادها و یادگارها
(بالفارسیه)

رضا رهگذر

طهران: انتشارات پیام آزادی، ط ٢، ١٣٦٨ ش، ١١٠ ص، ٢٤ سم.

٢٩١٥- یثرب قبل الإسلام

محمد أحمد الوکیل

جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٠٩ هـ، ٢٢٠ ص.

٢٩١٦- یک کتاب در یک مقاله

(بالفارسیه)

عرض کتاب الحج و العمرة فی الكتاب والسنة لمحمدی الری الشهري

محمد رحمانی

میقات الحج: ع ٢٤ (تابستان ١٣٧٧ ش) ص ١٤٢-١٦٤.

٢٩١٧- یلملم

عبدالهادی الفضلی

میقات الحج: ع ٩ (١٤١٩ هـ) ص ٤٤-٦٤.

٢٩١٨- یلملم

(بالفارسیه)

عبدالهادی الفضلی

ترجمة: مهدی پیشوایی

میقات حج: ع ١٩ (بهار ١٣٧٦ ش) ص ١٠١-١١٧.

٢٩١٩- یهفو إلى البيت قلبی

فؤاد شاکر

المنهل (جدة) مج ٣٣: ج ٢ (١٣٩٢ هـ / ٣-٤ / ١٩٧٢ م) ص ٢٤٠-٢٤١.

٢٩٢٠- یهود الحجاز فی العصر النبوی

رفیق التمیمی

الزهراء (القاهرة) مج ٢: ج ٧ (رجب ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) ص ٣٩٠ - ٤٠٠.

٢٩٢١- اليهود في الجزيرة العربية

أحمد الواسطي

مقات الحج ع ٢ (١٤١٥ هـ)

ص: ٣١٩

ص ٢٢٠ - ٢٣٨.

٢٩٢٢- اليهود والدعوة الإسلامية في الحجاز في فترة الرسول صلى الله عليه وآله

فتحي أحمد محمود

جامعة الموصل: كلية الآداب، ١٩٨٢ م (رسالة ماجستير، بإشراف: هاشم الملاح).

٢٩٢٣- يهود يثرب و خير: الغزوات والصراع

ناصر السيد

بيروت: المكتبة الثقافية، ط ١، ١٩٩٢ م، ١٥٠ ص، ٢٤ سم.

٢٩٢٤- يوم الحج الأكبر

على قاضي عسكر

مبقات الحج ع ١ (١٤١٥ هـ) ص ١٦٩ - ١٨٦.

٢٩٢٥- يوم الحج الأكبر: الإعلان بآداب الحج إلى البيت الحرام

إبراهيم العدوي

منبر الإسلام (القاهرة) س ٤٨: ع ١٢ (٧/ ١٩٩٠ م) ص ١٤ - ١٧.

٢٩٢٦- يوم فتح مكة

خليل هندأوى

بيروت: دار العلم للملايين، د. ت، ١١٩ ص (أيام العرب، ٦).

بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٤ م، ١٢٤ ص.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

ان ممثلية الولي الفقيه في شؤون الحج والزيارة واستنادا الى توجيهات قائد الثورة الاسلامية سماحة آية الله العظمى الخامنئي مد ظله العالی ، واتباعا لاوامر مؤسس نظام الجمهورية الاسلامية الايرانية المقدس سماحة الامام الخميني قدس سره ، تتولى عدة مهام من بينها التقييم، وتحديد الأهداف، ورسم السياسات ووضع الخطط العامة والتفصيلية من اجل تحقيق الحج الابراهيمي واداء مراسم الزيارة بشكل مطلوب،

ان اجراء المشاريع الثقافية والتعليمية والسياسية الشاملة للحج والزيارة لتلبية الاحتياجات المعنوية والمعرفية والدينية لزوار بيت الله الحرام والعتبات المقدسة ، خاصة عن طريق جذب وتنظيم وايفاد علماء الدين وكذلك الارتباط المستمر مع الزوار ومسؤولي الحج في الدول الاخرى خلال موسم الحج والعمرة وزيارة العتبات المقدسة، بهدف التعريف بالاسلام والشيعه والثورة الاسلامية وطرح قضايا العالم الاسلامي الاخرى ، هي من الاهداف الاخرى لممثلة الولي الفقيه في شؤون الحج والزيارة ، كما ان من الاهداف الاخرى للممثلة يمكن الاشارة الى الارتباط مع الهيئات والمراكز العلمية والدينية في الدول الاسلامية والسعودية ، واعداد ونشر الكتب والنشرات وباقي المنتجات المقروءة والمسموعة والمرئية ، وكذلك تنظيم الاتصالات العامة والاعلام في ممثلة الولي الفقيه. كما ان موقع ممثلة الولي الفقيه في شؤون الحج والزيارة على شبكة الانترنت يعتبر اول موقع متخصص للحج والزيارة ، اذ انه فضلا عن تلبية الاحتياجات العديدة للمسافرين الى ارض الوحي والعتبات المقدسة وباقي الاماكن الدينية المباركة ، يعد مصدرا قيما ذات محتوى تعليمي في قضايا الحج والزيارة بالنسبة لمتصفح الانترنت.

ان الموقع الاعلامي للحج يحتوي على جميع امكانيات وسيلة رقمية لتوضيح المسائل التعليمية لزوار الاماكن المقدسة. كما يمكن لمكتبة الحج التخصصية اعتبارها جزءا من القابلية التي اوجدها في الفضاء الافتراضي. فمكتبة الحج التخصصية هي مرجع تشمل معلومات وكتب الكترونية ومجموعة مقالات لبعثه قائد الثورة الاسلامية خلال العقدين الماضيين ، وتلبي احتياجات الباحثين الدينيين وزوار الحرمين الشريفين والعتبات المقدسة و... وازافته الى ذلك فان آخر الاخبار الخاصة في مجال الحج والزيارة تنشر ايضا في الموقع الاعلامي للحج. وهذا الموقع هو اول وكالة انباء متخصصة بالحج والزيارة.

ويحتوي الموقع الاعلامي لممثلة الولي الفقيه في الحج والزيارة ، على اقسام مختلفة مثل وكالة الانباء والمكتبة والاماكن ومعرض الصور وتعليم احكام ومناسك الحج ومكتبة الصوتيات والافلام ، والبرمجيات والرد على الشبهات ومناسبات الايام ، والموسوعة الحرة للحج ، والمدونات واقسام اخرى حيث يستطيع متصفح الفضاء الافتراضي الاستفادة منها حسب احتياجاتهم ورغباتهم.

جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
 قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرُّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مُجْتَمَع "القائمية" الثَّقَافِي بِأَصْبَهَانَ - إِيْرَان: الشَّهِيد آيَةُ اللَّهِ "الشَّمْسُ آبَاذِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ أَحَدًا مِنْ جَهَابِذَةِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، الَّذِي قَدْ اسْتَهَرَّ بِشَعْفِهِ بِأَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) وَلَا سَيِّمًا بِحَضْرَةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا (عَلَيْهِ السَّلَام) وَبِسَاحَةِ صَاحِبِ الزَّمَانِ (عَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيف)؛ وَ لِهَذَا أُسِّسَ مَعَ نَظَرِهِ وَ دَرَايَتِهِ، فِي سَنَةِ ١٣٤٠ الْهَجْرِيَّةِ الشَّمْسِيَّةِ (= ١٣٨٠

الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفي مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمة" للتحرّي الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية وطلاب الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية وعلمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة وتبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله وأهل البيت عليهم السلام) ومعارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرّي الأدق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلاية المبتدلة أو الردية - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن وأهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين والطلّاب، توسعة ثقافته القراءة وإغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام والشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها وبثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق والتسهيلات - في آكناف البلد - ونشر الثقافة الإسلامية والإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع ونشر عشرات عنوان كتب، كتيبة، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية ومكتبية، قابلة للتشغيل في الحاسوب والمحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمة" www.Ghaemiyeh.com وعدة مواقع أخرى

(هـ) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق والدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية والاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي واليدوي للبلوتوث، ويب كشك، والرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية واعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، وتنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال والأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية ودورات تربية المربي (حضوراً وافتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصبهان/شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رمضان "ومفتري وفائي" / "بنايه" القائمة

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التَّجَارِيَّةُ وَ الْمَبِيعَات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتِية الحالية لهذا المركز، شَعَبِيَّة، تَبَرَّعِيَّة، غير حكوميَّة، و غير ربحيَّة، اِقْتُنِيَّت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنَّها لا تُوافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدِّيَنِيَّة و العلميَّة الحاليَّة و مشاريع التوسعة الثقافيَّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميَّة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيَّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجهُ الشَّريف) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإِعانتهم - في حدِّ التَّعَمُّكِن لكلِّ احدٍ منهم - إِيَّانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليُّ التوفيق.



مجال تمثيل الولي الفقيه في امور الحج و الزياره

www.hajj.ir

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - باصبهان

www.ghaemiyeh.com

